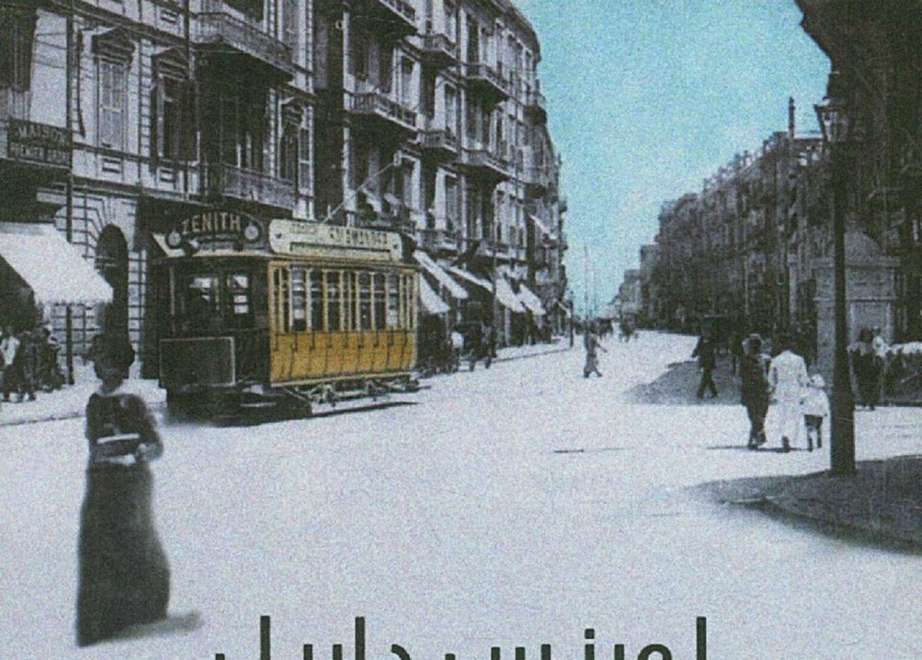


لورنس داريل

رباعيّة الإسكندريّة

جوستين

رواية

دار الشروق

لورنس داريل

رباعية الإسكندرية

جوستين

رواية

ترجمة

فخري لبيب

دار الشروق

طبعة دار الشروق الأولى ٢٠٠٩

رقم الإيــداع ١٣٦٣٦/ ٢٠٠٨
ISBN 978-977-09-2468-0

٨ شارع سيبويه المصرى
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)+
email: dar@shorouk.com
www.shorouk.com

مقدمة

إن هذه المجموعة المكونة من أربع روايات، قصد بها أن تقرأ كعمل واحد تحت العنوان الجمعى «رباعية الإسكندرية»: إن عنوانا فرعيا وصفيا مناسبا يمكن أن يكون «رسالة متصلة». لقد تبنيت افتراض بسبى. وأنا أحاول تحقيق الشكل الذى أريد، شكل يقوم على التشابه أو التماثل التقريبى. إن الروايات الثلاث الأولى مرتبطة بنمط يقوم على الإقحام بين عناصر أخرى، حيث إنها شقيقات لبعضها البعض وليست تابعة أو متممة لبعضها البعض: الرواية الأخيرة فقط هى التى قصد بها أنها متممة حقا، مع إطلاق العنان لبعد الزمان. لقد قصد بالمجموعة كلها أن تكون تحديا للرواية التقليدية التى تقوم على شكل مسلسل: رواية اليوم المشبعة بالزمن.

ومن بين نقاط العمل، فإننى قد خططت فى النهاية مستخدما عدداً من السبل الممكنة للتواصل كى أنشر تلك الحالات والشخصيات فى المزيد من سلاسل الكتب - إننى أقوم بهذا فقط لأقول إنه حتى لو جرى تمديد مجموعة من الكتب بطريقة لانهائية فإن النتيجة لن تكون أبدا «نهرا رومانيا». ويمكن القول إنه عند وضع محور العمل بطريقة صائبة، فإنه لا بد وأن يصدر إشعاعات فى أى اتجاه دون أن يفقد كماله وتناسب علاقاته إلى حد «سلسلة متصلة».

لقد كان فى إمكان، هذه الطبعة. أن تصحح عدداً من الهفوات

التى أشـار إليـها القـراء والنقـاد، وأن تضـيف الصـفحـات القليلة التى حــذفت من الأجــزاء الأصليــة، وهى فى مــرحلة المخطوطات. إن التغييرات ليست كثيرة للغاية، إذ فقدت روايتا بلتازار وماونت أليف نصف دستـة من أسطر المتن الأصلى. وكسبت كليـا قسمـا محـدودا وترجمة جديدة من سى. بى. كافافى

فرنسا ١٩٦٢

ل.د

ملحوظة

شخصيات هذه القصة كلها خيالية وكذلك الراوى ولا تحمل أى تشابه مع أشخاص حقيقيين. المدينة فقط هى الحقيقية.

أعـود نفـسى عـلى فكرة النظر إلى كل فـعل جنسى على أنه عـمليـة يشارك فيها أربعة أشخاص .

وسيكون لدينا الكثير لنناقشه بخصوص هذا الأمر

سيجموند فرويد (خطابات)

هناك موقفان متاحان أمامنا : إما الجريمة ؛ التى ستجعلنا سعداء ، أو المشنقة ؛ التى ستـحرمنا من التعـاسة . أتساءل ، يا تيريز الجميلة ، إذا ما كـان هناك أى تردد ، وأين سيـجد عـقلك الـصغيـر حجـة قـادرة على مواجهة هذا الأمر ؟

المركيز دى ساد
(جوستين)

إلى

إيڤ

هذه التذكارات من مسقط رأسها

جوستين

رواية «جوستين» هى الجزء الأول من (رباعية الإسكندرية) التى كتبها «لورانس داريل» عن الإسكندرية. وهى تحكى قصة امرأة تعيش فى حمأة خطيئة لا تزهدها. . إنها تتذوق كل من تراه عيناها، لكنها أبدًا لا ترتوى؛ فهى تنهل من ماء ملح آسن يزيد من لهيب ظمئها.

وإذا كانت جوستين هى المحور الرئيسى للرواية، فإن هناك محاور ثانوية عديدة:

هناك «نسيم» الزوج الغافل، المنتقم دون أن يصل إلى مبتغاه، و«بلتازار» فيلسوف الخطيئة والشذوذ، و«كليا» التى تعشق جوستين وتهيم بها. و «كابوديستريا» الثعبان الناعم العابث. و«سكوبى» الإنجليزى الطاعن فى السن الذى عينته الحكومة المصرية حينذاك ـ كرمًا منها وزلفى ـ كمسئول عن مكافحة الرذيلة، فبلغت الرذيلة فى عهده حدًا هائلاً، غدا بعده من الضرورى ترقيته ونقله. و «ميليسا» المومس الفاضلة، وأكثر المجموعة شرفًا ونقاء.

وتتجمع كل المحاور فى حبكة رائعة وبأسلوب شعرى لتعطينا صورة عن الحياة التى كان يعيشها فى الإسكندرية قطاع من الأجانب ومن ارتبط بهم. إنها حياة تغطى سطحها الخضرة المزدهرة بينما تمور أعماقها بالعفن والعطن.

الجــزء الأول

البحر الهائج اليوم مرة أخرى، وللريح عصف مدو. وفى وسعك أن تحس تباشير الربيع فى قلب الشتاء. وسماء من لؤلؤ عار دافئ حتى الظهـيرة، والجنادب تحتـمى بالأمـاكن الظليلة. وتبسط الريح الآن السهول الشاسعة، تنهب السهول الشاسعة.

لقد هربت إلى هذه الجزيرة، ومعى بعض الكتب القليلة والطفلة - طفلة «مـيليـسـا» - إننى لا أدرى لم استـخـدمت كلمـة «هربت»، فالفلاحون يقولون فى مزاح: إن الرجل العليل وحده هو الذى ينتقى مكانًا نائيًا كهذا المكان ليجدد قواه. حسنًا، إذا ابتغيت أن تضع الأمر على هذا النحو، إذن فقد أتيت إلى هنا؛ لتندمل جراح نفسى.

فى الليل، عندما تزمجر الريح وتنام الطفلة فى هدوء، فى سريرها الخشبى الهزاز، إلى جوار المدفأة المليئة بالأصداء، أشعل مصباحًا وأنا أهيم، أفكر فى أصدقائى - فى «جوستين» و«نسيم»، فى «ميليسا» و«بلتازار» - وأعود حلقة بعد حلقة من أول سلسلة الذكريات إلى آخرها، إلى المدينة التى استوطناها معًا لفترة قصيرة: المدينة التى عاملتنا كنبْتها، فرسبت فى نفوسنا تناقضات كانت فى الواقع تناقضاتها هى، لا تناقضاتنا نحن كما اعتقدنا خطأ: «الإسكندرية» الحبيبة.

ما كان فى وسعى أن أدرك الأمر كله، إلا بعد أن أذهب بعيدًا عنها كل هذا البعد. وأنا إذ أعيش على هذه الصخرة العارية، تنتزعنى نجمة

«الدب الأكبر» من الظلام كل ليلة، بعيداً عن غبار تلك العصارى الصيفية، المحمل بالجير، أصل فى النهاية إلى أنه ليس صوابًا أن يدان أى منا بما حدث فى الماضى، إنها المدينة التى يجب أن تدان، وإن كان يتحتم علينا نحن ـ أبناءها ـ أن ندفع الثمن.

* * *

أولاً وقبل كل شىء، ما كنه مدينتنا هذه؟ ما الذى تبعثه فى النفس كلمة الإسكندرية؟ فى لمحة خاطفة أرى بعين خيالى ألف شارع كتم الغبار أنفاسها. إنها اليوم ملك للذباب والشحاذين، وهؤلاء الذين يحظون بوجود يتوسط هذين الفريقين. خمسة أجناس، وخمس لغات، و«دستة» من المذاهب: خمسة أساطيل تدور بظلالها اللزجة عبر البحر خلف حاجز الميناء. إلا أن هناك ما يزيد على خمسة أجناس، يبدو العنصر اليونانى الشعبى متميزاً فيما بينها. والغذاء الجنسى الذى يرقد فى متناول اليد مذهل فى تنوعه وغزارته. ولكن، لا تتوهم أبداً أنه مكان سعيد. إن العشاق الرمزيين للعالم الهيلينى الحر، قد استبدلوا هنا، فى هذا المكان، بشىء ناعم مخنث. شىء مقلوب على نفسه. إن الشرق لا يرحب بفوضى الجسد الحلوة، لأنه قد تخطى مشكلة الجسد. إننى أتذكر «نسيم» وهو يقول ذات مرة ـ وفى اعتقادى أنه كان يقتبس ما يقول ـ إن «الإسكندرية» تفعل بالحب ما تفعله معصرة النبيذ، وإن الخارج منها إما أن يكون رجلاً مريضا، أو يعانى الوحدة أو نبيّا ـ أعنى بما أقول، كل الذين جرحوا بعمق فى قدرتهم الجنسية.

* * *

ملاحظات عما تتركه المناظر الطبيعية من أثر. تتابع طويل

للمشاهد، الضوء ينساب خلال عطر الليمون. الهواء مشحون بتراب الآجر، برائحته الحلوة. رائحة الأرصفة الحارة وقد أطفئت بالماء. سحابات خفيفة ندية، تقرب الأرض، لكنها نادرًا ما تحمل أمطارًا، وينتشر فوق هذا كله اللون الأحمر المغبر، والأخضر المغبر، والأرجوانى الجيرى، والقرمزى، وقد صبغ مياه البحيرة. وفى الصيف تعطى رطوبة البحر للهواء لمعانًا خفيفًا. ويقبع كل شىء تحت غطاء صمغى.

ثم يهب فى الخريف هواء جاف سريع، قاس بما حمل من كهرباء ساكنة، يلهب الجسد خلال ملبسه الخفيف. ويعالج الجسد، وقد عادت إليه الحياة، قضبان سجنه. وعاهرة سكرى تسير بالليل فى شارع مظلم، تنثر شذرات من أغان كأوراق الزهر. أترى فى هذا المكان سمع «أنطونيو» ألحان موسيقى رائعة تخدر القلب، أغرته أن يستسلم إلى الأبد للمدينة التى أحبها؟

وتشرع أجساد الشباب الخاملة فى البحث عن صحبة عارية. ويجلس الفتيان فى تلك المقاهى الصغيرة، حيث كان «بلتازار» وشاعر المدينة الشيخ(*) يترددان كثيرًا، يلعبون النرد تحت مصابيح البترول، وهم لا يستقرون على حال، تزعجهم ما تثيره تلك الريح الصحراوية الجافة التى تفتقد الشاعرية وتبعث فى النفس القلق، يتلفتون يراقبون كل غريب. إنهم يجاهدون لالتقاط أنفاسهم، ويتذوقون طعم الجير الحى مع كل نسمة من نسمات الصيف.

* * *

كان علىَّ أن أحضر إلى هذا المكان حتى أعيد من جديد تشييد تلك المدينة فى ذهنى تشييدًا كاملاً. المناطق التى تخيم الكآبة عليها ـ كما

رآها الرجل الشيخ(ф) ـ مليئة بحطام حياته الأسود. طنين عربات الترام وهى تنقض فوق قضبانها الحديدية تخترق ميدان «الأزارطية» الملون بلون اليود. أوراق بلون الذهب والفسفور والماغنسيوم. هنا كثيراً ما التقينا. وفى الصيف كانت توجد دكة قد رصت عليها شرائح البطيخ الأحمر الذى كانت تحب أكله، والمشروبات المثلجة المنعشة. بالطبع كانت تحضر متأخرة بضع دقائق. لعلها قادمة لتوها من لقاء فى غرفة معتمة، الأمر الذى أنأى عنه بفكرى. ولكن كم كانت شفتاها المنفرجتان حول فمها كأوراق الزهر رطبة وفتية وهى تنقض علىَّ كصيف ظامئ. ربما لايزال الرجل الذى تركته يجتر ذكراها مرة بعد أخرى. وربما لا تزال هى كما لو كانت مغبرة بلقاح قبلاته. إلا أن هذا لا يهم على أية حال، فأنا أحس بثقل جسدها اللدن وهى تتكئ على ذراعى تبتسم فى صفاء الناكرين لذاتهم، هؤلاء الذين لا يخفون أسراراً. لقد كان ممتعًا أن نقف هناك، مرتبكين، خجلين، إلى حد ما، تتلاحق أنفاسنا؛ لأننا ندرى ما يبغى كل من الآخر، فالرسائل تمضى وراء وعينا، خلال الشفاه الممتلئة، والعيون، والمشروبات المثلجة، والدكة الملونة. نقف هناك لا نبالى بما حولنا، وإصبعانا الصغيران متشابكان، نشرب جزءاً من المدينة، فى الأصيل المفعم برائحة الكافور.

* * *

كنت الليلة أقلب النظر خلال أوراقى. لقد تحول بعضها إلى ما يفيد المطبخ، والبعض الآخر أتلفته الطفلة. إن هذا النوع من الحكم الصادر على أوراقى يعجبنى، لأنه يتضمن لا مبالاة العالم الخارجى بما يشيده الفن، «لا مبالاة» بدأت أنا أشارك فيها. ومع ذلك فما جدوى تشبيه

رفيق لـ «ميليسا» بينما ترقد هى مدفونة على عمق، كأية مومياء، فى رمال المصب الأسود الضحلة الدافئة؟!

إلا أن تلك الأوراق التى أحرص عليها بعناية؛ هى المجلدات الثلاثة التى كانت تدون فيها «جوستين» يومياتها. كذلك الأوراق التى تسجل جنون «نسيم». لقد أعطاها «نسيم» كلها إلىّ ونحن نفترق قائلاً:

«خذ هذه واقرأها. هناك الكثير فيها عنا جميعًا. إنها ستعاونك على احتمال ذكرى «جوستين» دون إجفال، كما كان علىَّ أن أفعل». لقد حدث هذا فى القصر الصيفى بعد موت «ميليسا»، وهو لا يزال على يقين بأن «جوستين» ستعود إليه. إننى كثيراً ما أفكر والرهبة تخيم علىَّ، فى حب «نسيم» لـ «جوستين». أى حب يمكن فى ذاته أن يكون أكثر عمقًا وأمتن أساسًا من ذلك الحب؟ لقد لون تعاسته بنوع من النشوة، باستعذاب الألم الذى تتوقع أن تلقاه عند القديسين لا مجرد العشاق. ومع ذلك فلمسة واحدة من الملاطفة كانت كفيلة بأن تنقذ نفسه من ذلك الألم الهائل العميق. إننى أعرف أنه من السهل أن ينتقد الإنسان غيره. إننى أعرف ذلك.

البحر: هو المقياس الوحيد للزمن فى تلك الأمسيات الشتوية بسكونها الشامل. إن إيقاعه الواهن فى الذهن هو اللحن الذى كتبت على نغمه تلك الكتابات. الإيقاعات الخاوية لمياه البحر، تلعق جراحها، تهدر على طول منافذ الدلتا، تفور فوق تلك الشطآن المهجورة، الجرداء، جرداء إلى الأبد، تحت طيور النورس: بلونها الرمادى الذى يتخلله الأبيض، والتى تمضغها السحب. لو حدث وكانت هنا أية سفينة شراعية، لتحطمت قبل أن يظللها الشاطئ.

وغُسل حطامها فوق نتوءات الجزر، حيث ينتهى فى جوف المياه الأزرق، آخر جزء فيها، وقد أكلته عوامل التعرية . . . ثم ينتهى .

* * *

أنا والطفلة وحيدان تمامًا، ما خلا الفلاحة العجوز المجعدة الوجه، والتى تأتى فوق بغلها كل يوم من القرية، لتنظيف المنزل . الطفلة سعيدة ونشطة وسط هذا المحيط الذى لم تألفه . لم أطلق عليها اسمًا بعد، لكنه بالتأكيد سيكون «جوستين» وهل هناك اسم غيره؟

أما بالنسبة لى . فأنا لست سعيدًا ولا تعيسًا . أنا أرقد معلقًا كشعرة أو ريشة فى خليط الذكريات الضبابية . لقد تكلمت عن عدم جدوى الفن، ولكنى لم أضف شيئًا صادقًا عما يبعثه فى النفس من سلوان . إن العزاء الذى يمنحه مثل هذا العمل الذى أقوم به بعقلى وقلبى؛ يكمن فقط فى أعماق صمت الرسام أو الكاتب، حيث يمكن أن يعيد تشكيل الحقيقة وصياغتها وبناءها حتى تكشف عن وجهها المعبر . وفى الحقيقة فإن تصرفاتنا الظاهرة ما هى إلا الغطاء الخشن الذى يخفى نسيج الذهب، يخفى دلالة النموذج الذى نعنيه . لأنه يبقى لنا نحن ـ الفنانين ـ ذلك التصالح الودى الممتع ـ من خلال الفن ـ مع كل ما أصابنا بالجراح أو الخذلان، خلال حياتنا اليومية . ونحن على هذا النحو لا نتجنب القدر كما يحاول عامة الناس أن يفعلوا، لكننا نسعى إلى تحقيقه بقدرته الأصيلة، نحققه بالخيال . وإلا فلماذا يوجع كل منا الآخر؟ كلا . فإن الغفران الذى أنشده ـ والذى قد أناله ـ ليس غفرانًا يمكن أن أراه فى عينى «ميليسا» الورديتين اللامعتين، ولا فى نظرة «جوستين» القاتمة، قتامة حاجبها . لقد سلك جميعنا الآن سبلاً متباينة، لكننى أحس فى هذا التمزق الهائل الذى يصيبنى لأول مرة وأنا فى سن النضج، بأبعاد

فنى وسبل حياتى وقد عمقت بذكراهما إلى أبعد الآماد. إننى أستعيدهما بفكرى من جديد، وكأنما هنا فقط ـ حيث المنضدة الخشبية جوار البحر تحت شجرة الزيتون، هنا فقط فى وسعى أن أوفيهما ما تستحقان، حتى تستمد كتابتى هذه طعمها من بعض عناصر حياتهما ـ من أنفاسهما، جلدهما، أصواتهما. ولأنسجها جميعًا فى الأنسجة المرنة لذاكرة الإنسان. إننى أودهما أن يبعثا من جديد، أن يبعثا إلى الحد الذى يغدو فيه الألم فنّا. ربما كانت تلك محاولة فاشلة، لكننى لا أستطيع أن أقرر ذلك. إذ ليس فى وسعى إلا أن أحاول.

انتهينا اليوم، أنا والطفلة، من بناء أرضية مدفأة المنزل. كنا نتحدث خلال العمل فى هدوء، أنا أتحدث إليها كما لو كنت أحدث نفسى عندما أكون بمفردى، وكانت تجيب بلغة مليئة بالحماسة من صنعها هى. ودفنَّا الخاتمين اللذين اشتراهما كوهين لـ«ميليسا» فى الأرض تحت قاعدة المدفأة طبقًا لعادات تلك الجزيرة، فهذا العمل يجلب الحظ الطيب لسكان المنزل.

* * *

عندما التقيت بـ«جوستين» كنت، على وجه التقريب، رجلاً سعيدًا. لقد انفتح أمامى فجأة باب يقودنى إلى علاقة وصال مع «ميليسا» ـ علاقة وصال لم ينل من روعتها أنها لم تكن متوقعة، وأننى لم أكن أستحقها على وجه الإطلاق. فأنا ككل الأنانيين لا أطيق العيش وحيدًا. وأقول صادقًا، إن آخر سنة من سنى العزوبة قد أعيتنى، وقادنى إلى اليأس قصورى عن الإلمام بالشئون المنزلية، وعجزى التام فيما يخص أمور الملبس والمأكل والمصروفات النقدية. وكنت، أيضًا، قد سئمت الحجرات التى تتخذها الصراصير مأوى لها

حيث كنت أعيش حينذاك، ويقوم على خدمتى خادم نوبى أعور يدعى «حميد». إن «ميليسا» لم تخترق تحصيناتى المتداعية بأىّ من الصفات التى يمكن أن يعددها المرء فى المعشوق- الجمال النادر، أو الذكاء- كلا، وإنما اخترقتها بقوة ما، لا أملك إلا أن أدعوها برّا وإحسانًا، بالمعنى اليونانى للكلمة. لقد تعودت أن أراها، كما أذكر، شاحبة، أقرب إلى الهزال، ترتدى سترة رثة من جلد كلب البحر، تقود كلبها الصغير خلال الشوارع وقد غلفها الشتاء. ويداها المعروقتان كيدى مسلول، وحاجباها مصنوعان مدببان إلى أعلى؛ ليجملا عينيها البديعتين الجريئتين الصريحتين كنت أراها باستمرار، يوميًا، لشهور عديدة غير أن جمالها المصبوغ العابس لم يثر فى نفسى أية استجابة. كنت أمر بها يومًا بعد يوم، وأنا فى طريقى إلى مقهى (الأقطار) حيث كان ينتظرنى «بلتازار» بقبعته السوداء ليلقى علىَّ «بتعاليمه». لم يدر بخاطرى قط أنى سأغدو عشيق «ميليسا».

كنت أعلم أنها قد عملت ذات مرة كموديل فى أحد المراسم- وهى وظيفة لا تحسد عليها- وأنها تعمل الآن راقصة. وأكثر من ذلك، كنت أعلم أنها كانت محظية تاجر فراء عجوز، رجل سوقى فظ من تجار المدينة. إننى أكتب هذه الملاحظات، لأسجل فقط قطاعًا من حياتى سقط فى البحر «ميليسا! ميليسا!».

* * *

إننى أعود بأفكارى إلى ذلك الوقت الذى كان فيه إحساسنا نحن الأربعة بالعالم حولنا يكاد يتلاشى. الأيام غدت مجرد فواصل بين الأحلام، فواصل بين مواقع الزمن المتغيرة، بين الادعاء والتمثيل. والحياة خارج الإطار المحيط بنا... مدّ من الأحداث التى لا معنى لها،

يتحسس طريقه على طول المدى الذى تفقد فيه الأمور كيانها، دون الدخول فى أى جو محدد، لا يقودنا إلى مكان ما، ولا يطلب منا شيئًا إلا المستحيل - وهو أن نوجد. و«جوستين» تقول: «إننا قد وقعنا فى نطاق إرادة أقوى وأحزم من أن تكون إرادة إنسانية - نطاق الجاذبية الذى تحيط به «الإسكندرية»، هؤلاء الذين اختارتهم كنماذج تعبر عنها».

* * *

الساعة السادسة. وقع أقدام أناس ترتدى الملابس البيضاء من ميدان المحطة. الحوانيت تمتلئ وتفرغ كالرئات فى شارع الراهبات. أشعة شمس الأصيل المتطاولة تلون منحنيات الحديقة. والحمائم المبهورة، كحلقات من ورق مبعثر، تصعد إلى المنائر، لتنال آخر شعاعات الضوء المتلاشى على أجنحتها. رنين الفضة فوق موائد الصيارفة، والسور الحديدى خارج البنك ما زال أسخن من أن يلمس. جلجلة العربات التى تجرها الخيل وهى تحمل الموظفين بطرابيشهم الحمراء التى تشبه أصص الزهور، إلى المقاهى المطلة على البحر. هذه هى الساعات التى أضيق بها أكثر من غيرها، عندما ألمحها على غير انتظار من شرفتى، تسير متثاقلة نحو المدينة، وقد انتعلت صندلها الأبيض، وهى بعد نصف نائمة وتتمدد المدينة كسلحفاة عجوز تمعن فيها النظر، وهى تنحى جانبًا، للحظة قصيرة، خرق الجسد الممزقة. بينما يعلو فوق أنين وصرخات الماشية، شذرات خنفاء من أغنية حب دمشقية قادمة من زقاق مختبئ إلى جوار السلخانة، تقاسيم محشرجة كصوت العظام وهى تطحن إلى دقيق.

والآن يفتح الرجال المجهدون مصاريع شرفاتهم، يخطون فى الضوء الحار الشاحب. يرمشون بأعينهم - كزهور أسقمها الحرمان من

الضياء، يقضون ما بعد الظهر في ضيق، يتقلبون على سرر كريهة، تغلفهم الأحلام. لقد غدوت واحدًا من هؤلاء الكتبة البؤساء أصحاب الضمير، مواطنًا من مواطنى «الإسكندرية». إنها تمر تحت نافذتى وهى تبتسم وكأن أمرًا خاصا يرضيها، تروّح وجنتيها بمروحة صغيرة مصنوعة من الغاب. إنها ابتسامة قد لا أراها مرة أخرى، فهى تضحك فقط، عندما تكون في صحبة الآخرين، فتظهر تلك الأسنان البيضاء الرائعة، إلا أن تلك الابتسامة الحزينة الخاطفة، مليئة بميزة لا يعتقد المرء أنها تملكها؛ إنها القدرة على الإيذاء. لقد كان فى وسعك أن تقول بأن شخصيتها أكثر ميلاً للطابع المأساوى، وأنها تفتقر إلى روح الدعابة العادية. إن الذكرى الملحة لتلك الابتسامة فقط، هى التى ستجعلنى أشك، فى قادم الأيام، فى صحة هذا الأمر.

* * *

كنت قد لمحتها مرات عديدة فى أوقات مختلفة. وكنت بالطبع أعرفها شكلاً فحسب، قبل أن نلتقى بزمن طويل، معرفة جيدة. فلا يمكن فى مدينتنا أن يكون مغمورًا، من كان دخله السنوى يزيد على مائتى جنيه. كنت أراها بمفردها تقرأ جريدة وتأكل تفاحة، قرب البحر، أو فى ردهة فندق «سيسيل»، بين أشجار النخيل المتربة. وقد ارتدت رداء مرصعًا بالفضة يشبه غمد الخنجر، تمسك بفرائها الفاخر على ظهرها كما يمسك القروى عباءته، وقد ثنت سبابتها الطويلة على مشبكه المعدنى. ويتوقف «نسيم» عند باب صالة الرقص، التى كان الضوء والموسيقى يغمرانها... لقد افتقدها. وتحت أشجار النخيل، جلس كهلان، فى خلوة عميقة، يلعبان الشطرنج. وتوقفت «جوستين» كى ترقبهما. إنها لا تعرف شيئًا عن تلك اللعبة، لكن جو الصمت

والتـركـيـز الذى تفـيـض به الخلوة كـان يخلبـهـا . فـتـقـف هناك طـويلاً بين اللاعبين اللذين لا يسمعان شيئًا، وبين عالم الموسيقى، وكأنها حائرة فى أيهما تغمر نفسها. وأخيرًا يجىء «نسيم» فى رقة، ليأخذ ذراعها، وليقفا معًا للحظة، هى تراقب اللاعبين وهو يرقبها. وأخيرًا تذهب فى رقة، وعلى مضض، وبرزانة إلى العالم المضاء، وقد أطلقت تنهيدة قصيرة.

وفى أحوال أخرى، كانت جوستين بلا شك، لا تشرف نفسها كثيرًا، ولا تشرفنا نحن الباقين جميعًا: ومع ذلك فما أشد قدرتها على التأثير، وما أشد طراوة أنوثتها، تلك المرأة التى كانت أكثر النساء استرجالاً وأوسعهن حيلة. لم يكن هناك مفر من أن تذكرنى بتلك السلالة من الملكات الرهيبات اللائى تركن خلفهن رائحة حبهن المحرم النفاذة كرائحة الأمونيا (النوشادر) لتحوم كسحابة فوق وجدان سكان «الإسكندرية». إن القطط العملاقة آكلة الرجال مثل «أرسينو» كن شقيقاتها الحقيقيات. ومع ذلك فإن شيئًا آخر كان يكمن وراء تصرفات «جوستين»، شيئًا هو وليد فلسفة مأساوية حديثة توازن فيها الأخلاق والشخصية المخادعة أمام بعضهما البعض فى كفتى ميزان واحد. لقد كانت ضحية شكوك حقيقية مثيرة. ورغم ذلك فقد كان فى وسعى أن أرى علاقة مباشرة بين صورة «جوستين» وهى تنحنى فوق بالوعة قذرة بها الجنين (السَّقَطْ)، وبين «صوفيا» البائسة عشيقة «فالنتينوس» التى ماتت من أجل حب كان كاملاً بقدر ما كان خاطئًا من أساسه.

* * *

يشاركنى فى شقتى الصغيرة، التى تقع فى شارع «النبى دانيال» موظف صغير بالسلك القنصلى يدعى «جورج بومبال». وهو شخصية

متميزة بين الدبلوماسيين، إذ يبدو منتصب القامة. إن طاحونة البروتوكول والحفلات - والتى تشبه كابوسًا سيرياليًا - تغدو بالنسبة إليه مليئة بسحر غريب. إنه يرى الدبلوماسية بعينى «دونير روسو». وينغمس فيها دون أن يدعها تلتهم ما بقى من عقله. وفى اعتقادى أن سر نجاحه فى كسله الهائل الذى يكاد أن يكون خارقًا.

إنه يجلس إلى مكتبه فى القنصلية العامة، وقد غمره سيل لا ينقطع من بطاقات تحمل أسماء زملائه. إنه رجل ضخم الجثة كسول، إنسان شديد البطء، مولع بقيلولة ما بعد الظهر «وبكر بيلون الابن». تفوح من مناديله رائحة «ماء البرتقال» الرائعة، والنساء هن مدار حديثه المفضل. إنه بالقطع يتكلم عن تجربة، فتتابع الزائرات إلى الشقة الصغيرة لا ينتهى. ونادراً ما يرى المرء نفس الوجه مرتين. «الحب هنا يمتع الرجل الفرنسى. فالنساء يقدمن قبل أن يفكرن بروِيّة، وعندما يحين وقت الشك، ومعاناة تأنيب الضمير، يكون الوقت حارّاً للغاية، وليس هناك من له القدرة على ذلك. إن هذه الحيوانية تفتقد اللباقة، إلا أنها تلائمنى. لقد أبليت قلبى وعقلى بالحب، وأبغى أن أترك وحيداً - وخاصة يا عزيزى - من هذا الهوس الدينى لتشريح وتحليل الموضوع. إننى أود العودة، سليم القلب، إلى مزرعتى فى «نورمانديا».

ويقضى «جورج بومبال» فترات طويلة من الشتاء بعيداً فى إجازة. وأنفرد أنا بالشقة الصغيرة الرطبة، ساهراً إلى ساعة متأخرة، أصحح كراسات التمرين ولا رفيق لى إلا «حميد» بشخيره. لقد بلغت فى هذه السنة الأخيرة، ذروة الانحطاط النفسى، إننى أفتقد قوة الإرادة لأصنع أى شىء بحياتى، لأحسِّن وضعى بالعمل الشاق، أن أكتب: حتى أن أضاجع. إننى لا أدرى ماذا حل بى. إنها المرة الأولى التى أصادف فيها

فشلاً حقيقيًا لإرادتى فى أن أحيا. وأقلب ما بين الحين والحين لفة مخطوط، أو نسخة أصلية أو كتاب شعر فى إهمال يثير التقزز، فى حزن، كشخص يطالع جواز سفر قديمًا.

من وقت لآخر كانت إحدى فتيات «جورج» الكثيرات تضل طريقها إلى وكرى بأن تزور الشقة وهو غائب عنها. ومثل تلك الواقعة كانت، لفترة ما تزيد من حدة «تبرمى بالحياة». إن «جورج» إنسان كريم كثير التفكير فى مثل تلك الأمور. فقبل رحيله (ولمعرفته كم أنا فقير) كان يدفع مقدمًا نقودًا لواحدة من السوريات من حانة «جولفو» ويأمرها بأن تقضى بعض الليالى فى الشقة «تحت تصرفى» كتعبيره هو. وواجبها أن ترفِّه عنى، وهى مهمة لا تحسد عليها بأية حال من الأحوال، خاصة وأنه لا يوجد فى مظهرى ما ينبئ عن افتقارى إلى البهجة. وأضحت قلة الحديث سلوكًا مفيدًا للآلية التى تستمر طويلاً بعد أن يفقد المرء حاجته للكلام. وإذا اقتضى الأمر ففى وسعى أن أضاجع بارتياح، ولكن دون عاطفة أو اهتمام، فالمرء لا ينام نومًا جيدًا فى هذا المكان!

إن بعض تلك اللقاءات مع مخلوقات مسكينة مرهقة دفعتها الحاجة المادية إلى أقصى حد، ممتع ومؤثر كذلك، إلا أننى قد فقدت كل اهتمام بتصنيف عواطفى، حتى إنهن قد ظللن بالنسبة إلى كصور مهزوزة تومض على شاشة. لقد قالت «كليا» ذات مرة، «هناك أشياء ثلاثة يمكن القيام بها مع امرأة، أن تحبها، أن تعانى من أجلها. . . . أو تحيلها إلى مادة للأدب». وكنت أعانى إفلاسًا فى مجالات كل تلك المشاعر.

إننى أسجل هذا لأظهر المادة الإنسانية التى لا يرجى منها، والتى

اختارت «ميليسا» أن تمارس عملها عليها، أن تنفث فى خياشيمى بعض أنفاس الحياة. لم يكن سهلاً عليها أن تحمل هذا العبء المزدوج إلى جانب مرضها وأحوالها الخاصة البائسة. أن تضيف أعبائى إلى أعبائها يحتاج إلى شجاعة حقيقية، لعل اليأس قد ولد لديها هذه الشجاعة، لأنها، هى الأخرى، كانت قد بلغت الحضيض. لقد كنا زملاء فى الإفلاس.

كان تاجر الفراء العجوز يتبعنى لأسابيع خلال الشوارع، يحمل مسدسًا يثقل جيبه. ولقد كنت مطمئنًا لأنى أعرف من أحد أصدقاء «ميليسا» أن المسدس لم يكن محشوًا. إلا أن مطاردة هذا الرجل العجوز لى كانت - رغم ذلك - أمرًا مزعجًا. ولابد أن كلاً منا - فى خياله - قد أطلق الرصاص على الآخر عند كل ركن من شوارع المدينة. ومن ناحيتى، لم أكن أطيق النظر إلى هذا الوجه البليد المجدور بعناقيد الكآبة البهيمية لملامحه المعذبة التى تكسو وجهه. لم أكن أطيق التفكير فى ملاطفاته السمجة الثقيلة لها: هاتان اليدان الصغيرتان الراشحتان عرقًا المغطاتان كالقنفد بالشعر الأسود الكثيف. لقد استمرت هذه الحال لفترة طويلة، ثم نما فيما بيننا، بعد عدة شهور، شعور غريب بالألفة. كنا كلما التقينا نومئ ونبتسم لبعضنا البعض. وذات مرة التقينا فى أحد البارات، ووقفت إلى جواره قرابة نصف ساعة، وكدنا نتبادل الحديث، إلا أن أحدًا منا لم تكن لديه الشجاعة ليبدأه. لم يكن هناك من موضوع مشترك للحديث سوى «ميليسا». وبينما أغادر البار لمحته فى إحدى المرايا الطويلة، وقد أحنى رأسه يحملق فى كأس. لقد صدمنى شيء ما فى هيئته، شيء فى مظهره، كعجل بحر مدرب يتشبث بالمشاعر الإنسانية. وأدركت لأول مرة، أنه من المحتمل، أن يكون قد أحب «ميليسا» بالعمق الذى أحببتها به. ورثيت لقبحه

وعجزه الموجع الضائع والذى يواجه به مشاعر جديدة عليه، مشاعر كالغيرة والحرمان من المحظية التى يعزها.

وفيما بعد، حينما كانوا يقلبون جيوبه، رأيت بين خليط الحاجيات الموجودة زجاجة عطر صغيرة فارغة من النوع الرخيص الذى كانت تستعمله «ميليسا»، فأخذتها معى إلى الشقة، حيث بقيت على المدفأة لعدة شهور قبل أن يلقى بها «حميد» خلال حملة التنظيف الشامل للشقة. ولم أخبر «ميليسا» بهذا الأمر. ولكن عندما أكون وحدى بالليل بينما «ميليسا» ترقص أو ربما تضاجع واحدًا من معجبيها، بسبب الحاجة، كنت غالبًا ما أتفحص تلك القارورة الصغيرة فى حزن وانفعال، أتأمل وأفكر فى حب هذا الرجل العجوز، هذا الحب الفظيع، وأقيسه بحبى. وأتذوق ـ واضعًا نفسى مكانه ـ ذلك اليأس الذى يجعل المرء يتشبث بشىء صغير منبوذ، ما زال مشبعًا بذكرى الحبيب الخائن.

لقد عثرت على «ميليسا» فوق سواحل «الإسكندرية» الموحشة، وقد غسلتها المياه كطائر أوشك أن يغرق، وقد تحطم فيها جانبها الجنسى.

* * *

شوارع تنطلق من أحواض السفن، مثقلة بمنازل عفنة نخرة، تتنفس فى أفواه بعضها البعض، مقلوبة على ذاتها. شرفات تعج بالفئران. وعجائز النساء قد امتلأ شعرهن بدم القراد. جدران تقشر طلاؤها، تميل سكرى شرقًا وغربًا من مركز ثقلها الحقيقى. شريط الذباب الأسود يلصق نفسه إلى شفاه وعيون الأطفال ـ ومسابح رطبة من ذباب الصيف فى كل مكان ـ ينهش ثقل أجسامها أوراق الذباب العتيقة المعلقة

على المقاهى والأكشاك البنفسجية. رائحة الرواد المستحمين فى رغوة عرقهم تشبه رائحة سجادة سلم بالية. ثم ضجيج الشارع: صياح وصليل بائع العرقسوس الصعيدى يدق أقداحه المعدنية معًا كوسيلة للإعلان عما معه، والصرخات التى لا يكترث بها أحد، تخترق الضوضاء من حين لآخر كصرخات حيوان رقيق التكوين تزال أحشاؤه. الآلام كالبرك، حضَّانة للشقاء الإنسانى بمقادير تجعل المرء مأخوذًا، وقد فاضت مشاعره الإنسانية فى طوفان من التقزز والهلع.

كنت أبغى - لو أستطيع - تقليد طريقة «جوستين» المباشرة الواثقة من ذاتها، وهى تشق طريقها خلال تلك الشوارع نحو مقهى «الباب»، حيث كنت فى انتظارها. جلسنا عند القوس المتهدم، الذى يجاوره باب المقهى، نتجاذب أطراف الحديث بكل براءة، إلا أن حديثنا قد غدا بالفعل مشبعًا بتفاهم مشترك، اعتبرناه، فألا سعيدًا بصداقة خالصة. وتملكتنا فقط، ونحن فوق تلك الأرضية الموحلة الداكنة، نحس محور الكرة الأرضية يبرد فى سرعة مائلاً نحو الظلام، رغبة فى أن تتصل آراؤنا وخبراتنا التى تخطت مجال الفكر المألوف للحديث بين الناس العاديين. كانت تتكلم كرجل. وكنت أخاطبها كما لو كانت رجلاً. فى وسعى فقط أن أتذكر طراز وقيمة تلك الأحاديث، لا مادتها. وأنا إذ أجلس هناك متكئًا على كوع نسيته، أشرب العرقى الرخيص، وأبتسم لها، أستنشق عطر الصيف الدافئ المنبعث من ردائها وجلدها، عطر يسمى، ولا أدرى لماذا، «جاميه ده لافى»(*).

هناك لحظات تمتلك الكاتب لا العاشق، لحظات تعيش إلى الأبد، لحظات فى وسع المرء أن يعود إليها فى ذاكرته مرة وأخرى، أو يستخدمها معينًا يمكن أن يشيِّد عليه دوره فى الحياة، ألا وهو الكتابة.

(*) أى «أبدًا» (المترجم).

فى وسع المرء أن يلوث تلك اللحظات بالكلمات، ولكن ليس فى وسعه أن يفسدها. وفى هذا السياق أيضًا، أستعيد لحظة أخرى مماثلة، وأنا راقد إلى جوار امرأة نائمة فى حجرة رخيصة قرب الجامع. فى ذاك الفجر الربيعى المبكر، بنداه الكثيف، المرسوم فوق الصمت، الذى يبتلع المدينة بأكملها قبل أن توقظها الطيور، التقطت أذناى صوت المؤذن الأعمى العذب وهو يرتل - صوت معلق كالشعرة فى الطبقات العليا لجو الإسكندرية وقد رطبها النخيل - يرتل كلمات الأذان وبعض آيات القرآن القصيرة يتحدث خلالها عن كمال الإله، الدائم (وهى تتكرر ثلاث مرات، كل منها أبطأ من السابقة فى تنغيم عذب مرتفع) وكمال الإله المراد، الدائم، الواحد، العالى: كمال الإله الواحد الأحد، كماله الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، لا يعصيه أحد، ولا ينوب عنه أحد، ليس له كفو ولا خلف، كماله المعظم.

ويشق الدعاء العظيم من الكلمات الوضاءة طريقه إلى وجدانى الناعس، كحية، لفة بعد لفة، وصوت المؤذن يهبط فى هيبة من نغمة إلى نغمة؛ حتى يبدو الصباح جميعه كثيفًا بقدرته الغريبة على لأم الجراح، وإيماءات منَّة غير مستحقة أو منتظرة تعمر تلك الحجرة الرثة، حيث رقدت «ميليسا» تتنفس فى هدوء كطير النورس وهى تهدهد فوق لآلئ المحيط بلغة لن تعرفها أبدًا.

* * *

من الذى يستطيع أن يزعم؛ أن «جوستين»، لم يكن لها جانبها الأحمق؟. عبادة اللذة، الخيلاء العابرة، الاهتمام بأن يكون لمن دونها فكرة طيبة عنها، التعالى. كان فى وسعها - إذا شاءت - أن تكون مثيرة للمتاعب. حقّا، حقّا. إلا أن كل الشوائب يغذيها المال. إننى لا أقول غير

أنها كانت تفكر كرجل فى كثير من الأمور، بينما كانت تتمتع فى تصرفاتها بشىء من الاستقلال الواضح المنطلق الذى يبدو فى مظهر الرجال. كانت الألفة التى تجمعنا ذات طابع عقلى غريب. واكتشفت ـ منذ فترة مبكرة ـ أن فى مقدورها قراءة الأفكار بطريقة لا تخطئ. لقد كانت تواتينا الأفكار فى ذات الوقت. إننى أتذكر ذات مرة أدركت فيها أنها تشاركنى بعقلها فكرة كانت لتوها قد انبثقت فى عقلى، وهى أن هذه المودة يجب ألا تمتد أكثر من ذلك، وأن ما سننتهى إلى تكشُّفه وراء ألوان الشهوة القاتمة النسيج، سيكون صداقة قد تعمقت إلى المدى الذى سيجعلنا أسيريها أبد الدهر. لقد كان هذا ـ إذا أحببت ـ غزلاً بين عقلين أرهقتهما قبل الأوان تجربة ظهر أنها أخطر بكثير من حب قائم على الجاذبية الجنسية.

وعجزت عن تأمل تلك الفكرة، دون أن ينتابنى الفزع، فقد كنت أعرف حب «جوستين» الكبير لـ «نسيم» كما كنت أنا نفسى أحبه حبّاً جمّاً. كانت ترقد إلى جوارى تتنفس فى هدوء وتحملق بعينيها الكبيرتين فى السقف الذى تكسوه الملائكة. وقلت لها: «إن حبّاً كحبنا هذا، بين مدرس فقير وواحدة من سيدات المجتمع السكندرى، لن يؤدى إلى شىء. وكم سيكون مرّاً على النفس، أن ينتهى كل شىء إلى فضيحة من تلك الفضائح التقليدية التى تتركنا وحيدين، وتضع على عاتقك عبء اتخاذ قرار فى كيفية التخلص منى». كانت «جوستين» تكره سماع الحقيقة. فاستدارت على مرفقها تحملق فىَّ بعينين مضطربتين لمدة طويلة، ثم قالت بصوتها الأجش الذى غدوت أحبه كثيراً، «لا مجال للخيار فى هذا الأمر، إنك تتكلم كما لو كان هناك مجال للخيار. إننا لسنا أقوياء أو أشراراً بالدرجة التى تمكننا من ممارسة الاختيار. إن كل هذا إنما هو جزء من تجربة قد دبرها شىء آخر، ربما تكون المدينة، أو جزء آخر من ذواتنا، من أين لى أن أعرف».

إننى أتذكرها جالسة أمام المرايا المتعددة عند الخياطة، تجرب لها رداء من «الشارك سكين» وهى تقول:

«انظر، خمس صور مختلفة لنفس الشيء، لو أننى مارست الكتابة لحاولت إظهار تأثير تعدد الأبعاد فى الشخصية. نوع من تعدد زوايا الرؤية. لماذا لا يعبر الناس عن أنفسهم بأكثر من زاوية واحدة فى نفس الوقت».

ثم تثاءبت وأشعلت سيجارة. وجلست فوق السرير وقد أمسكت كعبيها الدقيقين بيديها، وهى تتلو فى بطء ونطق معوج تلك الأبيات الرائعة للشاعر اليونانى الشيخ عن قصة حب، مضى عليها زمن طويل - إلا أن الأبيات فقدت مذاقها، وهى تتلى بالإنجليزية.

وأحسست مرة أخرى، وأنا أسمعها تتلو أبيات الشاعر، وتلمس فى رقة كل مقطع من شعر هذا المفكر اليونانى الساحر، بالقوة الغامضة الغريبة لتلك المدينة - وأرضها المسطحة الغرينية وأجوائها المرهقة - وأدركت أنها ابنة حقيقية للإسكندرية، تلك المدينة التى لا هى باليونانية أو السورية أو المصرية ولكنها خليط، شيء مشترك، من كل هؤلاء.

وبأى إحساس بلغت المقطع، الذى يلقى فيه الشيخ جانبًا رسالة الحب القديمة التى أثارت أشجانه إثارة بالغة ويصرخ: «إننى أخرج فى حزن إلى الشرفة، أفعل أى شيء لأغير مجرى تلك الأفكار، حتى لو كان مجرد رؤية حركة هامسة فى المدينة التى أحب، فى شوارعها ومتاجرها». وتدفع «جوستين» بنفسها المصاريع لتقف فى الشرفة المظلمة، فوق مدينة من الأضواء الملونة، تحس ريح المساء تهب من تخوم «آسيا». وقد غفلت اللحظة عن جسدها.

* * *

«الأمير نسيم»، إنها بالطبع نكتة، على الأقل بالنسبة لأصحاب الحوانيت والتجار ذوى المعاطف السوداء الذين كانوا يرونه راكبًا سيارته «الرولز» الفضية الفخمة بأغطية مدار عجلاتها الصفراء الباهتة، فى لون زهرة «الدافوديل»، السائرة بهدوء فى الطريق الظليل. ولتقديمه، فقد كان قبطيّا، ولم يكن مسلمًا. ومع ذلك فقد اختير لقبه اختيارًا موفقًا، إذ كان «نسيم» كالأمراء فى ترفعه عن الجشع العام الذى انغمست فيه غرائز السكندريين المبجلة بمن فيهم أشدهم ثراء. ومع ذلك فإنه لم يكن فى أى من العوامل التى جلبت عليه سمعة الشذوذ، ما يثير الانتباه عند هؤلاء الذين عاشوا خارج نطاق الشرق. فهو لم يكن يبالى بالمال إلا لإنفاقه - تلك أولى خصاله، أما الثانية فهى أنه لم يكن يمتلك شقة يمارس فيها الرذيلة. لقد بدا شديد الإخلاص لـ «جوستين»، وهى حالة نادرة الوجود. ولما كان شديد الثراء، فقد سيطر عليه نفور عميق من المال، جعله لا يحمل بنفسه أى شىء منه. كان ينفق على الطريقة الغربية؛ ويعطى لأصحاب الحوانيت صكوكًا بخط يده. وكانت النوادى الليلية والمطاعم تقبل شيكاته الموقع عليها بإمضائه. ومع ذلك فإنه كان يفى بديونه فى دقة، إذ يرسل سكرتيره «سليم» بالسيارة كل صباح، كى يتعقب طريقه فى اليوم السابق، ويسدد كل ما تجمع عليه من ديون.

واعتبر سكان المدينة مسلكه هذا ضربًا من الشذوذ والتعالى إلى أقصى الحدود، فقد كانت لهم خصال مكتسبة فظة واهتمامات منحطة وثقافة خاطئة لا تمدهم بأى خيط يقودهم لمعنى السلوك بمفهومه الأوروبى، ولكن «نسيم» لم يكن قد تعلم هذا السلوك فحسب واكتسبه، بل لقد ولد وله هذا السلوك. ففى هذا المجتمع المحدود، والذى يحكمه سعار مخطط لجمع المال، لم يكن ليجد مجالاً لفاعلية

الروح، خاصة إذا كانت رقيقة، ميالة إلى التأمل. كان أقل الرجال ادعاء، تعبر عنه أعماله التى تحمل الطابع الحقيقى لشخصيته. لقد كان الناس ميالين إلى أن يرجعوا سلوكه إلى ثقافته الأجنبية، ولكن «ألمانيا» و «إنجلترا» لم تؤثرا فى الحقيقة فيه إلا قليلاً، لقد بلبلتاه، وجعلتاه غير لائق لحياة المدينة. غرست الأولى فيه عقلاً فطريًا من عقول البحر المتوسط، ونزعة تأملية لما وراء الطبيعة، بينما حاولت «أكسفورد» أن تجعله متعاليًا، ولكنها لم تنجح إلا فى تطوير نزعته الفلسفية إلى الحد الذى غدا فيه عاجزاً عن ممارسة الرسم، الفن الذى أحبه أكثر الحب. لقد فكر وقاسى كثيراً، إلا أن التصميم على الإقدام - وهو أولى الصفات اللازمة لمن يتدرب على الفن - كان ينقصه.

كان «نسيم» والمدينة على طرفى نقيض، إلا أن رجال الأعمال فيها والذين كانوا على صلة يومية به لثروته الضخمة، قد عمدوا إلى تخفيف كراهيتهم له بمعاملته فى رفق يثير الضحك، تفضُّل كهذا الذى يتعطف به المرء على أبله. لم يكن هنالك ما يثير الدهشة إذا ما دخلت عليه فى مكتبه - هذا التابوت الحجرى بفولاذه المجوف وزجاجه المضاء - لتجده جالسًا إلى المكتب الكبير (المغطى بالأجراس والبكرات والأضواء الباهرة) كاليتيم - يأكل خبزاً قاتم اللون وزبداً ويقرأ «فارساى» بينما يوقع الرسائل والمستندات، بدون انتباه. كان ينظر إليك بذلك الوجه اللوزى الشاحب، وقد كساه تعبير متجهم منكمش يكاد يكون توسلاً. ومع ذلك فقد كان هناك حبل من الصلب ممتد خلال كل تلك الرقة، حيث كان يُفاجأ موظفوه على الدوام باكتشاف معرفته كل تفاصيل العمل، رغم مظهره الساهى. كان من النادرأن تثبت صفقة عقدها، أنها لم تكن قائمة على تقدير صائب. كان بالنسبة لموظفيه شيئًا يذكرهم بمن يوحى إليهم. ورغم ذلك (كانوا يتنهدون فى حسرة

ويهزون أكتافهم) فقد بدا وكأنه لا يبالى بالربح، وذاك ما تُعرِّف به «الإسكندرية» الجنون.

كنت أعرفهما بالعيان - كما كنت أعرف كل امرئ فى المدينة، لمدة شهور عديدة، قبل أن ألتقى بهما لقاء مباشرًا. كنت أعرفهما بالعيان وبما يتمتعان به كذلك من سمعة. فإن حياتهما الفخمة المنطلقة والتى لا تراعى أى عرف أو تقليد، قد جعلت لهما سمعة خاصة بين قاطنى المدينة المحليين: اشتهرت «جوستين» بكثرة عشاقها، ونُظر إلى «نسيم» باعتبار أنه زوج «مجامل». ولقد راقبتهما يرقصان معًا مرات عديدة، هو نحيل منخفض الخصر كامرأة، ويداه طويلتان منحنيتان جميلتان. و«جوستين» برأسها الجميل وأنفها العربى بطرفه الحاد الانحناء وعينيها الصافيتين وقد وسعتهما «البلادونا». كانت تتفرس فيما حولها كفهد نصف مدرب.

ولقد أقنعنى البعض، فى ذاك الوقت، بأن أحاضر عن شاعر المدينة فى مرسم الفنون الجميلة - وهو نوع من النوادى التى يمكن لهواة الفن الموهوبين أن يجتمعوا فيها وأن يستأجروا غرفًا للرسم، وما شابه ذلك - وقد وافقت لأن ذلك كان يعنى مبلغًا قليلاً من المال لشراء معطف «ميليسا» الجديد، خاصة والخريف على الطريق. إلا أن ذلك كان مؤلمًا لى، كنت أحس بالشاعر الشيخ يملأ المكان حولى. وهكذا كان على أن أحاضر ناثرا الشوارع الحزينة حول حجرة المحاضرة بشذى تلك الأبيات التى اعتصرها مما مارسه من حب أمتعه رغم سوقيته، حب ربما اشتراه بالمال، فلم يدم إلا للحظات قصار، إلا أنه يحيا الآن فى شعره. لقد أمسك عن قصد، وبكل حنان، تلك اللحظة العابرة ليثبت كل ألوانها. يا لها من صفاقة أن يحاضر المرء عن شاعر ساخر، انتقى مادة موضوعاته بطريقة طبيعية للغاية، وبمثل تلك الغريزة المرهفة، من

شوارع ومواخير «الإسكندرية»، وأن يتوجه المرء بالحديث، فوق ذاك، لا إلى مساعدى باعة الخردوات وصغار الكتبة - جمهوره الذى خلده - ولكن إلى شبه حلقة وقورة من سيدات المجتمع اللواتى كن ينظرن إلى الثقافة التى عبر عنها باعتبار أنها نوع من بنوك الدم: فجئن كى يمارسن عملية نقل الدم. والحقيقة أن الكثيرات منهن قد تركن حفلة للعب «البريدج» من أجل تلك المحاضرة، رغم إدراكهن بأنهن سيكتئبن بدلاً من أن ينتعشن.

إننى لا أتذكر سوى قولى بأن وجهه يلازمنى - الوجه المُفزع الحزين الرقيق كما بدا فى صورته الفوتوغرافية الأخيرة. ولاحظت عندما تقاطرت نساء، أعضاء النادى، الوقورات أسفل السلم الحجرى، إلى الشوارع المبتلة حيث كانت سياراتهن المضاءة فى انتظارهن، وقد تركن الحجرة الهزيلة تسبح فى رائحة عطورهن، أنهن قد تركن خلفهن طالبة وحيدة من طلبة العواطف والفنون. كانت تجلس فى آخر الصالة تدخن سيجارة وقد اتخذت سمة المفكر واضعة إحدى ساقيها فوق الأخرى بطريقة الرجال. لم تكن تنظر إلىَّ ولكنها كانت تنظر إلى الأرض تحت قدميها بطريقة غير مهذبة. وأحسست بالزهو، إذ فكرت أن هناك شخصًا واحدًا، ربما قدر ما أواجه من صعاب، فجمعت حقيبة أوراقى الرطبة ومعطفى القديم الواقى من المطر وأخذت طريقى إلى حيث كان رذاذ خفيف نفاذ قادم من جهة البحر، يجتاح الشوارع. وتوجهت إلى منزلى حيث لا بد وأن توجد «ميليسا» الآن مستيقظة، وقد أعدت لنا عشاءنا فوق المنضدة المغطاة بأوراق الجرائد. لا بد أنها قد أرسلت «حميد» أولاً إلى الفرن ليحضر اللحم المشوى - حيث إننا لا نمتلك فرنًا خاصًا بنا فى البيت، وعبرت الشارع البارد إلى شعلات الحوانيت المضاءة فى «شارع فؤاد» ورأيت فى نافذة بقال علبة زيتون، علبة تحمل

اسم «أورفيتو»، فدخلت الحانوت وقد تملكنى حنين مفاجئ أن أكون على الجانب الحقيقى من البحر المتوسط، وابتعت العلبة وفتحتها هناك: ثم جلست إلى مائدة رخامية فى ذاك الضوء البشع، وبدأت آكل «إيطاليا»، جسدها الأسمر المقدد، تربتها الربيعية وقد نسقتها الأيادى، أعنابها المخصصة للنذور. وأحسست أن «ميليسا» لن تستطيع فهم هذا على الإطلاق، وعلىَّ أن أتظاهر بأنى قد فقدت النقود.

لم أر فى بادئ الأمر سيارتها الفارهة التى كانت قد تركتها فى الشارع وآلتها تدور. ودخلت الحانوت بغتة، بطريقة سريعة مليئة بالعزم، وقالت فى ثقة تتظاهر بها النساء السحاقيات أو الثريات مع معدم واضح الحاجة.

«ماذا عنيت بملاحظتك التى أبديتها عن الطبيعة المتناقضة لقواعد السخرية».

ونظرت إليها بطريقة خشنة، فقد كنت عاجزاً عن انتزاع نفسى من «إيطاليا». ورأيتها تنحنى إلى أسفل متجهة نحوى من المرايا التى تغطى ثلاثة حوائط للحجرة، وقد كسا وجهها الأسمر المثير، تحفظ متعال حائر. وكنت قد نسيت بالتأكيد، ما قلته بخصوص السخرية أو أى شىء آخر له علاقة بهذا الموضوع. فقلت لها ذلك فى لا مبالاة طبيعية، وتنهدت تنهيدة قصيرة كأنما تعبر عن ارتياحها بطريقة عادية، ثم جلست أمامى وأشعلت سيجارة «كابورال» فرنسية، وأخذت أنفاساً قصيرة مبتورة ثم أطلقت نفثات خفيفة من الدخان الأزرق فى الضوء الحاد. ونظرت إلىَّ فى عبث طائش، وأحسست بالحرج بينما كانت تراقبنى بطريقة صريحة ـ وبدا الأمر وكأنها تحاول أن تقرر أى فائدة

يمكن أن ترجى منى. وقالت: «إننى أحب الطريقة التى اقتبست بها أشعاره عن المدينة. إن يونانيتك جيدة، لا شك أنك كاتب». قلت: «لا شك فى ذلك». إنه لشىء يؤلم النفس أن يكون الإنسان مغموراً. وبدا لى أنه لا يوجد ما يبرر متابعة هذا الحديث كله، فقد كرهت على الدوام تلك المناقشات الأدبية. فقدمت لها حبة زيتون أكلتها فى سرعة وبصقت النواة فى يدها المكسوة بالقفاز كالقطة حيث أمسكتها دون أن تدرى، وهى تقول:

«إننى أريد أن آخذك إلى «نسيم»، زوجى، هل تصحبنى؟» كان رجل البوليس الذى ظهر فى الممر واضح القلق بسبب السيارة المهجورة. كانت تلك هى المرة الأولى التى أرى فيها بيت «نسيم» الكبير بتماثيله والممرات التى يظللها النخيل ولوحات «كوربت» و«برنارد» وما شابه ذلك. لقد كان جميلاً وبشعًا فى نفس الوقت. وأسرعت «جوستين» تصعد السلم الضخم. ولم تتوقف إلا لكى تنقل حبة الزيتون من جيب معطفها إلى زهرية صينية، وهى تنادى «نسيم» طوال الوقت، وأخذنا نتنقل من حجرة إلى أخرى محطمين الصمت. وأخيرًا أجاب «نسيم» نداءها من المرسم الضخم الواقع فوق السطح. وانطلقت «جوستين» إليه، وبدت لناظرى ككلب صيد ألقى بى عند قدميه، ثم وقفت بعيداً تهز ذيلها. لقد أجهزت علىّ.

كان «نسيم» جالسًا يقرأ على قمة سلم، وأخذ ينزل إلينا فى بطء ناظرًا فى أول الأمر إلى واحد منا ثم إلى الآخر. كان خجله يفوق منظرى الرث، وشعرى المبتل، وعلبة الزيتون. ومن ناحيتى لم يكن فى وسعى أن أقدم تفسيراً يبرر وجودى، حيث إنى لم أكن أدرى لأى غرض أحضرتنى «جوستين» إلى هذا المكان.

وأشفقت عليه فقدمت له زيتونة، وبينما نجلس معًا أتينا على صفيحة الزيتون بينما «جوستين» تعد لنا الشراب وتتحدث، إذا كنت أتذكر، عن «أورفيتو»، حيث لم يذهب أى منا. إنه عزاء كبير أن أعود بذاكرتى إلى ذلك اللقاء الأول. لم أكن قريبًا إلى كليهما فى يوم من الأيام كما كنت فى ذلك اليوم، أعنى قريبًا من حياتهما الزوجية. لقد بدِا لى حينئذ وكأنهما ذلك الحيوان الرائع ذو الرأسين الذى يمكن أن يكونه الزواج. وأدركت وأنا أراقب ذلك الدفء الشفوق فى عينيه، بينما استعدت كل الشائعات الفاضحة عن «جوستين». إنه مهما كان ما فعلته، حتى ما كان آثمًا أو ضارًا فى أعين العالم، فإنها قد فعلته، من زاوية ما، من أجله. كان حبها له يشبه جلدًا يرقد داخله وقد خيط من حوله مثل «هرقل» الطفل، ولقد قادتها على الدوام كل محاولاتها لتحقيق ذاتها فى اتجاهه لا بعيدًا عنه. أنا أعرف أنه لا يوجد فى العالم مكان لمثل هذا التناقض الظاهرى، ولكن بدا لى حينئذ أن «نسيم» كان يعرفها ويتقبلها بطريقة يستحيل شرحها لامرئ ما زال الحب بالنسبة إليه مقيدًا برغبة الامتلاك. ولقد قال لى «نسيم» ذات مرة - فيما بعد: «ماذا كان علىّ أن أفعل؟ لقد كانت «جوستين» بالنسبة إلىَّ، قوية للغاية فى نواح عديدة جدًا، لقد كان فى وسعى أن أتفوق فى حبى لها، وكان ذلك مطلبى على المدى البعيد. لقد تقدمتها - متوقعًا كل عثرة - وحيث سقطت فى كل مرة، وجدتنى هناك فى انتظارها مستعدًا أن أعاونها لتقف على قدميها، مظهرًا أن ما حدث لا يهم. ومع ذلك فإنها عرضت للهوان أضأل شىء فى ذاتى - سمعتى».

لقد دار هذا الحديث بعد لقائنا الأول بكثير. فقبل أن تجرفنا البلايا بتشابكاتها المشئومة. لم نكن نعرف بعضنا البعض بالقدر الكافى لنتحدث فى صراحة كتلك الصراحة. وأتذكره أيضًا وهو يقول ذات

مرة ـ وكان هذا فى الفيللا الصيفية قرب «برج العرب» : «ستصيبك الحيرة عندما أخبرك أننى كنت أعتقد بأن «جوستين» عظيمة على نحو ما . وأنت تعلم أن هناك أنواعًا من العظمة تدمر الحياة العادية ، إن لم تمارس فى الفن أو الدين . ولقد أسىء إلى موهبتها عندما وجهت نحو الحب . لقد كانت بالطبع سيئة فى عديد من الأمور ولكنها كانت أمورًا بسيطة . كما أنه ليس فى وسعى أن أقول : إنها لم تؤذ أحدًا ، ولكن هؤلاء الذين آذتهم أكثر من غيرهم قد صيرتهم أكثر نضجًا . كانت تخلع عن الناس نفوسهم البالية . ولا بد أن ذلك كان يؤلمهم . وأخطأ الكثيرون فى فهم طبيعة الألم الذى أوقعتهم فيه ، ولكنى لم أكن واحدًا منهم» . وابتسم ابتسامته التى كانت تمتزج فيها الحلاوة بمرارة يصعب التعبير عنها . وعاد يكرر فى رقة نفس الكلمات من تحت أنفاسه «ولكنى لم أكن واحدًا منهم» .

* * *

«كابوديستريا» كيف نقدمه فى هذا المقام؟ إنه أقرب للشيطان منه إلى الإنسان الذى تظنه . رأسه كرأس الحية ، مسطحة مثلثة بفصوصها الأمامية الضخمة . ينمو شعره إلى الأمام بنفس الطريقة التى ينمو بها الشعر على رأس أرملة . يميل لسانه إلى البياض وهو لا يستقر على حال ، يعمل دائمًا فى المحافظة على شفتيه الرقيقتين رطبتين . إنه ثرى ثراء فاحشًا ولا يحتاج إلا لأن يرفع إصبعًا حتى يجاب إلى طلبه . يجلس طوال اليوم فى شرفة نادى السماسرة يرقب النسوة العابرات ، بعين لا تهدأ ، عين امرئ تعبث بلا توقف خلال مجموعة قديمة من

أوراق اللعب الملونة. ثم تصدر عنه ما بين الحين والحين «طرقعة» شبيهة بتلك التى تصدر عن لسان الحرباء - إشارة لا يكاد يلمحها إلا من يتابعه. وعندها ينساب من الشرفة خيال رجل يلاحق المرأة التى أشار إليها. ويوقف رجاله النساء أحيانًا علانية ويلحون عليهن باسمه ذاكرين قدراً معينًا من المال، وفى مدينتنا لا يحس بالمهانة عند ذكر المال. إن بعض الفتيات يضحكن فى بساطة. والبعض الآخر يقبلن فى الحال. لن ترى البتة غضبًا يكسو سماتهن. إذ لا يمكن أن ندعى الفضيلة أو الرذيلة، فكلاهما أمر طبيعى.

ويجلس «كابوديستريا» بعيداً عن كل ما يجرى، فى معطفه الطاهر الذيل المصنوع من الشارك سكين وقد تدلى منديله الحريرى الملون على صدره. حذاؤه الرفيع يلمع. إن أصدقاءه يدعونه باسم «داكابو» لما اشتهر به من قدرة جنسية ضخمة كثروته - أو قبحه. إنه يمت بصلة قرابة غامضة إلى «جوستين» التى تقول عنه: «إننى أرثى لحاله، فقد ذبل قلبه وتيبَّس فى أعماقه، وبقيت له حواسه الخمس، كحطام زجاجة من النبيذ». ومع ذلك يبدو أنه لا يضيق بمثل تلك الحياة الشديدة الرتابة. ولقد تميزت عائلته بحوادث الانتحار التى وقعت فيها، ميراثه النفسى شقى بتاريخه الحافل بالاضطرابات والأمراض العقلية. ورغم ذلك لا يبدو عليه القلق، وهو يلمس صدغيه بسبابته الطويلة ويقول: «لقد اختل أسلافى جميعًا، هنا فى الرأس، حتى أبى. لقد كان زير نساء كبيراً، وعندما غدا عجوزاً للغاية كان لديه نموذج مصنوع من المطاط للمرأة الكاملة بحجمها الطبيعى. كان من الممكن ملؤه بالماء الساخن فى الشتاء. كانت فائقة الجمال. وكان يدعوها باسم أمه «سابينا». ويأخذها معه إلى كل مكان. كان يهوى السفر على عابرات المحيط. ولقد قضى بالفعل

العامين الأخيرين من حياته على ظهر واحدة منها، يقطع البحر إلى «نيويورك» جيئة وذهابًا. وكان «لسابينا» صوان ملابس يثير العجب. كان مشهدًا مثيرًا أن تراهما يدخلان غرفة الطعام، وقد ارتديا ثياب العشاء. كان يسافر مع حارسه، رجل يدعى «كيلى». وبينهما كانت تسير «سابينا» بملابس السهرة الرائعة، وقد أسندها كل من ناحية، كامرأة جميلة سكرى. وفى الليلة التى مات فيها قال «لكيلى» أبرق إلى «ديمتريوس» وأخبره أن «سابينا» قد ماتت الليلة بين ذراعى دون أن تعانى ألمًا. وقد دفنت معه على مسافة بعيدة من «نابولى» وضحك «كابوديستريا» ضحكة لم أسمع البتة، أكثر منها صدقًا وطبيعية.

واكتشفت فيما بعد - وأنا أكاد أجن من القلق وقد أثقلتنى ديون «كابوديستريا» - أنه أقل مجاملة مما كنت أعتقد، إذ حدث ذات مساء أن كانت «ميليسا» تجلس هناك نصف سكرى فوق مسند الأقدام إلى جوار النار، وقد أمسكت بأصابعها الطويلة المتأنية سند الدّين الذى كتبته له وقد خط عليه بالحبر الأخضر كلمة «خالص» تلك الكلمة المقتضبة... إنها ذكريات موجعة. وقالت «ميليسا». «كان من الممكن أن تدفع «جوستين» دينك من ثروتها الضخمة. ولكنى لم أشأ أن أراها تشدد قبضتها عليك. فضلاً عن أنى ما زلت أرغب فى أن أفعل شيئًا من أجلك، رغم أنك لم تعد تبالى بى - وتلك أقل تضحية. لم أكن أعتقد أنه سيؤلمك كثيرًا أن أنام معه. ألم تفعل أنت نفس الشيء معى - أعنى ألم تقترض أنت النقود من «جوستين» كى ترسلنى بعيدًا كى أكشف بأشعة X؟ رغم أنك قد كذبت علىّ بهذا الخصوص وقد عرفت أنا ذلك. أما أنا فلا أكذب - لا أكذب أبدًا. هيا، خذها ومزقها، ولكن لا تقامر معه بعد ذلك. إنه ليس من طينتك».

وصدر عنها وهى تدير وجهها صوت كذلك الصوت الذى يأتيه العرب عندما يبصقون.

إننى لا أرغب فى الكتابة عن حياة «نسيم» الخارجية - عن حفلات الاستقبال الفخمة المملة، والتى كانت تقام فى البدء خصيصًا لزملائه من رجال الأعمال، ثم كرست فيما بعد لغايات سياسية غامضة. كنت أتوقف لحظة، بينما أنسل عبر البهو الكبير وفوق السلالم إلى المرسم، لأقرأ اللوح الجلدى الكبير الموضوع فوق المدفأة وعليه تصميم المائدة - لأرى من الذى وضع إلى يمين «جوستين» ويسارها. لقد قاما لمدة قصيرة بمحاولة رقيقة لضمى إلى تلك الاجتماعات، إلا أننى سرعان ما سئمتها متحججًا بالمرض، رغم سعادتى بأن أفعل ما أشاء فى المرسم والمكتبة الضخمة. وكنا نلتقى فيما بعد كالمتآمرين، فتطرح «جوستين» ما تتقنع به فى حياتها الاجتماعية من عواطف المرح، والملل والنزق. كانوا يرفسون أحذيتهم فى ضوء الشموع، ويلعبون بأوراق اللعب كل اثنين معا. وعندما تذهب إلى فراشها فيما بعد، كانت تنظر إلى نفسها فى المرآة الموجودة بالطابق الأرضى وتقول لصورتها: «أيتها اليهودية المتعبة الدعية المختلة».

* * *

يقع محل «منمجيان البابليونى» الحلاق على ناصية شارع «فؤاد الأول» و«النبى دانيال». هنا يتمدد بومبال كل صباح إلى جوارى فى المرايا. كنا نُرفع معًا فى وقت واحد ثم نؤرجح فى هدوء إلى أسفل نحو الأرض وقد لفقنا كفراعنة أموات، ثم نعود للظهور على السقف فى نفس اللحظة وقد بسطنا كعينات نموذجية. لقد فرد علينا صبى صغير أسود قطع قماش بيضاء، بينما الحلاق «يطرقع» وهو يقلب

رغوته الكثيفة الحلوة الرائحة فى قدح الحلاقة الكبير «الفيكتورى» الطراز، قبل أن يضعها على خدودنا بضربات مباشرة من الفرشاة. ثم يسلم عمله - وقد تمت المرحلة الأولى منه - إلى مساعده، بينما يتوجه هو إلى سير جلدى كبير يتدلى بين أوراق اصطياد الذباب على الحائط الداخلى للمحل ويأخذ فى شحذ موس إنجليزى النوع.

إن «منمجيان» الصغير، قزم ذو عين بنفسجية لم تفقد طفولتها أبدًا. إنه الرجل الذى يحتفظ بكل شىء فى ذاكرته، إنه أرشيف المدينة. فإن رغبت فى معرفة أسلاف أو دخل أغلب العابرين بطريق المصادفة، ما عليك إلا أن تسأله، فيتلو عليك التفاصيل فى صوت منغم بينما يشحذ موسه ويجربه فى شعر زنده الأسود الخشن. وفى وسعه أن يكتشف ما لا يعرفه فى لحظات معدودة. وهو فضلاً عن ذلك حجة فى الموتى كما فى الأحياء. أعنى هذا بالمعنى الأدبى للتعبير، حيث يستخدمه المستشفى اليونانى ليحلق لضحاياه ويعدَّهم قبل أن يعهد بهم إلى الحانوتية - عمل يؤديه بمتعة، تلونها حماسة يتميز بها بنو جنسه. إن صنعته العتيقة تضم العالمين، وتبدأ بعض من أفضل ملاحظاته بالجملة التالية «كما قال فلان، وفلان وهو يلفظ آخر أنفاسه». ويشاع عنه أنه جذاب للنساء على نحو غريب، ويقال: إنه قد كوَّن ثروة صغيرة كسبتها له المعجبات به. إلا أن له كذلك عددًا من الزبائن الدائمين من عجائز السيدات المصريات، نساء وأرامل بعض الباشوات واللواتى يتردد عليهن فى فترات منتظمة ليصفف لهن شعورهن. وهن كما يقول فى خبث، «قد تجاوزن كل الحدود». ويمد يده ليبلغ ظهره، يتحسس حدبته القبيحة المنظر والتى تتوِّج ظهره ويضيف فى افتخار «إنها تثيرهن». ولديه بين أشياء أخرى علبة سجائر ذهبية أعطتها له واحدة من تلك المعجبات، وهو يحتفظ فيها بكمية من

ورق السجائر غير الملفوفة. إن يونانيته ركيكة، ولكنها جريئة وحية، كما أن «بومبال» يرفض أن يسمح له بأن يتحدث الفرنسية، اللغة التى يجيدها أكثر من اليونانية.

وهو يؤدى لصديقى بعض الخدمات اللطيفة. ويدهشنى فيه دائمًا قدرته على التعليق الشاعرى الفجائى الذى يجيده عندما يصف النساء اللواتى يضعهن تحت حمايته. إنه ينحنى فوق وجه «بومبال» الذى يشبه القمر. ويقول، مثلا، فى صوت خافت حذر، وقد أخذ موس الحلاقة فى الهمس «عندى لك شىء-شىء خصوصى». وتلتقى عين «بومبال» بعينى فى المرآة فيبعد ناظريه سريعًا حتى لا تنتقل عدوى الابتسام من أى منا إلى الآخر. ويدمدم فى حذر. ويميل «منمجيان» فى خفة على أطراف قدميه، وفى عينيه حول خفيف، والصوت الخافت المداهن يثير معنى مزدوجًا حول كل ما يقول، وحديثه لا يقل إثارة للانتباه، حيث يقطعه بتنهيدات المتعب من الدنيا. ويستمر لفترة لا يضيف لما قال شيئًا. فى وسعى أن أرى قمة رأس «منمجيان» فى المرآة-ذلك البروز القبيح من الشعر الأسود الذى شذ به على كل من صدغيه على صورة خصلة كالبصقة، آملا دون شك فى شد الانتباه بعيدًا عن ذلك الظهر المقوس الذى يميزه. وبينما يعمل بالموس تغيم عيناه وتغدو ملامحه خالية من كل تعبير، وكأنها ملامح زجاجة. وتنتقل أصابعه فوق وجوهنا الحية ببرودة تماثل تلك التى ينتقل بها فوق وجوه المتأنقين والموتى (وهم المحظوظون حقًا). ويقول «منمجيان»: «سينشرح صدرك هذه المرة من جميع الوجوه. إنها صغيرة، رخيصة ونظيفة. ستقول لنفسك: إنها طائر قطًا صغير، قرص شهد عسله كله لا يزال بداخله، يمامة. إنها تعانى بعض المتاعب المالية. فقد عادت أخيرًا من مصحة الأمراض العقلية فى حلوان؛ حيث حاول زوجها أن يودعها هناك بدعوى أنها مجنونة. لقد أعددت

لها مكانًا تجلس فيه فى «الروزمارى» عند آخر منضدة على الرصيف. اذهب وعاينها الساعة الواحدة، فإن أردت أن تصطحبك، أعطها البطاقة التى سأعدها لك، ولكن تذكر، الدفع لى وحدى. وهذا هو الشرط الوحيد الذى أضعه بين سيد مهذب وسيد مهذب آخر يتعامل معه».

ولا يقول المزيد حينذاك. ويحملق «بومبال» فى نفسه فى المرآة، يتصارع فضوله الطبيعى مع هواء الصيف البائس الكسول. وأخيرًا سينطلق دون شك إلى الشقة ومعه مخلوقة مرهقة مختلة لا تثير ابتساماتها المشوهة فى نفسه إلا الشفقة. ليس فى وسعى القول بأن صديقى ينقصه العطف والحنان، إنه يحاول دائمًا توفير عمل من أى نوع لهؤلاء الفتيات. وفى الحقيقة، فإن أغلب القنصليات متخمة بالعاملات اللواتى جمعته المصادفة بهن من قبل، واللواتى يحاولن جهدهن الظهور بمظهر المستقيمات، إنهن مدينات بوظائفهن لإلحاح «جورج» على زملائه فى المهنة. ومع ذلك فلا توجد امرأة لم تنل من رعايته المظهرية - مهما كانت هذه المرأة ذليلة أو متهدمة أو عجوزًا - ومن تصرفاته البسيطة القائمة على النخوة والمروءة ولمحات الفطنة، والتى بدأت أربط بينها وبين المزاج «الغالى»(*) إنه السحر الفرنسى المزوق المندفع، والذى يتحول فى سهولة كبيرة إلى كبرياء وكسل عقلى، كالفكر الفرنسى الذى ينساب سريعًا إلى قوالب رملية، كالنفس الفطرية وقد تصلبت فى الحال إلى آراء هزيلة. فإن لعبة الجنس السهلة والتى تُهوم حول أفكاره وأفعاله لا تحمل أى جو من الأثرة مما يجعلها، مثلاً، تختلف اختلافًا كيفيًا عن أفكار وأعمال «كابوديستريا»، الذى يلحق بنا فى أغلب الأحيان بينما نحلق فى الصباح. إن لـ«كابوديستريا»

(*) Galli. (المترجم).

القـدرة الفطرية الخـالصـة على أن يقلب كل شىء إلى امـرأة. فـتـحت نظرات عينيه تعانى المقاعد الألم لإحساسها بعرى سيقانها، إنه يلقح الأشياء بعينيه، ولقد رأيت بطيخة فوق المائدة وقد غدت حساسة تحت نظراته حتى إنها أحست بالبذور التى فى أحشائها وهى تنبض بالحياة. وتحس النسوة عندما ينظرن إلى وجهه الضيق المفلطح بلسانه الذى لا يكف عن الحركة عبر شفتيه الرقيقتين بإحساس الطيور التى تتصدى لها أفعى سامة. إننى أفكر فى «ميليسا» مرة أخرى:

أختى العروس التى تشبه حديقة مغلقة.

* * *

قالت «جوستين»: «إنك تنظر إلينا فى ازدراء. إذ كيف يمكن أن تكون واحداً منا إلى هذا الحد ومع ذلك... فإنك لست كذلك؟». إنها تمشط شعرها الفاحم فى المرآة، وفمها وعيناها مشدودة نحو سيجارة، «لابد، لكونك «أيرلنديّا»، أن تكون لاجئًا بسبب أفكارك، إلا أنك لا تعانى ما نعانيه نحن من قلق». إن ما تسعى إليه «جوستين» إنما هو فى الحقيقة ذلك الشىء الخاص المميز والذى لا ينبعث منا نحن ولكن من المناظر الطبيعية - إنها روائح الإرهاق التى تشبه رائحة المعدن والتى تملأ أجواء مريوط.

وأفكر أنا، بينما تتكلم «جوستين»، فى الرجال الذين أسسوا المدينة، فى الجندى - الإله فى تابوته الزجاجى، الجسد الشاب ملفوفًا فى الفضة يمخر النهر نحو مقبرته. أو فى ذلك الرأس الزنجى الضخم الممتلئ وهو يردد ما توصل إليه من خلال التأمل الفكرى الخالص عن تصوره للإله - «بلوتينوس». وكأن هموم هذه الرقعة من الأرض قد تمركزت فى مكان ما بعيداً عن متناول المواطن العادى - فى منطقة

يضطر فيها الجسد، وقد جرده تسامحه الزائد عن الحد من أسراره الأخيرة، إلى الخضوع إلى سيطرة أكبر شمولاً بكثير: أو أن يهلك فى نفس الإرهاق الذى عبرت عنه أعمال «الموسويين»، لعب الخناث الخالى من الفن فى ساحات العلم والفن المورقة. والشعر محاولة فجة تصيب عرائس الشعر بعقم زائف: ويلمع التشبيه الأحمق المؤلم المأخوذ عن شعر «برنيس» فى سماء الليل فوق وجه «ميليسا» النائم. لقد قالت «جوستين» ذات مرة «آه، لابد أن يكون هناك شيء بلا مقابل، شيء يمت إلى «جزر الباسفيكى» فى تلك الإباحية التى نحياها». وربما أضافت: أو حتى شيء يمت إلى البحر المتوسط حيث يختلف مغزى القبلة فى «إيطاليا» أو «إسبانيا»، هنا تحك الرياح القاسية الجافة، والتى تهب من صحارى «إفريقيا»، أجسادنا فنجبر على أن نستبدل الحب برقة ذهنية أشد قسوة، إنها تؤكد بالضرورة وحشتنا بدلاً من أن تحد منها.

وغدا للمدينة الآن قطبا جاذبية ـ القطب الحقيقى وقطب الجاذبية الشمالى والذى يحمل طابعها، وبينهما توهج مزاج سكانها فى قسوة، كشحنة كهربية مفرغة ومنطلقة. إن مركزها الروحى كان فى مكان «السوما» الذى ذهب فى طى النسيان حيث دفن يومًا ما جنديها الشاب الحائر فى ألوهيته المستعارة، ومركزها الدنيوى فى نادى السماسرة حيث جلس سماسرة القطن «كالقباليين»[ϕ] يرشفون قهوتهم ويدخنون السيجار الفاخر، ويراقبون كابوديستريا ـ كما يراقب الناس على ضفة النهر ما يحرزه الفنان أو الصياد من تقدم. لقد كان الأول بالنسبة لى رمزًا لانتصارات الإنسان فى مجالات المادية والزمان والمكان ـ والتى يجب أن تخضع بصورة حتمية خبرتها المريرة فى الهزيمة للمنتصر

الراقد فى نعشه، أما الآخر فإنه لم يكن رمزاً، ولكنه كان حافة الجحيم الحية للإرادة الحرة التى تجوس خلالها محبوبتى، تبحث فى وحدانية ذهنية مخيفة عن شرارة الكمال والتى يمكن أن ترفعها إلى ما تطمح فيه من رؤية جيدة لنفسها. ففى أعماقها كواحدة من بنات «الإسكندرية» كانت الإباحية ـ على نحو غريب ـ شكلاً من أشكال إنكار الذات ومسخًا للحرية. ولو نظرت إليها كنموذج للمدينة فلا يعنى هذا بالضرورة «الإسكندرية» أو «بلوتينوس» الذى أجبرت على التفكير فيه، ولكنها كانت كابنة «فالنتينوس» الثلاثين الحزينة والتى سقطت «لا كما سقط الشيطان بالتمرد على الإله، ولكن بالرغبة العارمة فى الاتحاد به». إن أى تماد ينقلب إلى خطيئة.

وسقطت ـ كما يقول الفيلسوف التراجيدى ـ لانفصالها عن الانسجام الإلهى مع ذاتها، وغدت مظهراً للمادة، تشكل عالم مدينتها كله، والعالم جميعه من عذابها وتأنيب ضميرها. إن البذرة المأساوية التى نمت عنها أفكارها وأعمالها كانت بذرة القدرية التشاؤمية.

إننى أعرف أن هذا التعريف صحيح، فقد حدث بعد ذلك بوقت طويل أن سمحت لى، فى كثير من الريب والهواجس، أن أنضم إلى الحلقة الصغيرة التى كانت تجتمع كل شهر حول «بلتازار» والذى كان حديثه عن القدرية هو أكثر ما يشد انتباهها دائمًا. إننى أتذكرها وهى تسأله ذات ليلة فى قلق وتوسل: عما إذا كانت قد أولت فكره تأويلاً صحيحًا، «أعنى أن الله لم يخلقنا ولم يرغب فى أن نخلق، ولكننا من صنع إله صانع أقل مرتبة، اعتقد خطأ بأنه الإله(Φ)؟ يا للسموات! كم يبدو هذا الاحتمال مرجحًا، وتلك العجرفة التى ورثناها ثم نورثها لأبنائنا». وبينما نسير، أوقفتنى بأن

وقفت أمامى وأمسكت بثنيات معطفى وحملقت بحماسة فى عينى وقالت: «ما الذى تؤمن به؟ إنك لا تتكلم البتة، وأكثر ما يصدر عنك أن تضحك فى بعض الأحيان». لم أعرف بم أجيبها فقد بدت لى كل الأفكار متماثلة الجودة، وحقيقة وجودها وبقائها يبرهن على أن هناك قوة خالقة. فهل يهم إن كانوا، موضوعيًا، على خطأ أم على صواب؟ إنهم لن يستمروا هكذا لفترة طويلة. ولكنها صرخت وهى تؤكد بطريقة مؤثرة «ولكنه يهم، بصورة عميقة، بصورة عميقة يا حبيبى».

إننا أبناء الطبيعة المحيطة بنا، وهى تملى علينا سلوكنا وحتى فكرنا بالقدر الذى نستجيب به لها. لم يكن فى وسعى أن أفكر فى تعريف أفضل من ذلك، «إن تشككك مثلاً ـ والذى يتضمن قدرًا كبيرًا من القلق ومثل هذا التعطش للحقيقة المطلقة ـ ليختلف إلى حد بعيد عن الشك اليونانى، عن التلاعب الذهنى الذى تتميز به عقلية البحر المتوسط والذى يلجأ عامدًا للسفسطة كجزء من لعبة الفكر، لأن فكرك سلاح، ولاهوت».

«ولكن كيف يمكن أن يحكم على الفعل بغير هذه الطريقة؟».

«لا يمكن أن يحكم عليه حكمًا شاملاً قبل أن يقيم الفكر ذاته، فأفكارنا ذاتها إنما هى أفعال. إن محاولة إصدار أحكام جزئية على أى منها هو الذى يقود إلى الريب والشكوك».

أحببت كثيرًا الطريقة التى تجلس بها فجأة على حائط أو عمود مكسور فى الفناء الخلفى المتهدم لعمود «بومبى»، وتغرق فى حزن لا يخمد لفكرة طرأت للتو على ذهنها. «هل هذا حقًا هو ما تعتقد؟» تقولها بطريقة حزينة تجعل المرء يتأثر منها ويطرب لها فى نفس الوقت.

«ولماذا تضحك؟ إنك تضحك دائمًا من أكثر الأمور جدية. آه بالتأكيد يجب أن تكون حزينًا». لو لم تكن تعرفنى البتة، لاكتشفت فيما بعد بالضرورة أنه بالنسبة لنا نحن الذين نحس الأمور بعمق، والذين نعى كل ذلك التشابك المعقد للفكر الإنسانى، فإنه لا يصدر عنا سوى رد فعل واحد - هو الصمت والرقة الساخرة.

لم يكن هناك ما أفعله، فى ليلة تلمع بالنجوم، حيث تعيد اليراعات المنتشرة فى العشب الجاف الحاد بريقها الأرجوانى الشاحب كالطيف إلى السماء، إلا أن أجلس إلى جوارها أربت على تلك الهامة الفاحمة من الشعر الجميل، ولا أقول شيئًا. ومن تحتنا انطلق كنهر داكن، ذلك الاقتباس الجليل الذى اتخذه «بلتازار» مرجعًا له والذى كان يقرؤه وهو ينتفض بعض الشىء من العاطفة والبعض الآخر من الإرهاق الذى يعانيه من كل ذلك الفكر الغامض. «إن نهار الجسد هو ليل الروح. فعندما تكف الأجساد عن العمل تبدأ الأرواح الإنسانية فى العمل. إن صحوة الجسد إنما هى نوم الروح. ونوم الروح إنما هو صحوة الجسد». وأخيرًا قال فى صوت كهزيم الرعد: «إن الإثم هو أفضل سبيل إلى الضلال»(Φ).

* * *

كنت أشك لفترة طويلة فى أن «نسيم» قد وضع «جوستين» تحت المراقبة، ومع ذلك بدت طليقة كالوطواط وهى تطير خلال الليل عبر المدينة لم أسمعه يطلب منها أن تقدم له حسابًا عن تحركاتها. ليس سهلاً أن تتجسس على شخص لا يستقر على حال، متصل بحياة المدينة فى أماكن عديدة للغاية. ومع ذلك، فمن المحتمل أنها كانت تحت المراقبة حتى لا يصيبها أذى أو ضرر. ففى إحدى الليالى ذكرتنى إحدى الحوادث بتلك الفكرة، إذ كنت مدعوّاً لتناول العشاء فى البيت القديم. وكنا نتناول

العشاء، حينما يكونان بمفردهما فى «شاليه» صغير فى نهاية الحديقة، حيث يمكن أن تمتزج رطوبة الصيف مع خرير الماء المتساقط من رءوس الأسود الأربعة المحيطة بالنافورة. وتأخرت «جوستين» فى تلك المناسبة الخاصة، وجلس «نسيم» بمفرده وقد شدت الستائر إلى الخلف نحو الغرب، يلمِّع فى أناة بأنامله الطويلة الرقيقة حجراً أخضر من «اليشب» من مجموعته.

كان قد مضت بالفعل أربعون دقيقة على ساعة العشاء، فأشار كى يقدم الطعام، وفى تلك اللحظة صدر عن التليفون الداخلى الصغير الأسود صوت أشبه بصوت الإبرة، فعبر المكان إلى المنضدة والتقطه وهو يتنهد، وسمعته يقول وقد نفد صبره: «نعم»، ثم تكلم لبرهة بصوت منخفض، مغيراً لغته فجأة إلى اللغة العربية، وللحظة انتابنى شعور داخلى مفاجئ بأن «منمجيان» هو الذى يتحدث إليه عبر الأسلاك. لم أدر لم انتابنى ذلك الإحساس. وخط شيئًا ما فى سرعة على مظروف، ووقف يستظهر ما كتب بعد أن وضع سماعة التليفون. ثم استدار إلىَّ، وفجأة غدا «نسيم» الذى يحدثنى شخصًا آخر غير الذى أعرفه، وقال «ربما احتاجت «جوستين» إلى أن نقدم لها يد العون والمساعدة، فهل تحضر معى؟». ودون انتظار لجواب اندفع يهبط درجات السلم إلى «الجراج» عبر بركة الزنابق. وتبعته على قدر ما استطعت. لم يستغرق الأمر دقائق وانطلقت بنا سيارته الرياضية الصغيرة عبر البوابات الثقيلة إلى «شارع فؤاد» وأخذ يشق طريقه عبر شبكة الشوارع التى تنحدر نحو «رأس التين». كان المارة قليلين رغم أن الوقت لم يكن متأخراً، وانطلقنا على طول شواطئ الكورنيش نحو «نادى اليخت» بعد أن لحقنا بعربات الحنطور القليلة (عربات الحب) والتى كانت تتسكع صعوداً وهبوطًا على شاطئ البحر.

وانحرفنا عند الطابية ودخلنا الأحياء المزدحمة القذرة التى ترقد خلف شارع «التتويج»، ومصابيح السيارة الأمامية تكشف بأنوارها الزاهية المقاهى المليئة بالناس كعش النمل والميادين المزدحمة، إنها تكشفه بإشعاع لم يألفه الناس فى هذا المكان، ومن مكان ما خلف المنازل المحطمة والخالية من القوائم الخشبية والموجودة أمامنا مباشرة، انطلقت الصرخات الحادة و«الولولات» من أحد المآتم؛ وقد جعلت الندابات المحترفات الليل موحشًا بما يرددنه من رثاء عن الميت. تركنا السيارة فى شارع ضيق إلى جوار الجامع، ودخل «نسيم» بوابة عمارة كبيرة مظلمة يتكون نصفها من مكاتب مغلقة عليها لوحات بأسماء أصحابها، وقد طمست الكتابة الموجودة عليها. وهناك بواب وحيد يجلس على مصطبة يدخن نارجيلة قصيرة الساق، وقد لف نفسه فى خرق، فبدا للناس أجمعين كشىء منبوذ (كإطار سيارة قديم). تحدث إليه «نسيم» بطريقة حادة، وقبل أن يجيب الرجل، كان «نسيم» قد عبر خلفية البناء من أولها إلى آخرها إلى مكان يبدو كفناء خلفى مظلم تمتد على جانبيه مجموعة من المنازل المتهدمة المبنية من الطوب الطينى وقد تساقط طلاؤها. ولم يتوقف إلا ليشعل ولاعته، التى بدأنا على ضوئها الخافت بحثنا عن الأبواب. وعند الباب الرابع أطفأ الولاعة وأخذ يطرق الباب بقبضته. ولما لم يجبه أحد، دفع الباب وفتحه.

وواجهنا ممر يقود إلى حجرة صغيرة معتمة يضيئها نور مصابيح زيتية خافتة. وكان من الواضح أن هذه الحجرة هى مقصدنا.

كان المنظر الذى اقتحمناه منظرا غريبًا بصورة وحشية، إن لم يكن لأى سبب غير الضوء المنطلق من الأرضية الطينية إلى أعلى، وقد لامس حواجب وشفاه وعظام وجنات الموجودين فى الغرفة، بينما

ترك بقعًا كبيرة من الظلال على وجوههن، فبدون وكأن الفئران قد نهشت نصف وجوههن، تلك الفئران التى كنا نسمعها وهى تتدافع بين العوارض الخشبية لتلك البناية التعسة. كانت دار دعارة للمومسات الصغيرات، وفى العتمة وقفت «دستة» من الفتيات بشعورهن المنكوشة وقد لبسن قمصان نوم مضحكة على نمط القمصان التى جاء ذكرها فى التوراة، وطلين شفاههن وارتدين عقودًا من الخرز المزركش، وخواتم رخيصة، لم يكن قد تجاوزن سن العاشرة كثيرًا، وكانت براءة الطفولة التى تشع من تحت الملابس الملونة تتناقض تناقضًا مفزعًا مع المنظر الهمجى لبحار فرنسى ضخم الجثة واقف فى منتصف الحجرة على ساقين معوجتين، ووجهه المشوه المعذب قد خرج من عنقه نحو «جوستين» التى وقفت، وقد اتجه جزء من وجهها نحونا. إن القوة التى نطق بها الكلمات التى كان يصرخها للتو والتى تلاشت فى الصمت كانت لا تزال واضحة فى نتوء ذقنه وعضلات عنقه المشدودة السوداء. أما عن «جوستين» فقد كان وجهه مضيئًا بنوع من الصرامة الغامضة المتألمة. كانت تمسك بزجاجة وترفعها بيد واحدة، وكان واضحًا أنها لم تلق بواحدة مثلها من قبل، فقد كانت تمسكها بطريقة خاطئة.

وتمددت فوق كنبة بالية فى ركن من أركان الحجرة أضاءه الظل الدافئ المنعكس عن الحيطان، فتاة صغيرة وقد انكمشت داخل قميص نومها بصورة بشعة توحى بالموت. كان الحائط فوق الكنبة مغطى بنقوش زرقاء لكفوف صغيرة، إنها التميمة التى تحمى المنزل فى هذا الجزء من العالم، من العين الشريرة، كانت الزخرفة الوحيدة فى الحجرة، وفى الحقيقة كانت أكثر الزخارف انتشارًا فى كل الحى العربى من المدينة.

ووقفنا هناك أنا و«نسيم» لفترة ليست بالقصيرة مأخوذين بالمنظر الذى أمامنا والذى كان له نوع من الجمال المخيف - إنها تشبه على سبيل المثال بعض الصور المحفورة الملونة البشعة لإنجيل من العصر الفيكتورى ثمنه فلس واحد، وقد شوهت واستبدلت مادة موضوعه: كانت «جوستين» تشهق بطريقة توحى بأنها قد أوشكت على البكاء.

وانقضضنا عليها، على ما أعتقد، وسحبناها خارجًا إلى الطريق، وعلى أية حال فإننى لا أتذكر سوانا نحن الثلاثة وقد بلغنا الشاطئ. انطلقت بنا السيارة على طول «الكورنيش» فى ضوء القمر البرونزى الرائق، ومرآة السيارة تعكس وجه «نسيم» الحزين الصامت، وصورة زوجته الصامتة الجالسة إلى جواره، تحملق فى الأمواج الفضية وهى تتكسر، بينما تدخن السيجارة التى اقترضتها من جيب سترته. وأخيراً قبلت «جوستين» «نسيم» برقة فى عينه، ونحن فى «الجراج»، قبل أن نغادر السيارة.

* * *

لقد اعتبرت كل هذا نوعًا من المقدمة إلى ذاك اللقاء الأول الحقيقى، اللقاء وجهًا لوجه، حينما انتهى التفاهم الذى استمتعنا به حتى ذلك الحين - والذى تمثل فى المرح والصداقة القائمين على ميول مشتركة بيننا نحن الثلاثة - إلى شىء لم يكن هو الحب، وكيف كان من الممكن أن يكونه؟ ولكن إلى نوع من الشاغل الذهنى الذى لعبت فيه الرغبة الجنسية الحادة أقل الأدوار. كيف سمحنا لها أن تنطلق؟ ونحن كنا أنداداً أفذاذًا فى الخبرة، وقد عبرنا أحزان الحب وتأقلمنا معها فى أماكن أخرى.

فى الخريف تتحول إناث شجر الغار إلى اللون الفوسفورى الذى لا يستقر على حال، ويشعر المرء بعد الأيام الطويلة الملتهبة المليئة بالغبار

بأول نبضات الخريف، كجناحى فراشة يخفقان، ينفضان ما عليهما. وتتحول «مريوط» إلى اللون الأرجوانى الشاحب ترصع شطآنها الطينية مسطحات شقائق النعمان اللامعة، النامية على طين الشاطئ اللزج الذى تغوص فيه الأقدام. ولقد عرجت على البيت ذات يوم بينما كان «نسيم» فى «القاهرة» لأقترض بعض الكتب، ولدهشتى وجدت «جوستين» فى المرسم بمفردها، كانت ترتق بلوفرًا قديمًا. لقد استقلت قطار الليل وعادت إلى «الإسكندرية» تاركة «نسيم» ليحضر بعض الاجتماعات الخاصة بالأعمال، وتناولنا الشاى معًا، ثم أخذنا حاجيات السباحة استجابة لخاطر مفاجئ وانطلقنا بالسيارة خلال أكوام الخبث الصدئة الموجودة «بالمكس» نحو شواطئ «برج العرب» الرملية، والتى تلمع فى الضوء الأرجوانى الشاحب لأصيل يسرع نحو الغروب. هنا كان البحر الطليق يهدر فوق بسط الرمال الرطبة التى لها لون الزئبق المتأكسد، كان وقعه الشجى العميق يشكل خلفية مناسبة لمثل الحديث الذى كنا نتبادله، وسرنا تغمرنا المياه حتى مفاصل أقدامنا، فى تلك البرك الضحلة اللاسعة، التى تشبه «النُقَر»، وقد غصت هنا وهناك بالإسفنج الذى اقتلع من جذوره، ثم ألقى به على الشاطئ. ولم نمر بأحد ونحن على الطريق - على ما أتذكر - غير شاب بدوى ضامر يحمل على رأسه قفصًا مصنوعًا من السلك مليئًا بالطيور البرية التى اصطيدت بشراك من الأغصان. طيور السمان الدائخة.

ورقدنا لمدة طويلة جنبًا إلى جنب فى ملابس الاستحمام المبتلة حتى نتلقى آخر شعاعات الشمس الشاحبة على أجسادنا فى رطوبة الماء اللذيذة. كنت راقدًا وعيونى نصف مغمضة بينما كانت «جوستين» (كما أراها بوضوح) تتكئ على مرفقها، تظلل عينيها براحة يدها وترقب وجهى. كان من عاداتها أن تحملق فى شفتى كلما تكلمت،

تحملق بطريقة غريبة تحمل معنى السخرية، طريقة سليطة تكاد أن تكون متعمدة، وكأنها تنتظر منى أن أخطئ وأنا أنطق إحدى الكلمات. لقد نسيت ما قيل، لو أن الأمر كله بدأ حقّا عند هذه النقطة، إلا أننى أتذكر صوتها الأجش المتعب وهى تقول شيئًا مثل «ما قولك إذا كان من المحتم أن يحدث لنا ذلك؟» إلا أنها انحنت علىَّ وقبلتنى فى فمى بطريقة عدائية ساخرة، قبل أن أتفوه بشىء. وبدا لى أن هذا التصرف لا يليق بالمرة، حتى إنى استدرت وعلى شفتى تأنيب أوشك أن يصدر عنى - إلا أنه ابتداء من الآن وفيما بعد، كانت قبلاتها كطعنات لاهثة ناعمة تقطع ضحكتها الوحشية المهزوزة الساخرة - والتى بدا أنها تتجمع فى حلقومها. وخطر لى حينئذ أنها تشبه شخصًا ما يعانى من خوف شديد. ولو حدث وقلت لها الآن «يجب ألا يحدث لنا ذلك»، فلابد أن تجيب قائلة: «ولكن دعنا نفترض. ماذا لو حدث بالفعل؟» وعندئذ - وأنا أتذكر هذا بوضوح - سيطر عليها جنون الذى يبرر أفعاله (وكنا نتكلم بالفرنسية: واللغة تثير فى النفس ما لها من طابع قومى)، كانت تقول بين تلك اللحظات الخاطفة اللاهثة وأنا أحس فمها العنيف على فمى وذراعيها السمراوين الشهوانيين يطوقان ذراعى: «لن أخطئ فآخذ الأمر على أنه نهم وبطنة أو انغماس فى الذات، إننا أنضج من ذلك، إن الأمر فى بساطة أنه يوجد لدى كل منا ما يتعلمه من الآخر. ما هو هذا الشىء؟».

ما هو هذا الشىء؟ «وهل هذا هو السبيل إليه؟». تذكرت نفسى أسألها ذلك السؤال عندما تراءى لى شبح «نسيم» الطويل وهو يكبو فوق سماء المساء. فقالت وتعبير من الذل متوحش عنيد يائس يكسو وجهها: «لست أدرى، لست أدرى». ثم ضغطت نفسها فوقى كما يضغط الإنسان جرحًا أصابه. كانت تبدو وكأنها تود أن تمحو كل تفكير

فيَّ، ومع ذلك فقد رأيت صورة من صور النهاية المؤلمة فى مغزى الرعشة المتكسرة لكل قبلة من قبلاتها، كانت كالماء البارد يصب على مرض أصاب الجسد. كم عرفتها الآن معرفة جيدة كابنة للمدينة التى قضت بأن تكون نساؤها شهوانيات فى الألم لا فى اللذة، لقد كتب عليهن أن يسعين لاقتناص أقل مما يطمحن فى لقياه.

نهضت «جوستين» وسارت بعيداً أسفل الشاطئ الطويل المنحنى وعبرت البرك البركانية فى بطء وقد أحنت رأسها، وفكرت فى وجه «نسيم» الوسيم وهو يبتسم لها فى كل مرآة فى الحجرة. وانبثق فى رأسى كل المشهد الذى مثلناه لتونا كحلم بعيد الاحتمال. كان غريباً أن ألحظ - بطريقة موضوعية - كيف كانت يداى ترتعشان وأنا أشعل السيجارة وأنهض لأتبعها.

إلا أننى وجدت وجهها الذى أدارته نحوى، عندما لحقت بها وأوقفتها، وجه شيطان مريض - كان يجتاحها غضب جامح وهى تقول: «لقد اعتقدت أن ما أرغب فيه ببساطة هو مضاجعتك؟ يا إلهى! ألم ننل كفايتنا من المضاجعة؟ كيف يمكن ألا تدرك ما أشعر به ولو لمرة؟ كيف يمكن ذلك؟». وخبطت الرمال المبتلة بقدمها فانطبع أثرها. لم يكن الأمر مجرد شق جيولوجى وقد انفتح فى الأرض التى كنا نطأها بثقة زائدة فى النفس. وإنما بدا وكأن بئر منجم مهملة منذ زمن طويل فى أعماق ما أعتد به أنا من خُلق قد تهاوت فجأة، وأدركت أن هذا التبادل العميق فى الأفكار والمشاعر قد شق لنا طريقاً نحو أدغال القلب الأشد كثافة، وأننا قد غدونا عبيداً داخل أجسادنا، نمتلك معرفة غامضة لا يمكن أن يتداولها أو يتسلمها، يفسرها أو يفهمها - إلا أولئك الذين يندر وجودهم، أولئك الذين

يكملوننا فى الدنيا. (وكم كانوا قلة، قلما يعثر المرء عليهم). وتذكرت «جوستين» وهى تقول: «ومع ذلك، فلا علاقة لما حدث بالجنس». وقد أغرانى هذا القول بالضحك، رغم أننى أدركت من عبارتها تلك محاولتها اليائسة كى تفصل الجسد عن الرسالة التى يحملها. إننى أعتقد أن هذا الشيء يحدث لمن أفلست عواطفهم عندما يقعون فى الحب، ورأيت حينئذ ما كان علىَّ أن أراه منذ زمن طويل: أعنى بالتحديد أن صداقتنا قد نضجت إلى الحد الذى قد غدا فيه كل منا شريكًا فى امتلاك الآخر.

وأعتقد أن كلينا قد أفزعه هذا الخاطر. لم يكن فى وسعنا وقد كنا مرهقين إلا أن نجبن أمام مثل تلك العلاقة. ولم نقل المزيد، ولكنا عدنا نسير صامتين وقد تشابكت منا الأيدى على طول الشاطئ إلى حيث تركنا ملابسنا. وبدت جوستين مرهقة للغاية. كان كلانا تواقًا لأن يفترق عن الآخر حتى يختبر مشاعره. ولم نتبادل الحديث مرة أخرى. سقنا السيارة إلى المدينة حيث أنزلتنى عند الركن المعتاد قرب شقتى، وخبطت باب السيارة وأنا أغلقه، وسارت هى دون أن توجه لى كلمة أو تلقى ناحيتى بنظرة.

كان فى وسعى أن أرى بصمة قدم «جوستين» فوق الرمل المبتل وأنا أفتح باب حجرتى. ووجدت «ميليسا» تقرأ وإذ نظرت نحوى إلى أعلى، قالت وكأنها تقرأ الغيب بصوت هادئ تتميز به: «لقد حدث شيء ما - ما هو هذا الشيء؟». لم يكن فى مقدورى أن أخبرها فقد كنت أنا شخصيًا لا أدرى ما هو هذا الشيء. وأخذت وجهها بين راحتى وفحصته فى عناية وانتباه وأنا صامت، فحصته فى حزن وشغف لا أتذكر البتة أنى قد أحسست به من قبل. وقالت: «لست أنا

من تراها، إنها واحدة أخرى». لكن الحقيقة هى أنى كنت أراها لأول مرة. كانت «جوستين» على نحو ما هى التى مكنتنى من أن أرى «ميليسا» على حقيقتها وأن أدرك مدى حبى لها. وابتسمت «ميليسا» وهى تتناول سيجارة وقالت: «إنك واقع فى حب «جوستين»». وأجبتها بقدر ما استطعت من إخلاص وأمانة وألم: «كلا يا «ميليسا»، إن الأمر أسوأ من ذلك». رغم أنه لم يكن فى وسعى، حرصًا على مستقبلى أن أشرح كيف ولماذا؟

عندما أفكر فى «جوستين» أفكر فى مركب صنعته يد طليقة عظيمة، فى رسم كروكى لامرأة تحررت من عبودية الذكر. لقد اقتبست بافتخار ذات مرة قولاً لـ «بويم»، متحدثة عن مدينتها. «ستتجمع النسور، حيثما توجد الجيفة». حقًا كانت تبدو فى تلك اللحظة كالنسر. إلا أن «ميليسا» كانت لوحة حزينة مأخوذة عن منظر شتوى، تحتويه قتامة السماء، حوض زهور به قليل من زهرات «الجيرانيوم» المتفتحة ترقد منسية عند حافة نافذة مصنع للأسمنت.

إننى أتذكر فى هذا الصدد فقرة جاءت فى يوميات «جوستين»، رغم أنها تشير إلى أحداث تسبق تلك التى رويتها بزمن طويل. إننى أترجمها هنا لأنها تكاد تعبر تعبيرًا صادقًا عن حالة من الحب تنمو داخل الإنسان على نحو غريب، حالة كان علىَّ أن أتعرف عليها كشىء يمت إلى المدينة أكثر مما يمت إلينا. إنها تكتب، «من التفاهة بمكان، أن نتصور الوقوع فى الحب نتيجة علاقة متبادلة فى الأذهان أو الأفكار، إنه هيام روحين معًا فى وقت واحد وقد ارتبطا خلال عملية نضج مستقلة. إنهما يحسان كأن شيئًا قد انفجر فى صمت داخل كل منهما. وحول هذه الواقعة يدور المحب ولهانًا مشغول

البال يختبر أو تختبر تجربتها الخاصة. إن امتنانها وحده وهو يوجه بعيداً إلى واهب أخطأ قصده، إنما يخلق عندها الوهم بأنها على علاقة بوليفها، غير أن ذلك الأمر شيء زائف. إن المحبوب في بساطة، امرؤ شاركك التجربة في نفس اللحظة الزمنية بطريقة نرجسية، وإن الرغبة في أن يكون المرء موجوداً إلى جوار المحبوب لا ترجع في بادئ الأمر إلى فكرة الاستحواذ عليه، ولكن لمجرد إخضاع التجربتين للمقارنة، كالصور في مرايا مختلفة. كل هذا قد يسبق النظرة أو القبلة أو اللمسة الأولى، يسبق الطموح أو الخيلاء أو الحسد، يسبق أول ما يباح فيحدد نقطة التحول لأن الحب ينحدر من هنا إلى عادة، إلى استحواذ، ومرة أخرى إلى الوحدة». كم كان تحديدها لتلك الهبة الساحرة متميزاً، وكم كان قاتماً: وكم كان صادقاً في صدوره عن «جوستين».

وتكتب في مكان آخر فتقول: «إن كل رجل». وهنا أستطيع أن أسمع نبرات صوتها المبحوحة الحزينة وهي تردد الكلمات كما كتبتها هي «إن كل رجل مصنوع من طين ومن روح ولا توجد المرأة التي في وسعها أن ترضى الاثنين معاً».

عندما عادت «جوستين» في ذلك الأصيل إلى المنزل وجدت أن «نسيم» قد عاد إلى «الإسكندرية» على طائرة ما بعد الظهر. فآوت إلى فراشها مبكرة متذرعة بأنها تحس بأن الحمى قد انتابتها. وعندما جاء «نسيم» ليجلس إلى جوارها وليقيس درجة حرارتها قالت له شيئاً ما أصابه بالذهول، كان شيئاً مثيراً حتى إنه ظل يتذكره - فبعد فترة طويلة كرر هذا القول لي: «ليس لهذا الأمر علاقة بالطب - إنها رعشة بسيطة، فالأمراض لا تعبأ بأولئك الذين يطلبون الموت». ثم استمرت كعادتها

تحيد عن اتصال كلامها «أوه يا «نسيم»، لقد كنت دائمًا قوية، فهل منعنى ذلك من أن أكون محبوبة حبّا حقيقيّا».

* * *

لقد بدأت، عن طريق «نسيم»، أتجول لأول مرة، بكل حرية، فى مجتمع «الإسكندرية» الكبير والذى يشبه بيت العنكبوت. إن دخلى المحدود لم يكن حتى ليسمح لى بارتياد النادى الليلى الذى ترقص فيه «ميليسا». كنت أحس فى أول الأمر بعض الخجل لأنى كنت ضيفًا دائمًا على «نسيم»، ولكن سرعان ما غدونا أصدقاء متلازمين حتى إنى كنت أذهب معهما إلى كل مكان دون أن أعير الأمر أى اهتمام. ولقد قلبت لى «ميليسا» سترة سهرة قديمة وجدتها فى إحدى حقائبى وأعادت تجديدها. لقد كنت بصحبتها عندما زرت النادى الذى تعمل به «ميليسا» لأول مرة. كان غريبًا أن أجلس بين «جوستين» و«نسيم» أراقب غلالة الضوء البيضاء تتوهج فوق «ميليسا» التى لم أعرفها تحت غطاء الطلاء الذى جعل وجهها الرقيق يبدو فظّا، وقد فقد شاعريته فى وقت مبكر. وفزعت أيضًا من مدى ابتذال رقصها، الذى كان سيئًا إلى أبعد الحدود، ورغم ذلك فإن رؤيتها وهى تؤدى حركات رقيقة، عديمة التأثير، بذراعيها وقدميها النحيلتين (كغزال ربط إلى ساقيه) ملأتنى عطفًا على مستواها العادى، وطريقتها الحائرة التى جعلتها تبدو وكأنها تقر بعجزها، وهى تنحنى للتصفيق الفاتر. ثم حملت بعد ذلك صينية كانت تدور بها تجمع النقود للفرقة الموسيقية، ولقد أدت هذا العمل فى استحياء بائس، قادمة نحو المنضدة حيث كنت أجلس، وقد نكست عينيها تحت تلك الرموش الصناعية المرعبة، وارتعشت يداها. لم يكن صديقاى يعرفان حتى اللحظة شيئًا عن علاقتنا، إلا أننى

لاحظت نظرة «جوستين» الساخرة عندما قلبت جيوبى ووجدت بعض الدريهمات فقذفت بها إلى الصينية ويداى لا يقل ارتعاشهما عن ارتعاش يدى «ميليسا» ـ كنت أحس إحساسًا عميقًا بمدى ارتباكها.

وعندما عدت فيما بعد إلى شقتى الصغيرة مسرورًا نشوانًا بعض الشىء من رقصى مع «جوستين» وجدتها ـ «ميليسا» ـ لا تزال مستيقظة تغلى كنكة ماء فوق الموقد الكهربائى وقالت: «أوه، لماذا وضعت كل تلك النقود فى الصينية؟ إنها أجر أسبوع كامل: هل جننت؟ ماذا سنأكل فى الغد؟».

كان كلانا مبذرًا متلافًا بصورة لا يرجى إصلاحها فى الشئون المالية، ورغم ذلك فقد كان بوسعنا، على نحو ما، أن نواجه الحياة معًا بطريقة أفضل من مواجهتها كل منا بمفرده. كانت تتوقف بالليل وهى عائدة فى ساعة متأخرة من النادى الليلى، فى الزقاق خارج المنزل، فإن رأت أن الضوء ما زال مشتعلاً أطلقت صفيرًا خافتًا. وما إن أسمع تلك الإشارة حتى أضع الكتاب الذى أقرؤه جانبًا وأزحف فى هدوء أسفل السلم وأنا أرى بعين خيالى شفتيها، وقد ضمتا حول الصوت المنساب منهما، وكأنها تنفض ما خلفته منضدة ما من بقايا هشة. كان الرجل العجوز، فى هذا الوقت الذى أتحدث عنه، لا يزال يلاحق «ميليسا» ويلح عليها هو وعملاؤه. كنا نضم أيدينا إلى بعضها البعض دون أن نتبادل كلمة واحدة ونهرع خلال متاهة الأزقة قرب القنصلية البولندية، نتوقف ما بين الفينة والأخرى عند مدخل بيت مظلم لنرى إذا ما كان هناك من يقتفى أثرنا. وأخيرًا، هناك بعيدًا حيث تنتهى الحوانيت عند زرقة السماء، كنا نخطو إلى ليل «الإسكندرية» الأبيض كالحليب المثلج كالبحر، نخطو نحو نجمة

الصباح التى ترقد خفاقة فوق سور المنتزه الأسود المخملى والذى تلامسه الريح والأمواج.

فى تلك الأيام كان لاهتمام «ميليسا» بى ورقتها المثيرة معى كل الخصائص التى يتميز بها من استعاد شبابه. لقد اعتدت أصابعها الطويلة المترددة وهى تتحرك فوق وجهى حين تعتقد أنى قد نمت، وكأنها تستعيد ذكرى السعادة التى عشناها. كان فيها بساطة ومرونة شرقية، شغوفة بأن تقوم على خدمتى. يا لها من طريقة تلك التى كانت تعامل بها ملابسى المتسخة - إنها تبدو حين تمسك بقميص قذر من قمصانى وكأنها تغمره بفيض من عنايتها. وفى الصباح كنت أجد موسى الحلاقة وقد نظف تنظيفًا جيدًا، حتى معجون الأسنان قد وضعته فوق الفرشاة معدًّا للاستخدام. كانت عنايتها بى دافعًا يحفزنى كى أعطى لحياتى شيئًا من الشكل والأسلوب اللذين ربما يتماثلان مع بساطتها. لم تتحدث أبدًا عن تجاربها فى الحب، كانت تنأى عنها فى ضجر وتقزز يوحيان بأنها كانت وليدة الحاجة أكثر مما تكون وليدة الرغبة. وقد مدحتنى بقولها: «إننى أحس لأول مرة بأننى لا أخاف أن أكون طائشة أو حمقاء مع رجل».

كان فقرنا أيضًا رباطًا يعمق ما بيننا. وكانت نزهاتنا فى غالب الأحيان هى نفس النزهات البسيطة التى يقوم بها أهالى مدينة تقع على شاطئ البحر. كان الترام الصغير والذى يشبه الصفيحة يحملنا وهو يقعقع بعجلاته حتى شطآن «سيدى بشر» الرملية، أو كنا نقضى شم النسيم فى حدائق «النزهة»، نجلس فوق الحشائش تحت الأشجار المورقة بأزهارها الحمراء والبنفسجية والبيضاء، وسط العديد من العائلات المصرية الفقيرة. كان ثقل الزحام علينا يلهينا ويقربنا من بعضنا البعض أشد القرب. نتجول فى سعادة، دون أن يعرفنا أحد، بين المتسكعين الآخرين

من أهل المدينة على حافة القناة الراكدة نراقب الأطفال وهم يغطسون، يبحثون فى الطين عن عملة، أو نأكل قطعة بطيخ من فوق دكة. إن أسماء محطات الترام تردد صدى شاعرية تلك الرحلات: «الشاطبى»، «كامب شيزار»، «لورانس»، «مظاريطة»، «جليمونوبولو»، «سيدى بشر».

ثم هناك الجانب الآخر: عندما كنت أعود بالليل متأخرًا لأجدها نائمة وقد رفست شبشبها الأحمر بعيدًا وغليون الحشيش الصغير موجود على المخدة إلى جوارها... كنت أعرف أن واحدة من نوبات الاكتئاب قد حلت بها. لم يكن هناك ما يستطيع المرء فعله معها فى مثل تلك الحالات، إنها تغدو شاحبة، سوداوية المزاج، مرهقة، لا تستطيع أن تقيم نفسها من خمولها لأيام عديدة. إنها تتحدث إلى نفسها كثيرًا، وتقضى الساعات تستمع إلى الراديو وهى تتثاءب أو تتصفح رزمة من مجلات السينما القديمة دون أدنى اهتمام. فى مثل تلك الأوقات عندما تطبق عليها رهبة المدينة، كنت أغدو حائرًا أدبر وسيلة تزيح عنها خمولها، كانت ترقد تنظر بعينيها بعيدًا كعرافة، وتربت على وجهى وتكرر القول مرة بعد أخرى: «لو عرفت كيف كنت أعيش لهجرتنى، إننى لست بالمرأة التى تصلح لك، أو لأى رجل. إننى متعبة، وأنت تبدد عطفك». فإن احتججت بأن ما بينى وبينها حب ليس نوعًا من العطف، فإنها ربما قالت وقد قطبت جبينها: «إذا كان ما بيننا حبّا لكان عليك أن تقتلنى بالسم ولا تتركنى على هذه الحال». ثم تأخذ فى السعال من رئتها التى لم تتلف بعد، وأغادر أنا المكان وقد عجزت عن احتمال هذا الصوت إلى الشارع المظلم القذر فى الحى العربى، أو أزور مكتبة المجلس البريطانى لأبحث فى بعض المراجع، وهنا حيث توحى الثقافة البريطانية كانطباع عام بالشح والفاقة، وبأن المثقفين معلقون كشريط، هنا كان فى مقدورى أن أقضى الأمسية وحيدًا. سعيدًا بتمتمة وثرثرة القراء من حولى.

ولكن كانت هناك أوقات أخرى أيضًا، هى تلك العصارى التى تثير الضيق بحرها - والتى كان يسميها «بومبال»: «العصارى التى ينضح المرء فيها عرقًا لزجًا كالعسل» - عندما كنا نرقد معًا غارقين فى الصمت، نرقب الستائر الصفراء وهى تعلو على الضوء وتهبط فى حركة رقيقة. إنها أنفاس الريح الهادئة خارج «مريوط» وهى التى تماثل أنفاسنا. وربما نهضت بعد ذلك، تنظر فى الساعة بعد أن تهزها وتستمع إليها بانتباه: ثم تجلس عارية إلى منضدة الزينة لتشعل سيجارة - وقد بدت صغيرة وجميلة للغاية - وهى ترفع ذراعها النحيل تستعرض السوار الرخيص الذى أهديته إليها. «حقًا، إننى أنظر إلى نفسى، غير أن ذلك يساعدنى على الانشغال بك». ثم تستدير جانبًا من هذا التأمل السريع للمرآة وتخطو فى سرعة إلى حوض غسيل الأوانى القبيح المنظر، وهو فى نفس الوقت حمامى الوحيد، وتقف عند البالوعة الحديدية القذرة لتغسل نفسها بحركات سريعة ماهرة، تشهق من برودة الماء، بينما أنا راقد أستنشق دفء وحلاوة الوسادة التى كانت تريح رأسها الفاحم عليها. أرقب وجهها اليونانى الطويل الحزين، بأنفه المدبب إلى حد معقول وعينيها الصريحتين، والبشرة الناعمة التى لا تمنح إلا للأطفال، والشامة على عود عنقها الرقيق. تلك هى اللحظات التى لا يمكن أن تقدر، ولا يمكن أن تقيم فى كلمات، إنها تحيا فى عصارة الذاكرة، كمخلوقات رائعة لا نظير لها فى نوعها، اصطيدت من أعماق محيط لم يرتده أحد من قبل.

* * *

قرر «بومبال» أن يؤجر شقته هذا الصيف إلى «بورسواردن» مما ضايقنى أشد الضيق. إننى لا أحب تلك الشخصية الأدبية - لأنها

تتناقض مع أعمالها الأصيلة الرشاقة، نثرًا كانت أم شعرًا. لم أكن أعرفه معرفة جيدة، إلا أنه كان ناجحًا كروائى من الناحية المالية، مما كان يثير حسدى، وخلال أعوام تمرس فيها على الحياة الاجتماعية نما لديه فهم لآداب وسلوك المجتمع التى لم أحس برغبة فى أن تكون جزءًا من مؤهلاتى على أية حال من الأحوال. كان قصيرًا سمينًا أشقر يعطى انطباع الشاب الذى يرقد فى أحضان أمه وهى تهدهده. ليس فى وسعى أن أقول: إنه لم يكن طيبًا أو رحيمًا، لأنه كان كليهما معًا ـ إلا أن وطأة العيش مع إنسان لا تحبه فى شقة واحدة، كانت تثير غضبى. وعلى أية حال فإن تركى للمكان كان سيثير فى نفسى ضيقًا أشد، ولهذا فقد قبلت حجرة صغيرة كالعلبة فى نهاية الممر فى مقابل إيجار أقل. وكنت أقوم بالاغتسال فى حوض الغسيل الصغير القذر.

كان فى وسع «بورسواردن» أن يلهو كما يشاء، وكانت ضجة الضحك والسكر الصادرة من شقته تفرض علىَّ أن أظل يقظًا مرتين تقريبًا فى كل أسبوع. وحدث ذات ليلة أن سمعت فى ساعة متأخرة للغاية طرقة على الباب. وفى الممر كان يقف «بورسواردن» وقد بدا شاحبًا أنيقًا مضطربًا، وإلى جواره وقف وقاد بحرى بدين بشع ـ مثل كل الوقادين البحريين، وكأنه قد بيع عبدًا وهو صغير. وقال «بورسواردن» لى فى صوت حاد، «لقد أخبرنى «بومبال» أنك كنت طبيبًا، فهل تأتى معى وتلقى نظرة على شخص مريض؟». كنت قد أخبرت «جورج» ذات مرة عن العام الذى قضيته طالبًا فى كلية الطب، وكانت النتيجة أنه اعتبرنى طبيبًا كامل الصلاحية. إنه لم يكتف بأن يوكل إلىّ مهمة العناية بكل ما يصيب مزاجه من توعك، ـ والتى كانت تشتمل على مضايقات عديدة تسببها له حشرات جسدية ـ بل إنه تمادى ذات مرة محاولاً إقناعى بأن أجرى لحسابه عملية إجهاض من فوق منضدة حجرة الطعام.

وأسرعت أخبر «بورسواردن» بأنى لست طبيبًا على وجه اليقين، ونصحته بأن يستدعى واحدًا منهم بالهاتف، إلا أن الهاتف كان معطلاً، ولم يكن فى الإمكان إيقاظ البواب من نومه، وهكذا وبروح الفضول الخالص من أى غرض خاص، أكثر من أى شىء آخر ارتديت معطفى الواقى من المطر فوق بيجامتى واتخذت طريقى خلال الممر.

ما إن فتحت الباب حتى عشيت عيناى للحال من الضوء الباهر والدخان. لم يبد أن الحفلة كانت من النوع المعتاد. فقد كان هناك ثلاثة أو أربعة ضيوف من طلبة البحرية العسكريين المشوهى الخلقة، وعاهرة من حانة «جولفو» لها رائحة كرائحة المخالب المملحة والطافيا(Φ). والشىء الغريب أيضًا أنها كانت تنحنى فوق شبح أجلس على حافة الكنبة، الشبح الذى أعرف الآن فيه «ميليسا» إلا أنها كانت تبدو حينذاك كقناع يونانى هزلى يحمل سمات كارثة، كانت تبدو وكأنها تهذى، ولكن بلا صوت، فقد انقطع صوتها، حتى إنها بدت كفيلم صامت خاص بها. كانت ملامحها غائرة. وكان واضحًا أن المرأة العجوز قد أصيبت بالهلع، كانت تلكمها على أذنيها وتشد شعرها ـ بينما واحد من طلبة البحرية العسكريين ينثر الماء عليها بطريقة لا دربة فيها من آنية كثيفة النقوش، كانت واحدة من مقتنيات «بومبال» التى يعتز بها أشد الاعتزاز والتى تحمل على جانب من جوانبها شارة السلاح الملكى الفرنسى. وهناك بعيدًا عن الأنظار فى مكان ما، كان شخص ما يحس قرفًا عميقًا. كان «بورسواردن» يقف إلى جوارى يمسح المشهد الذى أمامه، وقد بدا عليه أنه خجل من نفسه.

كانت «ميليسا» تنضح بالعرق وقد التصق شعرها بصدغيها، وعندما حطمنا دائرة معذبيها عادت تغرق مرة أخرى فى صمت مرتعش خال من

التعبير، وقد نقشت على وجهها صرخة لا آخر لها. كان من الحكمة أن أحاول معرفة المكان الذى كانت فيه، وماذا أكلت أوشربت؟ إلا أن نظرة إلى المجموعة الثرثارة المترنحة حولى كانت توضح أنه من المستحيل أن يخرج المرء منهم بأى شىء له معنى. ومع ذلك فقد أمسكت بأقرب صبى يقف إلى جوارى وأخذت فى استجوابه عندما بدأت حيزبون «جولفو» فى الصراخ فى صوت أجش ممضوغ «لقد أعطاها ذبانًا هنديًا»(*). كانت هى نفسها فى حالة هستيرية، لا يمنعها إلا وقاد بحرى كان يقيدها من الخلف. وانطلقت كالفأر من ذراعى آسرها وأمسكت بحقيبة يدها ونزلت بها على رأس أحد البحارة فى قرقعة مدوية. ويبدو أن الحقيبة كانت ملأى بالمسامير، لأن البحار سقط إلى أسفل وقد أصابه الدوار ثم عاد ينهض إلى أعلى وفى شعره بقايا من آنية فخارية محطمة.

ثم بدأت تشهق بصوت خشن وتنادى البوليس، فاندفع نحوها ثلاثة من البحارة وقد شرعوا أصابعهم الفظة، ينصحونها، يحذرونها، يتضرعون إليها أن تكف. لم يكن هناك من يرغب فى الصدام مع البوليس البحرى، إلا أن أحدًا لم يكن يحب أو يرغب فى تذوق لطمة من تلك الحقيبة التى تشبه الفخار، الحقيبة المنتفخة بزجاجات البلادونا وأدوات منع الحمل. كانت تتراجع فى حذر خطوة خطوة (فى تلك الأثناء أخذت نبض «ميليسا»، وشققت لها بلوزتها واستمعت إلى قلبها. وبدأت أنزعج عليها، وبصدق، من أجل «بورسواردن» الذى كان قد اتخذ لنفسه موقعًا استراتيجيًا خلف أحد المقاعد وأخذ يومئ لكل شخص إيماءة بليغة). وبدأ الهزل، فقد حاصر البحارة الفتاة المزمجرة - إلا أنهم حاصروها لسوء حظهم عند الدولاب «الشيراتونى»

(*) مادة مثيرة للأعصاب (المترجم).

المزخرف والذى يحوى مجموعة «بومبال» الفخارية التى يعتز بها أشد الاعتزاز. ومدت يديها خلفها تبحث عن شيء تلجأ إليه لحمايتها، فالتقت بمدد من الذخيرة لا يفنى، فألقت بحقيبة يدها وهى تطلق صرخة خشنة ظافرة وأخذت فى إلقاء الأوانى الصينية فى اهتمام ودقة بالغين، لم أر لهما نظيراً من قبل. وامتلأ الجو بشظايا القوارير المصرية واليونانية، و«الأوشابتى» و«السيفر». ولم يمض وقت طويل حتى جاءت الضربات المألوفة المخيفة للأحذية ذات المسامير الغليظة الرءوس على عتبة الباب، وبدأت الأنوار تضاء حولنا فى كل البناية. وللحقيقة غدا انزعاج «بورسواردن» ملحوظًا للغاية. إذ لم يكن فى وسعه احتمال الفضيحة التى يمكن أن تثيرها الصحافة المصرية عن شغب كهذا الشغب، باعتباره أحد سكان المنزل بالإضافة إلى كونه رجلاً مشهوراً. وأحس بالارتياح عندما أشرت إليه وأخذت فى لف جسد «ميليسا» التى لا تكاد تحس شيئًا فى السجادة الناعمة المصنوعة فى «بخارى». وحملناها معًا نترنح بها عبر الممر إلى العزلة المباركة فى حجرتى التى تشبه الصندوق، حيث فردنا السجادة، مثلما فعلت «كليوباترا» ووضعناها فى الفراش.

وتذكرت وجود طبيب يونانى عجوز، إنه يقيم على مقربة فى هذا الشارع، ولم يمض وقت طويل حتى أحضرته إلى أعلى السلم المظلم، يتعثر ويلعن بلغة سوقية، ويسقط السماعات وأدوات إخراج البول على طول الطريق. وأعلن أن «ميليسا» مريضة للغاية، إلا أن تشخيصه كان غامضًا ويشمل كل شيء حسب العرف السائد فى المدينة. فقد قال: «إنها مريضة بكل شيء، سوء تغذية، هستيريا، كحول، حشيش، درن، ذبان هندى. . . . اختر بنفسك ما تشاء». لقد وضع يده فى جيبه وأخرجها ملأى بكل الأمراض المتصورة ثم قدمها لنا

لنختار منها. إلا أنه كان عمليًا أيضًا. واقترح أن يعد لها فى اليوم التالى سريرًا فى المستشفى اليونانى، على ألا تتحرك حتى يتم ذلك.

وأمضيت تلك الليلة والليلة التالية لها فوق الكنبة أسفل السرير وكنت أعهد بها إلى عناية «حميد» الأعور أرق البرابرة، عندما أخرج للعمل. كانت مريضة للغاية خلال الاثنتى عشرة ساعة الأولى، تهذى فى بعض الأحيان، وتعانى فى أحيان أخرى نوبات مؤلمة لكثرة ما أخافوها. واتفقنا معًا أن نعاملها معاملة رقيقة حازمة حتى نمنحها القوة اللازمة للتغلب على أسوأ الأوضاع. وفى عصر اليوم التالى كانت قد تحسنت حالتها إلى الحد الذى جعلها تتكلم فى همس. وأعلن الطبيب اليونانى أنه راض بما أحرزته من تقدم. وسألها من أين جاءت؟ فلاح على وجهها الفزع وهى تجيب «أزمير». إلا أنها لم تذكر اسم أو عنوان والديها. وعندما ألح عليها أدارت وجهها نحو الحائط وفاضت دموع الإرهاق فى بطء من عينيها. ورفع الطبيب راحتها وفحص الإصبع الذى يوجد به خاتم الزواج، ثم قال لى بطريقة بعيدة عن الأسلوب الطبى وهو يشير إلى غياب الخاتم: «هذا هو السبب الذى من أجله تبرأت منها عائلتها وطردتها. إنها أمور تحدث كثيرًا فى تلك الأيام....». وهز رأسه الأشعث راثيًا لها. ولم تقل «ميليسا» شيئًا، إلا أنها، عندما أحضرت النقالة وأعدت المحفة لحملها، شكرتنى فى حرارة لأنى ساعدتها، وضغطت راحة «حميد» إلى وجنتها - لقد فاجأتنى قائلة بمروءة لم أتعودها فى حياتى: «إذا لم تكن لك فتاة عندما أغادر المستشفى، ففكر فىَّ، وسأحضر لك إن دعوتنى»(Φ). إننى لا أعرف كيف أنقل هذا النقاء السامى من اليونانية إلى الإنجليزية.

وهكذا مر شهر أو أكثر ولم أرها، والحقيقة أننى لم أفكر فيها، كان

لدى العديد من المشغوليات فى ذلك الوقت، حتى كان ذات أصيل لم يكن لدى فيه أية مشغولية، بينما أنا جالس إلى نافذتى أرقب المدينة وهى تتمطى من نومها رأيت «ميليسا» أخرى تسير فى الطريق ثم تميل إلى مدخل المنزل الظليل. وطرقت بابى ثم دخلت وذراعاها مليئان بالورود، وللحال، وجدت نفسى منفصلاً عن تلك الليلة المنسية بقرون عديدة. كان فيها شىء من ذلك الحياء الذى رأيته يلازمها أخيراً بينما كانت تجمع المال للفرقة الموسيقية فى النادى الليلى، كانت تبدو كتمثال للكبرياء وقد تدلت رأسه.

حل بى نوع من التأدب يرهق الأعصاب، فقدمت لها كرسيّا جلست على حافته. كانت الزهور من أجلى، إلا أنه لم تكن لديها الشجاعة الكافية لتلقى بتلك الباقة بين ذراعى، وكان فى وسعى أن أراها تحملق حولها فى حيرة بحثًا عن آنية يمكن أن تضع الزهور فيها. لم يكن هناك غير حوض غسيل خزفى ملىء بالبطاطس نصف المقشرة وبدأت أتمنى لو لم تحضر. كنت أود لو قدمت لها كوبًا من الشاى إلا أن السخان الكهربى كان مكسوراً، ولم أكن أملك نقودًا حتى أصطحبها إلى مكان بالخارج، كنت فى ذلك الوقت أنزلق فى الدين أكثر فأكثر من ذى قبل. كما أنى قد أرسلت «حميد» خارج المنزل ليكوى بدلتى الصيفية التى لا أملك سواها وكنت مرتديًا جلبابًا ممزقًا. أما من ناحيتها هى فقد بدت رائعة، أنيقة بدرجة مخيفة، ترتدى فستانًا صيفيّا جديدًا عليه نقوش أوراق عنب مجعدة، وقبعة من القش تشبه جرسًا ذهبيّا كبيراً. وأخذت أبتهل فى حرارة أن يعود «حميد» فيخلق بعودته شيئًا من التغيير. كنت أبغى تقديم سيجارة لها إلا أن علبة سجائرى كانت فارغة، واضطررت إلى قبول واحدة منها، من علبة سجائرها المزركشة والتى تحملها دائمًا، ودخنت تلك السيجارة بطريقة أمّلت أن أبدو فيها رابط الجأش وأخبرتها أننى قد قبلت وظيفة جديدة

قرب «سيدى جابر»، وأن هذا يعنى بعض المزيد من النقود. وقالت: إنها ستعود إلى عملها وأن العقد المبرم معها قد جدد مرة أخرى: إلا أنهم سيمنحونها قدراً أقل من المال. ثم قالت بعد بضع دقائق من مثل هذا الحديث إنها مضطرة لتركى الآن، إذ إنها مرتبطة بموعد لتناول الشاى، فقدتها إلى بسطة السلم ورجوتها أن تحضر مرة أخرى متى شاءت. فشكرتنى وهى ما زالت ممسكة بالزهور، خجلة للغاية من أن تلقيها على، وهبطت السلم فى بطء. وجلست على سرير بعد أن غادرت البيت، وأطلقت كل الشتائم البذيئة التى تذكرتها بأربع لغات - رغم أنه لم يكن واضحًا لى، من هو الذى أخاطبه. وجاء «حميد» فى ذلك الوقت يجر أقدامه وكنت لا أزال فى ثورة الغضب فصببت عليه جام غضبى، وأفزعه تصرفى هذا بعض الشىء. فقد مضى زمن طويل منذ ثار غضبى عليه، واعتزل فى حجرة الغسيل يتمتم ويهز رأسه يستنجد بالأرواح أن تمد له يد المساعدة.

واستدنت بعض النقود من «بورسواردن» بعد أن ارتديت ملابسى، ورأيت «ميليسا» مرة أخرى بينما كنت فى طريقى لأضع خطابًا فى صندوق البريد. كانت جالسة بمفردها فى ركن المقهى وقد أسندت رأسها إلى راحتها، وقبعتها وحقيبتها ترقدان إلى جوارها بينما كانت تحملق هى فى فنجانها مما يوحى بأنها تقضى وقتًا مملاً. واندفعت أدخل المكان ثم جلست إلى جوارها. وقلت لها: إننى قد أتيت لأعتذر عن سوء استقبالى لها، ولكن. . . . ثم أخذت أصف الأحوال التى حلت بى دون أن أترك شيئًا. السخان الكهربى المحطم، غياب «حميد»، وبدلتى الصيفية. وبدت لى المصائب التى أحاطت بى وأنا أعددها مصائب هزيلة إلى حد ما. فغيرت الزاوية التى كنت أعرض مشاكلى من خلالها وأخذت أرويها فى سخط حزين أغراها بضحكة كانت من

أكثر الضحكات التى سمعتها مرحًا. والحق يقال: إنى قد بالغت عند الحديث فى موضوع ديونى، رغم أن الحقيقة التى لا جدال فيها أن «بورسواردن» كان على استعداد دائم لأن يقرضنى بعض المبالغ الصغيرة دون أى تردد منذ تلك الليلة التى حدث فيها الشجار. وحتى أغطى الأمر كله، قلت لها: إنها قد جاءت فى وقت كدت أبرأ فيه من عدوى بسيطة، ولكنها مثيرة لأحد الأمراض السرية - ثمرة اهتمام «بومبال» بى - وأنها دون شك قد أصابتنى من إحدى السوريات اللواتى تركهن «بومبال» خلفه بعد تفكير طويل. لقد كانت هذه القصة أكذوبة ولكنى كنت مدفوعًا إلى روايتها رغمًا عنى. وقلت لها: إننى كنت فزعًا من فكرة مضاجعة أية امرأة مرة أخرى قبل أن أشفى تمامًا، وعندئذ أخرجت يدها ووضعتها فوق يدى وهى تضحك وقد تجعد أنفها: كانت تضحك فى صفاء، وابتهاج ودون تكلف، حتى إننى قررت أن أحبها فى هذا الزمان والمكان.

وسرنا فى ذلك الأصيل نتسكع على شاطئ البحر وقد تشابكت ذراعانا وامتلأت أحاديثنا بأنقاض حياتنا التى عشناها دون تبصر ودون تصميم. لم يكن هناك أى شىء مشترك فى ميولنا. كانت شخصياتنا واستعدادات كل منا نقيض الآخر، ورغم هذا فقد أحسسنا فى السهولة السحرية التى تصادقنا بها بشىء يبعث الأمل فى نفوسنا. وأحب، أيضًا، أن أتذكر تلك القبلة الأولى إلى جوار البحر، والريح تطير خصلة من شعرها على كل وجنة بيضاء، قبلة قطعتها ضحكة لم يكن هناك مفر منها عندما تذكرت روايتى للمحن التى كنت أعانيها. لقد كانت رمزًا للعاطفة التى تمتعنا بها، لروحها المرحة، لرقتها: رمزًا لما تتمتع به من بر وإحسان.

* * *

كان هناك موضوعان من العبث أن يطرقهما المرء مع «جوستين»: عمرها، ومنبتها. لم يكن هناك من يعرف - وربما كان «نسيم» نفسه أيضًا لا يعرف - كل شيء عنها بصورة مؤكدة. حتى «منمجيان» علام المدينة بدا عاجزًا في هذه المرة، رغم أنه على معرفة تامة بآخر غرام لها. ومع ذلك فقد ضاقت عيناه البنفسجيتان وهو يتحدث عنها، وقال في تردد: إنها قد جاءت من حى «العطارين» المزدحم، وإنها قد ولدت من أسرة يهودية فقيرة هاجرت منذ ذلك الحين إلى «سالونيكا». إن يوميات «جوستين» لا تساعد كثيرًا حيث تفتقر إلى الأدلة - الأسماء، التواريخ والأماكن - وتتكون فى معظمها من شطحات خيال طائشة تفصل فيما بينها نوادر مرة وخطوط حادة ترسم أناسًا قد وضعت شخصيتهم خلف قناع على صورة حرف من الحروف الأبجدية. إن الفرنسية التى تكتب بها ليست صحيحة تمام الصحة، إلا أنها مليئة بالحياة، وذات نكهة خاصة، تحمل ميزة هذا الصوت المبحوح الذى لا نظير له. انظر ماذا تكتب: «كليا» تتكلم عن طفولتها: إننى أفكر فى طفولتى، أفكر فيها بانفعال عاطفى؛ أفكر فى عصرى . . . أولاً: اللطمات فى الحظيرة خلف الاستاد، دكان الساعاتى. إننى أرى نفسى وقد استغرقنى تركيز عاطفى أرقب وجه عاشق نائم كما كنت أراه فى غالب الأحيان منحنيًا فوق ساعة حائط مكسورة، والضوء الحاد ينساب فوقه فى صمت. اللطمات واللعنات ونقوش الراحات الزرق وقد رسمت فى كل مكان على الحوائط الطينية الحمراء (كضربات الضمير)، والأصابع مشدودة لتحمينا من عين الشرير. ونمونا مع هذه اللطمات، بعيون فزعة ورءوس أصابها الصداع. منزل أرضيته من تراب مليء بالجرذان معتم بتلك الفتائل الطافية فوق الزيت، المرابى العجوز سكران يشخر، يستنشق مع كل

نفس يأخذه خليطًا من روائح التراب، والبراز، وإفرازات الخفافيش، الميازيب التى تسدها أوراق الشجر وكسر الخبز وقد نقعت فى البول، أكاليل من الياسمين صفراء فاقعة البهرجة. ثم أضف إلى ذلك تلك الصرخات التى تنبعث فى الليل من خلف نوافذ الآخرين فى ذلك الشارع الملتوى: البك يضرب نساءه لعجزه الجنسى، بائعة العشب العجوز تبيع نفسها كل ليلة فوق الأرض المنبسطة بين المنازل المتهدمة - أنين حزين غامض. الدبيب الرخو للأقدام السوداء العارية، وهى تسير ليلاً فى الشوارع التى جف فيها الطين. حجرتنا متخمة بالظلال والمرض، ونعيش نحن الأوروبيين فى تنافر مع تلك الحالة الصحية الحيوانية المخيفة «للسود» من حولنا. وطء البوابين لنسائهم يهز المنزل كشجرة تمر، نمور سوداء لها أسنان لامعة. وفى كل مكان، البراقع، والصراخ، والقهقهات المجنونة تحت أشجار الفلفل، الخبل والمصابون بالجذام. مثل تلك الأشياء هى التى يراها الأطفال ويختزنونها فى ذاكرتهم لتكتسب حياتهم مناعة أو لتغدو بلا مرشد أو دليل. لقد انهار جمل من الإعياء فى الشارع خارج المنزل، إنه ثقيل حتى يصعب نقله إلى السلخانة، ولذا فقد حضر رجلان ومع كل منهما بلطة، إنهما يقطعانه الآن هناك فى الشارع. وهو لا يزال حيًا. كانا يقطعان اللحم الأبيض - والمخلوق المسكين يبدو متألمًا أشد الألم. مترفعًا أشد الترفع، حائرًا أشد الحيرة وقد قطعت رجلاه. وفى النهاية لا تزال الرأس حية هناك، والعينان مفتوحتين تنظران فيما حولهما. لا صرخة احتجاج واحدة، ولا أية مقاومة. الحيوان مستسلم كشجرة تمر. إلا أن طين الشارع ظل لأيام بعد ذلك مشربًا بدمائه وأقدامنا العارية قد صبغها البلل الدامى.

النقود تتساقط من أقداح الشحاذين المصنوعة من الصفيح. شذرات

من جميع اللغات ـ الأرمينية، اليونانية، الأمهرية، المراكشية، يهود من آسيا الصغرى، والبحر الأسود، جورجيا: أمهات ولدن فى مستعمرات يونانية على البحر الأسود، مجتمعات ممزقة كفروع الأشجار التى ينقصها الجذع، تحلم بجنة «عدن». تلك هى الأحياء الفقيرة فى المدينة البيضاء، إنها لا تحمل أى شبه لتلك الشوارع الجميلة التى أقامها ونسقها الأجانب حيث يجلس السماسرة يرشفون صحف الصباح، حتى الشاطئ لا وجود له بالنسبة لنا هنا. وفى الشتاء يندر أحيانًا أن تسمع صوت الصفارة الراعدة، ولكنه يبدو وكأنه آت من بلد آخر. آه: يا لتعاسة الموانئ والأسماء التى تسحر المرء عندما لا يبرح مكانه. إنها كالموت؛ موت النفس المنبعث مع كل ترديد لكلمة «الإسكندرية، الإسكندرية».

* * *

شارع «باب المندب»، شارع «أبو الدرداء»، «مينا البصل» (الشوارع زلقة بما يلفظه سوق القطن من بقايا) «النزهة» (حديقة الزهور، ذكرى بعض القبلات) أو محطات الأتوبيس بأسمائها الغريبة مثل «سابا باشا»، «مظلوم»، «زيزينيا»، «باكوس»، «شوتز»، «جاناكليس». إن المدينة تصبح عالمًا عندما يحب المرء أحد سكانها.

* * *

كان من نتائج ترددى على البيت الكبير أن غدوت مرموقًا أحظى بانتباه هؤلاء الذين يعتبرون «نسيم» من ذوى النفوذ، وافترضوا أنه ما دام يقضى وقته معى فلا بد وأن أكون أنا أيضًا، إما غنيًا أو لامعًا بطريقة لم يضعوا أيديهم عليها بعد. فقد جاء «بومبال» إلى غرفتى عصر أحد الأيام بينما كنت نائمًا وجلس على سريرى ثم قال «خد بالك، لقد أصبحت مرموقًا. إن عشيق الزوجة فى إطار نمط الحياة بـ

«الإسكندرية» يعتبر بالطبع شخصية عادية تمامًا. إلا أن خروجك الكثير مع هذين الزوجين سيجعل الأمور من الناحية الاجتماعية عبئًا ثقيلاً عليك. أترى!».

وناولني قطعة من الورق المقوى كبيرة زاهية، مطبوع عليها دعوة إلى حفل كوكتيل بالقنصلية الفرنسية. وقرأتها دون أن أفهمها. وقال «بومبال»: «إنه تصرف أخرق للغاية، فرئيسى، القنصل العام يكن لـ «جوستين» عاطفة قوية. ولقد باءت بالفشل الذريع كل محاولاته للقائها. وقد أخبره أحد جواسيسه بأن لك دالة فى محيط الأسرة، وأنك فى الحقيقة. . . . أنا أعرف، أنا أعرف. ولكنه يأمل أن يحل محلك فى أمورها العاطفية». وضحك فى غم. ولم يبد لى أن هناك ما هو أكثر مجافاة للعقل من هذا الكلام فى ذاك الوقت. وقلت، «أخبر القنصل العام. . . . » وتفوهت بملاحظة عنيفة أو اثنتين جعلتا «بومبال» يطقطق لسانه لائما ويهز رأسه. وقال: «كان بودى أن أفعل ذلك. ولكن يوجد يا عزيزى بين الدبلوماسيين، نظام للنقد كذلك النظام المعمول به بين الدجاج، كما أنه سندى فيما يختص بترقيتى المحدودة».

واستدار رافعًا جسده ثم أخرج من جيبه أقصوصة صفراء الغلاف متآكلة الأطراف ووضعها فوق ركبتى وقال: «هاك شيء يثير اهتمامك، لقد كانت «جوستين» متزوجة عندما كانت صغيرة من رجل «ألبانى» الأصل «فرنسى» الموطن. وكان هذا الرجل كاتبًا. وهذا الكتاب عنها، عن ماضيها الذى انتهى معه، وهو مكتوب بطريقة مهذبة». وقلبت الرواية بين يدى. كان عنوانها «عادات» كتبها شخص يدعى «يعقوب الأرناؤوطى». وقد أشير فى صفحة الغلاف إلى أن

الرواية قد أعيد طبعها مرات عديدة فى أوائل الثلاثينيات. وسألت «بومبال»: «كيف توصلت إلى هذا؟» وغمز «جورج» بعين كبيرة ثقيلة الجفن كعيون الزواحف وهو يقول: «لقد كنا نتحرى الأمر. إن القنصل عاجز عن التفكير فى أى شىء غير «جوستين»، وقد انشغل جميع الموظفين طوال أسابيع فى جمع المعلومات عنها. تحيا «فرنسا».»

ما إن ذهب «بومبال» حتى أخذت فى تقليب صفحات كتاب «عادات» ولا تزال فى عينى بقية من نوم. والحقيقة أن الرواية كانت مكتوبة بصيغة المتكلم بطريقة جيدة للغاية. كانت عبارة عن يوميات عن الحياة فى «الإسكندرية» فى منتصف الثلاثينيات. إن كاتب اليوميات ملتزم بالبحث عن رواية اقترح هو كتابتها ـ وهو يعرض حياته فى «الإسكندرية» يومًا بيوم بطريقة دقيقة ثاقبة. إلا أن ما أسرنى فى هذه الرواية هو صورة يهودية شابة يلتقى بها ويتزوجها: ويأخذها إلى أوروبا: ويطلقها. إن تعثر هذه الزيجة عند عودتهم إلى «مصر» قد تم بذكاء وحشى يكشف عن أبعاد شخصية «كلوديا» زوجته. وما أثار دهشتى وانتباهى، أن أرى فى تلك الزوجة رسمًا كروكيًا لـ «جوستين» التى تعرفت إليها، دون أن أدرى. إن الصورة على وجه اليقين صورة «جوستين» أصغر سنًا وأكثر تشتتًا مما أعرفها. إلا أن المرء لا يخطئ فى إدراك هذا التصوير. والحقيقة أننى كلما قرأت الكتاب ـ وكثيراً ما كان يحدث ذلك ـ كنت أستبدل الاسم باسمها. فكان يتطابق بطريقة مذهلة وكأنه الحقيقة.

لقد التقيا حيث رأيتها أول مرة. فى مرآة، فى المدخل الكئيب لفندق «سيسيل»، فى مدخل هذا الفندق المتهالك تنشق أشجار النخيل إلى أجزاء وتنعكس صورة سعفها الساكن فى المرايا المذهبة الإطارات.

الأثرياء وحدهم هم الذين يستطيعون الإقامة الدائمة فى هذا المكان، هؤلاء الذين يعيشون على معاش التقاعد الذى يضمن لهم طمأنينة آثمة تحيط بهم. إننى أبحث عن مأوى أرخص من ذلك. كانت تجلس فى وقار فى الردهة هذ المساء، حلقة صغيرة من السوريين، كانوا ثقلاء فى بذاتهم السوداء، شاحبين فى طرابيشهم القرمزية، وقد ذهبت نساؤهم اللواتى يشبهن أفراس النهر واللائى لهن شوارب خفيفة إلى فراشهن وهن يحركن حليهن فيصدر عنها صوت جميل، وجوه الرجال الفضولية البيضاوية الناعمة وأصواتهم الأنثوية مشغولة بعلب المجوهرات، فإن كلاً من هؤلاء السماسرة يحمل معه أنفس مجوهراته فى علبة خاصة، وتحول الحديث بعد العشاء إلى حلى الذكور. إن هذا هو كل ما تبقى لسكان البحر المتوسط من موضوعات للحديث، المصلحة الذاتية، نرجسية انحدرت من الإرهاق الجنسى الذى يعبر عن نفسه فى رمز الامتلاك والاستحواذ: حتى إنك إن قابلت رجلاً عرفت للتو، كم يساوى هذا الرجل، وإذا قابلت زوجته فستعلم عن طريق نفس الهمسات اللاهثة كم كان صداقها. إنهم يهمهمون فوق الجواهر كالخصيان، يقلبونها فى الضوء هنا وهناك حتى يثمنوها. وتلمع أسنانهم البيضاء فى ابتسامات نسائية صغيرة. ويتنهدون. ويقدم القهوة لهم ساق ذو وجه أبنوسى لامع يلبس جلبابًا أبيض. وتفتح علبة ذات غطاء فضى من سجائر ناصعة البياض (كأفخاذ المصريات)، وفى كل سيجارة قطع صغيرة من الحشيش، قليل من «السطل» قبل النوم. كنت أفكر فى الفتاة التى رأيتها بالأمس فى المرآة، سمار على بياض رخامى ـ عاجى، شعر أسود أملس، عينان عميقتان تتأوهان، تغوص نظرات المرء فيهما لأنهما عصبيتان، غريبتان، تنطقان بالفضول الجنسى. إنها تتظاهر بأنها يونانية، ولكن لا بد أنها يهودية. فلا يشم

رائحة اليهودى إلا يهودى مثله، لم يكن أى منا يملك الشجاعة حتى يعترف بأصله الحقيقى. لقد قلت لها: إننى فرنسى ولكن سينكشف كل منا أمام الآخر إن عاجلاً أو آجلاً.

«إن نساء الجاليات الأجنبية هنا أكثر جمالاً من أى مكان آخر. يسيطر عليهن الخوف والقلق، يعشن فى وهم أنهن قد غرقن فى محيط من السواد يحيط بهن من كل ناحية. لقد بنيت هذه المدينة كالسد ليمنع طوفان الظلمة الأفريقية، إلا أن «السود» بأقدامهم الناعمة قد بدأوا يتسربون إلى الأحياء الأوروبية. إن نوعًا من اللقاء العنصرى يجرى فى هذا المكان. يجب على المرء حتى يسعد هنا أن يكون مع امرأة مصرية مسلمة، مشتهاة، ناعمة، لينة نقية، متزينة طوال الوقت، إن أجسادهن الشمعية تتحول فى ضوء النفط الساطع إلى اللون الأصفر الليمونى أو الأخضر فى لون البطيخ، أجسادهن صلبة كالصناديق، نهودهن متماسكة فى لون التفاح الأخضر، برودة الزواحف فى لحمهن الخارجى بما فيه من نتوءات أصابع اليدين والقدمين العظيمة، أحاسيسهن مدفونة فيما يسبق الوجدان. لا يمنحن فى الحب شيئًا من ذواتهن حيث لا ذوات لهن يعطونها، ولكنهن يحطن بك فى انكسار معذب، عذاب رغبة جامحة مكبوتة هى نقيض الرقة والمتعة. لقد حبسن منذ قرون وحتى الآن مع الثيران فى حظيرة عذارى محجبات. يتغذين فى الظلام، المربات والدهون الذكية الرائحة، حتى غدون دنان متعة تتدحرج على أرجل زرقاء العروق بيضاء فى لون الورق.

«وتتغير رائحة اللحم البشرى عندما يجوس المرء خلال الحى المصرى - إذ تفوح رائحة الراتنج، خشب الصندل، ملح البارود،

التوابل والأسماك. كانت لا تسمح لى بأن أصطحبها إلى منزلها؛ لأنها لا شك كانت خجلة من بيتها فى هذه الأماكن المزدحمة القذرة. ورغم ذلك فقد كانت تتحدث عن أيام طفولتها حديثًا رائعًا. لقد دونت بعض الملاحظات: عندما كانت تعود إلى منزلها كانت تجد أباها يكسر الجوز على المنضدة بمطرقة فى ضوء مصباح زيتى. إننى أستطيع أن أراه بعين خيالى. إنه ليس يونانيًا ولكنه يهودىّ من «أوديسا» يرتدى طاقية من الفرو، وله خصلات شعر مدهونة بالشحم. كذلك أستطيع أن أرى بعين خيالى قبلة الهمجى لها، وهو يميل عليها يأخذ شفتها السفلى بين أسنانه الجميلة غير المنتظمة، وقضيبه الهائل المتوتر كالحمم السوداء اللامعة فى عصر الجليد. لقد تركنا هنا أوروبا خلفنا وأخذنا نتقدم نحو آماد روحية جديدة. لقد سلمتنى نفسها باحتقار حتى إنى ولأول مرة فى حياتى دهشت من القلق الذى تعانيه، كانت تبدو وكأنها يائسة، متخمة بالنوائب. ومع ذلك فلنسوة تلك الجاليات الضائعة شجاعة يائسة تختلف تمام الاختلاف عن شجاعتنا نحن. لقد ارتدن عالم الجسد إلى درجة تجعلهن غريبات عنا غرابة حقيقية. كيف يتسنى لى أن أكتب عن كل هذا؟ هل ستحضر أم أنها قد اختفت من حياتى إلى الأبد؟ إن السوريين يتوجهون إلى فراشهم وهم يتبادلون نداءات قصيرة، كالطيور المهاجرة».

وتعود. ويتحدثان فيكتب قائلاً:

«أعتقد أنى قد اكتشفت تحت السفسطة الريفية الظاهرة والصرامة الذهنية نوعًا من عدم الخبرة بالمجتمع لا بالعالم. لقد أدركت أننى أثرت انتباهها كأجنبى يتمتع بأخلاق طيبة، فقد سلطت علىّ نظرة خجلة حكيمة، كنظرة البومة، من تينك العينين البنيتين بمقلتيهما الزرقاوين

زرقة قاتمة وأهدابهما الطويلة التى تبرز روعة إنسانى العينين بلمعانهما وصراحتهما».

من الممكن أن يتصور المرء القلق المؤلم واللهفة التى قرأت بها لأول مرة هذا العرض الخاص بعلاقة مليئة بالألم الشخصى والحيرة، بعد أن قرأته مراراً وتكراراً حتى أكاد أحفظه عن ظهر قلب. ثم يكتب فى مكان آخر يلى هذا المكان بكثير: «لقد كان حبنا كالمنطق الذى يفتقد المقدمات الصحيحة. أعنى كان يفتقد إلى الباعث. كان نوعًا من التملك الذهنى الذى أوقع كلينا فى حبائله وجعلنا نبحر راغمين مع التيار فوق مياه «مريوط» الضحلة الفاترة كالضفادع التى تضع بيضها، فريسة لغرائز قائمة على الاسترخاء والحر . . . كلا. ليس هذا هو السبيل لعرض الأمر. إنه ليس السبيل العادل عدلاً تامّا. دعنى أحاول مرة أخرى رسم صورة كروكية لـ «كلوديا» مستخدمًا تلك الأدوات المهتزة القاصرة. من أين نبدأ؟

حسنًا: لقد كان ذكاؤها عونًا كبيراً لها فى مواجهة المواقف خلال عشرين عامًا من الحياة الضالة المرتبكة. لم أكن أعرف عن منابتها إلا القليل، إلا أنها كانت فقيرة. وكان الأثر الذى تركته فى نفسى هو صورة امرأة مشغولة بتقديم سلسلة من المناظر الكاريكاتورية الوحشية عن نفسها، إلا أن هذا التصرف كان أمراً عاديًا يصدر عن أغلب الذين يعيشون فى وحدة، والذين يشعرون بأن ذواتهم الحقيقية لن تجد لها صدى عند الآخرين. وكانت السرعة التى تنتقل بها من جو إلى جو، ومن رجل إلى رجل، ومن مكان إلى آخر، ومن موعد إلى موعد، تصيب الإنسان بالدوار، غير أنه كان لتقلبها رونق يأسر المرء حقّا. وكلما ازدادت معرفتى بها، قلت قدرتى على التكهن بما ستقوم به من

أفعال، كان الشيء الوحيد الثابت فيها هو صراعها العنيف للإفلات من حاجز انفصامها النفسى. إننى كثيراً ما أتذكرها وهى تقول: «إننى أعدك يا حبيبى، بأن الأمر سيكون مختلفًا هذه المرة».

وفيما بعد عندما ذهبنا إلى الخارج: عند «الأدلون»(*) حيث تتلاعب حزم دوائر الضوء فوق الراقصين الإسبان الذين يلفهم دخان ألف سيجارة، أو بجوار مياه «بوذا» الداكنة، حيث تتساقط دموعها حارة بين أوراق الشجر الميتة المنسابة فى هدوء، أو ونحن راكبون فى سهول «إسبانيا» المقفرة، وقد تركت أصوات حوافر جيادنا آثارها على الصمت هناك، أو إلى جوار شاطئ البحر المتوسط ونحن ممددان فوق صخور مهجورة، لم تكن خياناتها هى ما يقلقنى على الإطلاق، فعندما يتعلق الأمر بـ«جوستين» تغدو مشكلة اعتداد الرجل بامتلاكها مشكلة ثانوية على أية حال من الأحوال. وسبى عقلى وهم باطل بأنه فى وسعى اكتشاف كنه هذه المرأة، لكننى أرى الآن أنها لم تكن فى الحقيقة امرأة، كانت تجسيداً للمرأة التى لا تعترف بأية روابط داخل المجتمع الذى نعيش فيه. «إننى أبحث فى كل مكان لاقتناص حياة جديرة بأن تعاش. ربما لو كان فى وسعى أن أموت أو أجن، لأمدنى ذلك ببؤرة تتجمع فيها كل مشاعرى التى لم تجد لها متنفسًا صحيحًا. إن الطبيب الذى أحببته قد أخبرنى أننى مصابة بالهوس الجنسى السحاقى، غير أنه يا «يعقوب» لا توجد أية شراهة أو انغماس من جانبى فى لذاتى. إنها مهدرة تمامًا من هذه الناحية. مهدرة يا عزيزى مهدرة. إنك تتحدث عن تقبلى اللذة فى حزن، كما يفعل المتطهرون. وحتى فى هذا فإنك ظالمى. إننى أتقبل اللذة بطريقة مأساوية، ولو شاء

(*) اسم محل رقص (المترجم).

أصدقائى الأطباء العثور على كلمة مركبة تستخدم فى وصف هذا الكائن الخالى من القلب والذى أبدو مثله، فعليهم أن يقروا بأن ما أفتقده فى القلب إنما أعوضه فى الروح، حيث يكمن البلاء». إنها، كما ترى، ليست من نوع التحديدات المميزة والتى تقدر النساء عادة على تحديدها. كانت وكأن عالمها؛ يفتقد على نحو ما أحد الأبعاد، والحب قد تحول داخلها إلى نوع من عبادة الذات. ولقد فهمته فى بادئ الأمر خطأ، إذ اعتبرته أنانية تدمر وتفنى صاحبها، فقد بدت شديدة الجهل، بأمور الوفاء البسيطة المعروفة والتى تشكل أسس العاطفة بين الرجال والنساء. إن هذا الكلام يبدو كلامًا طنانًا، ولكن لا تهتم. فإننى أتساءل الآن فى دهشة عندما أتذكر الذعر والتمزق الذى احتملته، إذا ما كنت على صواب أم لا؟ إننى أفكر فى تلك المشاهد الدرامية المرهقة فى حجرات النوم المفروشة التى كنا نستأجرها، و«جوستين» تفتح صنابير المياه لتغرق صوت بكائها، إنها تسير جيئة وذهابًا، وقد ضمت ذراعيها تحت إبطيها، تتمتم لنفسها. كانت تبدو كبرميل قار يحترق بلا لهب وقد وصل إلى حد الانفجار. كانت حالتى الصحية التى تجعلنى لا أبالى وأعصابى المتعبة ـ وفوق كل ذلك روحى الأوروبية الميالة للدعابة ـ تبدو فى مثل تلك الأوقات مثيرات لها تحملها فوق طاقتها. فإذا عانت، مثلاً، من شعور وهمى بالاستهانة بها خلال حفل العشاء، فإنها كانت تذرع شريط السجاد أسفل السرير كالنمر الأرقط. وإذا نمت فربما ثار غضبها فتهزنى من كتفى صارخة، «انهض يا «يعقوب»، إننى أتألم، ألا ترانى؟» وربما كسرت شيئًا من الأشياء الموجودة فوق منضدة الزينة عندما كنت أرفض أن أشاركها فى هذا اللغز، حتى تجد مبررًا لدق الجرس. كم وجهًا من وجوه الخادمات الليليات لم أره وقد أصابه الفزع وهو يواجه هذا الشبح المتوحش فى

رداء السهرة الفضى أو الذهبى، وهى تقول فى أدب يبعث الرعب فى النفس: «تكرمى علىّ بتنظيف منضدة الزينة. فقد حطمت شيئًا ما بطريقة سخيفة». ثم تجلس لتدخن سيجارة بعد أخرى، ولقد قلت لها ذات مرة: «إننى أعرف ما تعانينه بالضبط وأتوقع رغبتك فى استثارتى حتى أضربك وحتى أعطى لخطاياك نوعًا من الغفران، فى كل مرة تخونيننى فيها ويأكلك الشعور بالذنب. إننى فى بساطة، يا عزيزتى، أرفض أن أكون قوادًا لملذاتك، يجب أن تحملى أثقالك بنفسك. إنك تسعين بلا هوادة أن أستعمل معك سوط التعذيب، لكننى أشفق عليك». والحقيقة التى يجب أن أعترف بها أن هذا الكلام قد جعلها تفكر تفكيرًا عميقًا للحظة، وبحركة لا إرادية شردت يداها تلتمس جلد ساقيها الناعم وقد حلقت شعرهما بعناية شديدة فى ذاك الأصيل.

«وأخيرًا، وجدت وقد بدأت أحس بالضجر منها، أن استخدام العواطف على هذا النحو السيئ أمر مرهق للغاية، حتى إننى أخذت فى إهانتها والسخرية منها، فقد ناديتها ذات ليلة باليهودية المختلة المزعجة. فانفجرت تبكى بذلك النشيج الفظيع الأجش الذى كنت أسمعه منها، حتى إن التفكير فيه الآن (فى ثقله وكثافة شجاه) مجرد التفكير يوجعنى، وألقت بنفسها فوق سريرها لترقد وقد تدلت أطرافها وارتخت، واجتاحتها موجات من التشنج العصبى كدفقات الماء من خرطوم.

«هل كانت تتصرف على هذا النحو فى غالب الأحوال، أم أن ذاكرتى ضاعفت فعالها؟ ربما حدث هذا الأمر مرة واحدة، ثم ضللتنى أصداؤه. وعلى أية حال فإنه يخيل إلى فى مرات عديدة أننى أسمع الصوت الذى تحدثه عندما تفتح زجاجة الأقراص المنومة والصوت

الخافت الذى يصدر عن الحبوب وهى تسقط فى الكوب. فكنت أعدها، حتى وإن كان النعاس يغالبنى، حتى أتأكد من أنها لم تأخذ أكثر مما يجب. حدث هذا بالطبع فى فترة متأخرة للغاية من حياتنا الزوجية، ففى الأيام الأولى كنت أطلب منها أن تأتى إلى سريرى، فكانت تطيعنى وهى باردة غاضبة مدركة لما تفعل. كنت غبيًا، حتى إننى اعتقدت أنه فى وسعى أن أحررها مما هى فيه، وأن أمنحها راحة الجسد التى كنت أعتقد أن الطمأنينة العقلية تعتمد عليها ولكننى كنت مخطئًا. كانت توجد فى أعماقها عقدة لم تحل، وكانت «جوستين» تود أن تحل تلك العقدة التى كانت تفوق مهارتى كعاشق أو صديق. بالطبع بالطبع. كنت أعرف كل ما يمكن معرفته فى ذلك الوقت عن خصائص النفس المصابة بالهستيريا. إلا أننى اعتقدت أن هناك نوعًا آخر من الصفات فى وسعى أن أتبينه وراء كل هذا، لقد كانت على نحو ما لا تبحث عن الحياة ولكنها كانت تبحث عن إلهام يوحد كل شىء ويعطى للحياة مقصداً.

«لقد وصفت من قبل كيف التقينا - فى مرآة «فندق سيسيل» الطويلة، أمام باب صالة الرقص المفتوح فى ليلة «كرنفال». الكلمات الأولى التى تحدثناها، تبادلناها فى المرآة بطريقة رمزية للغاية. كانت هناك فى رفقة رجل يشبه سمكة الحبار، كان فى انتظارها بينما تفحص هى وجهها الأسمر بعناية. ووقفت أنا لأصلح ربطة عنق غير مألوفةعلى شكل «فيونكة»، عندما ابتسمت وقالت: «ليست هناك إضاءة كافية على الإطلاق». كانت تمتلك صراحة طبيعية تستميل الناظر إليها، وتبدو كدرع يحميها من أى خواطر بالتمادى معها. وأجبتها دون تفكير: «ربما كانت كذلك بالنسبة للسيدات، غير أننا معشر الرجال أقل منهن فيما نحتاج إليه». وابتسمنا، وعبرتها وأنا فى

طريقى إلى صالة الرقص. كنت مستعداً للخروج من حياتها فى المرآة إلى الأبد وبدون تفكير. غير أن مصادفات إحدى تلك الرقصات الإنجليزية الفظيعة والتى أعتقد أنها تسمى «البول جونس»، قد جعلتنى فيما بعد أقف أمامها وجهًا لوجه فى رقصة «فالس». وتبادلنا بعض كلمات لا رابط بينها، ورقصت بطريقة رديئة، وهنا يجب أن أعترف بأنه لم يكن لجمالها أى تأثير علىّ. لقد حدث هذا فيما بعد عندما بدأت حيلتها برسم صور سريعة سيئة التحديد حول شخصيتى، وبطعناتها الحادة النافذة ألقت بكفاءتى النقدية فى ضباب التشويش، ناسبة إلى صفات اخترعتها هى من وحى اللحظة، تحكمها فى ذلك رغبة لا وازع فيها من ضمير كى تأسر انتباهى. إن النساء يهاجمن الكتاب على الدوام ـ فمنذ اللحظة التى عرفت فيها أننى كاتب، عزمت على تشريحى حتى تشد انتباهى نحوها. كان من الممكن أن يداهن كل هذا كرامتى إلى أقصى الحدود لو أن بعض ملاحظاتها لم تكن صائبة. إلا أنها كانت حاذقة، وكنت أنا أضعف من أن أقاوم مثل هذه اللعبة، لعبة الكمائن الذهنية التى تقوم عليها مناوشات المداعبة والغزل.

«ومن هنا فإننى لا أتذكر شيئًا حتى تلك الليلة ـ الليلة الصيفية الرائعة فى ضوء القمر، ونحن فى الشرفة المبللة المطلة على البحر و«جوستين» تضغط راحتها الدافئة على فمى لتوقفنى عن الكلام وتقول شيئًا من هذا القبيل، «أسرع، فطسنى، دعنا ننته منها، من الرغبة إلى قمة اللذة». ويبدو أنها كانت قد نالتنى فى خيالها. إلا أن الكلمات قيلت بدرجة كبيرة من الإعياء والمذلة، من كان فى وسعه أن يمتنع عن حبها؟».

«إنه لعبث أن أسرد كل هذه الكلمات وهى وسيلة غير مستقرة. إننى أتذكر زوايا وحواف لقاءات عديدة، وأرى «جوستين» مركبة تخفى نهمًا جامحًا للمعرفة، للقوة من خلال الخبرة الذاتية، تحت مظهر من العاطفة. وللأسف فإننى منساق للتفكير فى حيرة إذا ما كنت قد حركت عواطفها على الإطلاق، إذ إننى لم أكن بالنسبة لها غير حقل تجارب تستطيع أن تعمل فيه. لقد تعلمت منى الكثير: تعلمت أن تقرأ وأن تتألم، أشياء لم تدركها من قبل. وربما ما أخذته أنا مأخذ الحب لم يكن غير افتتان. ففى مكان ما، بين الآلاف المنبوذة من الناس، والانطباعات، وموضوعات الدراسة، كنت أرى نفسى منجرّاً مع التيار، طافيًا، مادّاً ذراعى. ومن الغريب حقّاً أن لقائى الحقيقى بها لم يكن فى ثوب العاشق ولكن فى ثوب الكاتب. هنا تصافحت أيدينا فى هذا العالم الذى لا يتقيد بخلق. عالم الأحكام المؤجلة، حيث يبدو الفضول والتساؤل أعظم من النظام ـ النظام المنطقى الذى وضعه العقل ـ هنا حيث ينتظر المرء فى صمت، ممسكًا أنفاسه وإلا شاب لوح الزجاج غمامة. لقد سهرت عليها بهذا النهج. فقد غدوت مجنونًا بحبها.

«كانت لها بالطبع أسرار كثيرة، فقد كانت ابنة حقيقية «للموسوية». وكان على أن أمنع نفسى بشدة من الغيرة أو الرغبة فى اقتحام الجزء الذى تخفيه من حياتها. ولقد نجحت على وجه التقريب فى هذا، وإن قمت بالتجسس عليها، فقد كان ذلك والحق يقال، من باب حب الاستطلاع لأعرف ماذا تفعل أو فيما تفكر عندما لا نكون معًا. كان هناك على سبيل المثال امرأة فى المدينة كانت تزورها فى غالب الأحيان، وكان لهذه المرأة تأثير عميق عليها حتى إننى بدأت أرتاب فى وجود علاقة محرمة بينهما، كذلك كان هناك رجل تكتب إليه رسائل مطولة، رغم أنه فى حدود علمى كان مقيمًا بالمدينة. ربما

كان طريح الفراش؟ . ولقد قمت ببعض التحريات، إلا أن جواسيسى كانوا يعودون إلىّ على الدوام بمعلومات غير ذات بال . كانت المرأة عرافة، أرملة متقدمة فى السن . واتضح أن الرجل الذى كانت تكتب إليه - ويصر قلمها وهو يجرى على الورق الرخيص - طبيب يشغل وظيفة بسيطة فى قنصلية محلية وتحتل هذه الوظيفة جزءًا من وقته . كان شاذًا من الناحية الجنسية، إلا أنه لم يكن سلبيًا، وكان له بعض اهتمامات الهواة بالفلسفة «الهرمزية» التى غدت الآن شائعة للغاية . ولقد تركت على نشافتى ذات مرة آثارًا واضحة غاية الوضوح، واستطعت أن أقرأها فى المرآة (المرآة مرة أخرى!) : - «إن حياتى هناك جرح لا يندمل كما تسميها، إننى أسعى كى أجعلها مليئة بالناس، والأحداث، والأمراض، بأى شىء فى متناول يدى . إنك على حق عندما تقول : إن هذا مبرر لحياة أفضل، لحياة أكثر حكمة . ولكنى فى الوقت الذى أحترم فيه مبادئك ومعرفتك أحس أنه إذا كان علىّ أن أصل إلى علاقة طيبة مع ذاتى، فعلى أن أعمل من خلال الصدأ القائم فى نفسى وأحرقه . إن أى إنسان فى وسعه أن يحل مشكلتى بطريقة زائفة، وذلك بأن يضعها فى حجر قسيس . ولكننا أبناء «الإسكندرية» نعتز بأنفسنا أكثر من ذلك . ونحترم الدين أكثر من ذلك . إنه لن يكون عملاً عادلاً تجاه الرب، يا سيدى العزيز، فمهما خذلت غيره (أراك تبتسم) فإننى مصممة على ألا أخذله كائنًا ما كان» .

«وبدا لى حينذاك، أنه لو كان هذا الكلام جزءًا من خطاب غرامى فإنه من نوع الخطابات التى لا يخاطب بها المرء إلا قديسًا، ومرة أخرى ذهلت من البساطة التى تمكنها من التفريق بين أفكار الأنواع المختلفة من البشر، رغم أن الكتابة غير متقنة ورغم ما بها من أخطاء . وبدأت أراها فى ضوء مختلف، أراها كإنسانة يمكن أن تحطم نفسها عن طريق

مزيد من شجاعة موجهة توجيهًا خاطئًا، وأن تخسر السعادة التى ترغبها، مثلنا جميعًا، ولا تعيش إلا لكى تحظى بها، هذه الأفكار كان لها أثرها فى تعديل حبى لها. وبدأت أحس أحيانًا بنفسى وقد امتلأت بالتقزز منها. ولكن ما أخافنى هو إدراكى السريع الذى أصابنى بالهلع بأننى لا أستطيع العيش بدونها. وحاولت، قمت برحلات قصيرة بعيداً عنها. ولكنى وجدت الحياة بدونها مليئة بضجر قاتل لا يمكن احتماله بحال من الأحوال. لقد وقعت فى حبها وملأتنى تلك الفكرة بيأس وتقزز لا تفسير لهما. بدا الأمر وكأنى قد أدركت دون وعى منى، بأننى قد قابلت فيها الجانب الشرير من نبوغى. أن آتى إلى «الإسكندرية» خالى الفؤاد وأن أجد حبّا كالقدر؛ كان كل ذلك ضربة من سوء الحظ لم يكن فى مقدور صحتى أو أعصابى احتمالها.
وذكرت نفسى وأنا أنظر فى المرآة بأننى قد تجاوزت الأربعين وبأن شعرة بيضاء أو شعرتين قد نبتتا فى سوالفى! لقد فكرت ذات مرة فى محاولة إنهاء هذه العلاقة، ولكن قراراتى كانت تنهار مع ابتسامة أو قبلة من «جوستين»، ومع ذلك فإن الإنسان يحس وهو معها بأنه محاط بصحبة من الخيالات التى غزت حياته وملأتها بأصداء جديدة.
إنِ الشعور بأن المرء غارق فى المعميات لا ينتهى بتصرف إرادى مفاجئ. كنت أحس فى بعض الأحيان بأنها امرأة، كل قبلة منها ضربة تقرب الإنسان من قبره، كما حدث مثلاً عندما اكتشفت (ما كنت أعرفه) أنها كانت تخوننى بشكل متصل وفى أوقات كنت أعتقد أننى أقرب ما يكون إليها. وبشكل عام لم أحس بشىء مثير للغاية، كان إحساسى نوعًا من الخدر يغوص بى كذلك الذى يحسه المرء وهو يفارق صديقًا فى مستشفى، ثم يدخل المصعد ويهبط ستة طوابق فى صمت، واقفًا إلى جوار رجل كالآلة يرتدى الزى الرسمى ويتنفس فى

صوت مسموع. لقد أصابنى صمت حجرتى بالصمم. ثم جمعت فكرى فيما بعد ـ بينما كنت أقدح الذهن فى هذا الأمر، حول الحقيقة التى أدركتها وهى أن ما فعلته هى لا يمت بصلة إلىّ. لقد كانت محاولة منها لتحرير نفسها من أجلى كى تعطينى ما تعرف أنه ملك لى. ليس فى وسعى أن أقول: إن هذا الفكر كان له صدى يفضل السفسطة بأية حال. ومع ذلك فقد بدا أن قلبى يعرف حقيقة هذا وأنه يملى علىّ أن أصمت صمتًا مؤقتًا كانت تستجيب له «جوستين» بدفء جديد وحرارة جديدة وامتنان يضاف إلى الحب. ومرة أخرى أثار هذا تقززى بعض الشىء.

«آه، لو كنت رأيتها كما كنت أراها أنا حينئذ فى لحظات تواضعها ورقتها، متذكرًا أنها لم تكن أكثر من طفلة، لما لمتنى فى جبنى. كانت تبدو فى الصباح الباكر، وهى نائمة بين ذراعى، وقد تناثر شعرها الباسم، كمخلوق بدائى رائع، أمسك به فى عصر تطوره «البليستوسينى»، لم تكن تشبه أية امرأة عرفتها: إنها فى الحقيقة لم تكن تشبه أية امرأة أخرى على الإطلاق. ولقد دهشت فيما بعد عندما فكرت فيها مرة أخرى كما فعلت وكما كنت أفعل خلال تلك السنوات القليلة الماضية، إذ وجدت أنه رغم حبى لها بكل كيانى ورغم إدراكى بأنى لن أحب أية واحدة أخرى، إلا أننى كنت أخشى إمكانية عودتها إلىّ. لقد تعايشت الفكرتان فى عقلى دون أن تحل الواحدة منهما مكان الأخرى. وقلت لنفسى وأنا أفكر بارتياح: «حسنًا لقد أحببت فى نهاية الأمر حبّا صادقًا. لقد حققت شيئًا». وقد أضاف الجانب الآخر من ذاتى، ارحمنى من وخزات حب معادة مع «جوستين»، ولقد وجدت أن هذا الاستقطاب الغامض فى المشاعر شىء لم أكن أتوقعه على الإطلاق. وأنه إذا كان هذا هو الحب إذن فقد كان نوعًا من النبات الذى

لم أره البتة من قبل. ولقد قالت «جوستين» ذات مرة: «اللعنة على تلك الكلمـــات، التى أود أن ألقى بهــا إلى الخلف مــثلمــا ألقى «الإليزابيثيـون» كما تقول أنت الرب. سمها تطوراً أو سمها ثورة. ولكن لا تستخدمها معى البتة».

* * *

إن هذه المقتطفات الأخيرة قد انتقيتها من القسم المسمى «حياة ما بعد الموت» وهى محاولة يقوم بها المؤلف لتلخيص وتقييم تلك الأحداث. ويجد «بومبال» أن الكثير من هذه الأحداث تافه وكئيب، ولكن كيف يمكن لمن يعرف «جوستين» إلا أن يتأثر بها؟ كذلك لا يمكن القول، بأن غايات الكاتب ليست مشحونة بما يشدّ الانتباه. إنه يؤكد، على سبيل المثال، أن الناس الحقيقيين لا يمكن أن يوجدوا إلا فى مخيلة فنان لها من القوة ما يمكنها من احتوائهم ثم تشكيلهم. «إن الحياة، وهى المادة الخام لا تعاش إلا بصورة كامنة حتى ينشرها الفنان فى عمله. فهل سيكون فى وسعى أن أقوم بهذه الخدمة من أجل حب «جوستين» البائسة؟». (أقصد بالطبع كلوديا). «إننى أحلم بكتاب قوى حتى إنه يحتوى كل عناصرها. إلا أنه لن يكون من نوع الكتب التى تعودنا عليها فى هذه الأيام. سيوجد فى الصفحة الأولى مثلاً ملخص للرواية فى سطور قليلة. وبذا يمكن الاستغناء عن التفصيل الروائى. ثم يتبع ذلك دراما تحررت من عبء الشكل، سأطلق كتابى يحلم كما يشاء».

ولكن المرء بالطبع لا يستطيع أن يهرب فى بساطة من النموذج الذى يعتبره مفروضًا عليه، مع أنه فى الحقيقة ينمو نموّا عضويّا من داخل العمل ذاته ويسيطر عليه. إن ما يفتقده عمله - وهذا نقد لكل

الأعمال التى لم ترتق إلى القمة ـ هو الإحساس بالدراما. إنه يحمل فى عنف على مادة موضوعه، مما يصيب أسلوبه ببعض من ضراوة «كلوديا» غير المتزنة. وبالتالى يقوم كل شىء على العاطفة ويتساوى فى الأهمية لديه: إشارة تصدر عن «كلوديا» بين أشجار «الدفلى» فى «النزهة»، الموقد الذى أحرقت فيه مخطوط روايته عنها، «ولأيام كانت تنظر إلىّ كأنها تحاول قراءة كتابى فى وجهى». الحجرة الصغيرة فى شارع «ليبسيوس» بكرسيها الخيزرانى الذى «يزيق»... إنه يقول عن شخصياته: «إنها جميعًا مقيدة بالزمن فى بعد هو ليس فى الواقع ما كنا نبغى أن تكون عليه ولكن احتياجات العمل هى التى تخلقه، فالدراما تخلق القيد دائمًا، ولا تكون للمثل أهمية إلا بالقدر الذى يلتزم به».

غير أننا لو وضعنا تلك التحفظات جانبًا لوجدنا أنه قد عمد إلى نقل صورة غاية فى الرقة والدقة عن «الإسكندرية»، «الإسكندرية» ونسائها. إننا نجد هنا رسومات لـ «ليونى»، «جابى»، «وفوسكا» ـ الرسومات الوردية الفاتحة اللون، والذهبية، والسوداء فى لون القار. وفى وسع المرء أن يتعرف بسهولة شديدة إلى بعض الشخصيات فى صفحاته. «كليا» والتى لا تزال تعيش فى هذا المرسم المرتفع، عش عصفور الجنة المصنوع من نسيج العنكبوت والأقمشة القديمة ـ لقد رسمها دون أن يخطئها. غير أن هؤلاء الفتيات الإسكندرانيات لم يتميزن فى أغلب أجزاء الكتاب عن غيرهن من النساء فى أماكن أخرى، إلا بوفائهن الذى يبعث الرعب فى النفس وبضجرهن من هذا العالم.

إنه كاتب على جانب من القدرة؛ مكنه من أن يستخرج تلك

الصفات الحقيقية لمدينة «السوما». إن المرء لا يتوقع المزيد من المواهب من دخيل اخترق قشرة «الإسكندرية» الصلبة عن طريق يكاد أن يكون خاطئًا ثم اكتشف نفسه.

أما عن «جوستين» ذاتها، فهنالك بعض الإشارات القليلة - إن كان هناك ثمة إشارات - عن الأرناؤوطى فى الصفحات المغلقة المعانى بصورة كبيرة فى يومياتها. لقد اقتفيت أثر الحرف(ا) هنا وهناك. ولكنى غالبًا ما عثرت عليه فى الفقرات الزاخرة بالتأمل النفسى الخالص، وها هى واحدة يمكن أن تبدو المطابقة فيها مقبولة:

«لقد كانت حجرة (ا) هى أول ما شدنى إليه. كان يبدو لى دائمًا أن هناك ضوضاء تجرى وراء مصاريع النوافذ الثقيلة. الكتب ترقد فى كل مكان، غلافها مقلوب أو مغطى بورق الرسم الأبيض، كأنما لتخفى عناوينها. كومة هائلة من الجرائد المليئة بالثقوب، وكأن حشدًا من الفيران قد اتخذها ولائم له، قصاصات (ا) من «الحياة الواقعية» كما كان يسميها، اقتباسات يحس أنها تبعد كل البعد عن حياته هو: كان يجلس إلى جرائده وكأنه يجلس إلى المائدة وقد ارتدى رداء منزليًّا مرقعًا ولبس شبشبًا من القطيفة، يقص الجرائد بزوج من مقصات الأظافر الثالمة. إنه يشغل باله «بالحقيقة» فى العالم خارج نطاق عمله بطريقة مربكة كما لو كان طفلاً. إنه مكان يمكن أن يسعد فيه الناس، وأن يضحكوا، وأن يتناسلوا».

إن عددًا قليلاً من تلك الخطوط يشكل كل صورة مؤلف «عادات». ويبدو هذا الأمر كجزء تافه ومخيب للآمال، لمثل هذا العمل الجاد العامر بالحب. كما أنى لم أستطع العثور على كلمة واحدة عن فراقهما بعد هذا الزواج القصير غير المثمر. غير أنه كان مثيرًا أن ترى من كتابه كيف أصدر

نفس الأحكام التى كان علىّ أنا و«نسيم» أن نصدرها عليها فيما بعد. لقد كانت قدرتها على انتزاع امتثالنا لها أمرًا يثير العجب، وكأنما كان الرجال يعرفون للحال أنهم أمام امرأة لا يحكم عليها بالمقاييس التى استخدموها حتى الآن عندما يفكرون فى النساء. لقد قالت «كليا» عنها ذات مرة (من النادر - إن لم يكن من المستحيل - أن تكون أحكامها متسامحة): «إن البغى الأصيلة هى حبيبة الرجل الحقيقية - مثل «جوستين»، إنها وحدها التى تملك القدرة على أن تجرح الرجال. غير أن صديقتنا بالطبع ليست إلا نسخة ضحلة من إنتاج القرن العشرين لمحظيات الماضى العظيمات، إنها تنتمى دون أن تدرى، لـ «لايس» و«شاريس» والباقيات... إن دور «جوستين» قد أخذ منها، ليضع المجتمع على كاهليها عبء الخطيئة حتى يضاف إلى ما تعانيه من متاعب. إنه لأمر يثير الشفقة. فـ«جوستين» ابنة حقيقية لـ «الإسكندرية».

ولقد بدا «لكليا» أيضًا أن كتاب «الأرناؤوطى» الصغير عن «جوستين» سطحى ومصاب بداء الرغبة فى شرح كل شىء. قالت: «إننا مصابون بمرض الرغبة فى احتواء كل شىء فى إطار من الاستدلال النفسى أو الفلسفى. ورغم كل شىء لا يمكن أن تبرر أعمالها أو أن تقدم الأعذار عنها. إنها فى بساطة وروعة كما هى، وعلينا أن نحتملها كما نحتمل الخطيئة الأصيلة. أما أن تقول، يا عزيزى، إنها مصابة بالهوس الجنسى السحاقى، أو أن نحللها على طريقة «فرويد»، فإننا بذلك ننتزع منها كل مادتها الأسطورية، ننتزع الشىء الوحيد الذى تتكون منه عن حق وصدق. إنها تكاد أن تكون إلهة مثل كل أولئك الناس الذين لا يلتزمون بالقيم الأخلاقية. فلو أن عالمنا كان عالمًا حقيقيًا لوجدت المعابد التى تهيئ لها ما تنشده من راحة. معابد ليست كتلك الأديرة الملعونة المليئة بالشبان الكاثوليك الصغار الذين ملأت البثور

أجسادهم والذين امتطوا أعضاءهم التناسلية كما يمتطى المرء مقعد الدراجة».

كانت تفكر فى الفصول التى وضعها «الأرناؤوطى» تحت عنوان «الحائل» والتى يعتقد فيها أنه قد عثر على الدليل الذى يقوده إلى فهم سر تقلب قلب «جوستين». ربما كانت تلك الفصول ضحلة كما تقول «كليا»، غير أنها تستحق الاحترام، فكل شيء يحتمل أكثر من تفسير واحد. أما أنا فلا أعتقد أنها تفسر لنا تصرفات «جوستين»، ولكنها إلى حد ما تلقى بعض الضوء على تلك التصرفات، على تلك الرحلات الطويلة التى قاما بها معًا وقطعا فيها أوروبا طولاً وعرضًا. كتب يقول: «كانت فى ذروة انفعالها العاطفى» ويضيف هنا جملة عرضية (وانفعالها العاطفى هو أسهل ما فى وسعها أن تهب) «مانع يحول دون استمتاعها، حائل ضخم من المشاعر بدأت أحس وجوده بعد عديد من الشهور. لقد وقف بيننا كشبح، وأدركت أو اعتقدت أننى قد أدركت العدو الحقيقى لسعادتنا التى تُقنا لأن نتقاسمها والتى نحس أننا محرومان منها على نحو ما. ما هو هذا المانع؟».

«لقد أخبرتنى ذات ليلة ونحن راقدان على ذلك السرير الضخم البشع فى حجرة مؤجرة، حجرة كئيبة مستطيلة لها شكل ونكهة ورائحة فرنسية شرقية غامضة، سقفها المصنوع من المصيص مغطى بصور متآكلة للملائكة ونقوش على شكل أوراق العنب. أخبرتنى وتركتنى أحترق بغيرة جاهدت أن أخفيها، غيرة من نوع جديد لم أعهده فى نفسى من قبل. لقد كانت غايتها رجلاً لم يعد له وجود فى حياتها رغم أنه ما زال يحيا. ربما كان ما يسميه أنصار «فرويد» ستار ذاكرة الأحداث التى وقعت لها فى صباها المبكر. (لم يكن هناك أدنى

افتعال لإضفاء أية قوة على هذا الاعتراف، فقد كان مصحوبًا بفيضان من الدموع، ولم أكن قد رأيتها تبكى مثل هذا البكاء من قبل أو من بعد) لقد اغتصبها واحد من أقاربها. إن المرء لا يستطيع أن يمنع نفسه من الابتسام لتفاهة الفكرة. كان من المستحيل أن يقدر المرء عمرها حينما اغتصبت. ومع ذلك، فقد اعتقدت أنى قد نفذت إلى صميم هذا الحائل: لأنها منذ ذلك الوقت وما تلاه لم يعد هناك ما يشبعها فى العشق ما لم يعد فى ذهنها خلق تلك الأحداث وتمثيلها. لم نكن نحن عشاقها - غير البديل الذهنى لهذا الحدث الأول فى طفولتها - وبذا اتخذ الحب، كشكل من أشكال ممارسة العادة السرية، كل ألوان النورستينيا (ضعف الأعصاب) كانت تعانى من تخيل يحتضر لشدة ضعفه؛ لأنه لم يكن فى وسعها أن تمتلك جسد أى رجل امتلاكًا كاملاً. لم يكن فى وسعها أن تحوز لنفسها الحب الذى تحس أنها محتاجة إليه، لأن إشباع نزواتها كان ينبع من الزوايا الغامضة لحياة لم تعد تحياها.

لقد كان هذا أمرًا مثيرًا من الناحية العاطفية، غير أن ما كان أكثر تسلية هو أننى أحسست بتلك اللطمة الموجهة لكرامتى كرجل. وكأنما قد اعترفت لى عن عمد بخيانتها. ماذا! أفى كل مرة نامت بين ذراعى لم تجد أى إرضاء لها إلا من خلال تلك الذكرى؟ إذن، وعلى نحو ما، لم يكن فى وسعى أن أنالها: بل إننى لم أنلها على الإطلاق، لقد كنت مجرد دمية. وحتى الآن - وبينما أكتب هذا - فإننى لا أستطيع أن أمنع نفسى من الابتسام عندما أتذكر الصوت المختنق وأنا أسألها عمن يكون الرجل. وأين هو (ماذا كنت آمل أن أفعل؟ أن أتحداه إلى مبارزة؟). ومع ذلك فقد كان هناك، واقفًا بالتمام بينى وبينها، بين «جوستين» وشعاع الشمس.

«غير أننى هنا أيضًا كنت طليقًا إلى الحد الذى جعلنى ألحظ إلى أى مدى يتغذى الحب على الغيرة، لأنها كامرأة بعيدة عن متناولى رغم أنها بين ذراعى، قد غدت مشتهاة ولازمة لى عشر مرات أكثر من ذى قبل. لقد كانت ورطة محزنة لرجل لم يكن ينتوى أن يقع فى الحب، ولامرأة لم تكن ترغب إلا فى أن تتحرر من فكرة مسيطرة عليها، وتنطلق لتحب. ومن هنا نبع شىء آخر.

لو استطعت أن أحطم هذا الحائل لغدا فى وسعى أن أنالها بحق، أن أنالها كما لم ينلها إنسان آخر من قبل. كان فى وسعى أن أخطو مكان الشبح وأتلقى قبلاتها بحق، لأنها الآن تتساقط على جثة. يبدو لى، أننى قد أدركت كل شىء.

إن هذا ليفسر الجولة الكبيرة التى قمنا بها، وأيدينا المتشابكة لغة متبادلة، حتى نتغلب على هذا الشبح بمساعدة العلم. لقد زرنا معًا صومعة «تشكنيا» المملوءة بأرفف الكتب، حيث جلس العالم النفسانى المشهور يحملق فى نماذجه وهو شاحب اللون. «بازل»، «زيورخ»، «بادن»، «باريس» - هدهدة قضبان الصلب السريعة فوق شرايين أوروبا: عصب من الصلب يلتقى ويتفرق عبر الجبال والوديان. ويلتقى المرء، بوجهه فى مرايا قطار الشرق السريع المليئة بالصدأ. لقد حملنا مرضها فوق أوروبا جيئة وذهابًا كما يحمل طفل فى أرجوحة إلى أن بدأ اليأس يتسرب إلى نفسى، بل وحتى بدأت أتخيل أن «جوستين» نفسها ربما تكون راغبة عن الشفاء. لأنها قد أضافت إلى ذلك الحائل النفسى اللاإرادى حائلاً آخر ينبع من إرادتها. إننى لا أستطيع أن أفهم لماذا يجب أن يحدث كل شىء، إلا أنها لن تخبر أحدًا باسمه، باسم هذا الشبح. اسم يمكن أن يعنى بالنسبة لها الآن كل

شىء أو لا شىء. ومع ذلك فإنه يوجد فى مكان ما من العالم وقد أخذ شعره يتساقط ويبيض من متاعب الأعمال والإفراط فى كل شىء. إنه يضع على إحدى عينيه عصابة سوداء كما يفعل دائمًا كلما أصيب بالرمد. إن كان فى وسعى أن أصفه لك؛ فإنما يرجع ذلك إلى أنى قد رأيته بالفعل ذات مرة. لقد اعتادت «جوستين» أن تصرخ، «لماذا أخبر الناس باسمه؟ إنه لا شىء بالنسبة لى الآن ـ ولم يكن أى شىء فى يوم من الأيام. لقد نسى تمامًا تلك الأحداث. ألا ترى أنه ميت بالنسبة لى؟ وعندما أراه. . . » وأحسست كأن حية قد لدغتنى. إذن «فأنت ترينه». وتراجعت إلى موقف أكثر أمنًا، «أراه عابرًا فى الطريق مرة كل بضع سنوات قليلة. إننا لا نفعل أكثر من الإيماء بالتحية».

«إذن فهذا المخلوق، هذا النمط الدارج من البشر، ما زال يتنفس، ما زال يعيش! ما أعجب الغيرة وما أدنأها. غير أن الغيرة النابعة من خيال العاشق تنتهى إلى أن تكون أمرًا مثيرًا للسخرية.

ثم حدث ذات مرة يوم فى قلب «القاهرة»، خلال زحام المرور فى منتصف ليلة صيف كان الحر فيها خانقًا، أن توقفت سيارة أجرة بجوار «التاكسى» الذى كنا نركبه، وشد انتباهى شىء من التعبير الذى كان على وجه «جوستين» فنظرت فى اتجاه نظراتها. ورأت عيناى، فى هذا الحر اللاهث الرطب، المثقل بالندى المتصاعد من النهر فيصيب المرء بالصداع والرائحة النتنة للفاكهة المتعفنة والياسمين وأجساد «السود» التى تسيل عرقًا، رأت عيناى الرجل العادى الجالس فى السيارة الواقفة إلى جوارنا. لم يكن هناك ما يميزه عن الألف الآخرين من رجال الأعمال القذرين المشوهين بهذه المدينة الفظيعة غير العصابة السوداء الموجودة على إحدى عينيه. كان شعره خفيفًا ومنظر وجهه الجانبى حادًا، وعينه

تشبه الخرزة: كان يرتدى حلة صيفية رمادية اللون. وكان تعبير الحيرة والعذاب المرتسم على وجه «جوستين» واضحًا حتى إنى صرخت دون أن أدرى، «ما الأمر»؟. وعندما ارتفعت إشارة المرور وأخذت السيارة فى السير أجابت وفى عينيها يلمع نور غريب، فيه شىء من جرأة السكارى، «هذا هو الرجل الذى تسعون جميعًا لمعرفته» غير أنى كنت قد أدركت الأمر قبل أن تخرج الكلمات من شفتيها فأوقفت السيارة التى نركبها، وقفزت إلى الشارع كما لو كنت أعانى كابوسًا. ورأيت ذيل الضوء الأحمر فى مؤخرة التاكسى الذى يركبه بينما يدخل شارع «سليمان باشا»، كان بعيدًا عنى للغاية، حتى إنى لم أتمكن من تمييز لون السيارة أو رقمها. كان من المستحيل مطاردتها، فقد اشتد زحام المرور خلفنا مرة أخرى. وعدت إلى التاكسى أنتفض ولا أنطق شيئًا. إذن فهذا هو الرجل الذى سعى «فرويد» لمعرفة اسمه مستخدمًا كل المقدرة الهائلة لأسلوبه الموضوعى المحبب إلى النفس. لقد رقدت «جوستين» من أجل هذا الرجل البرىء المتوسط العمر متوترة، كل عصب من أعصابها مشدود وكأنه على وشك الانفلات، بينما صوت «مانيانى» الرفيع القاسى يعيد مرة بعد أخرى «أخبرينى باسمه، يجب أن تخبرينى باسمه» بينما صوتها القادم من عالم الرؤى المنسية - حيث ترقد ذاكرتها - يردد كعراف من عصر الآلة «لا أستطيع أن أتذكر، لا أستطيع أن أتذكر».

«وبدا واضحًا لى حينذاك أنها هى التى لا ترغب بشكل إرادى فى التغلب على هذا الحائل، وبالطبع فإن قوة كل الأطباء لن تغريها بذلك. لقد كان الأمر هكذا دون تزييف، إنها ترقد هنا مصابة بالهوس الجنسى السحاقى كما أكد لى هؤلاء السادة المبجلون. كنت أقتنع فى بعض الأحيان بأنهم على صواب، وكنت أشك فى ذلك أحيانًا أخرى، ومع ذلك فقد كان مثيرًا لى أن أرى العذر الذى يبرر سلوكها، وهو أن كل رجل ضاجعته

كان يحمل لها فرصة انعتاق عواطفها، انعتاقها من ذلك الانغلاق الخانق؛ حيث لا يتغذى الجنس إلا على شعلات الوهم المنتفخة.

«ربما أخطأنا بالحديث صراحة فى هذا الأمر، بتناوله كمشكلة، إذ لم يقدم هذا شيئًا إلا أن أعطاها شعوراً بأهمية ذاتها وأمدها فوق ذلك بحالة من القلق العصبى كانت لا تعانيها حتى ذلك الحين. لقد كانت مباشرة فى حياتها العاطفية كالفأس الساقطة على هدفها. كانت تتقبل القبلات كما تتقبل طبقات عديدة للغاية من الطلاء على شفتيها. وفى الحقيقة، فإننى أحس بالحيرة عندما أتذكر الجهد الطويل وأنا أنقب عبثًا عن مبرر يمكن أن يجعل خروجها على القيم الخلقية مفهومًا على الأقل إن لم يكن مقبولاً. إننى أدرك الآن كثرة الوقت الذى ضيعته فى هذا السبيل، بدلاً من التمتع بها، والخروج من تلك المشاغل بفكرة، «إنها لا تستحق الثقة بقدر ما هى جميلة. إنها تتقبل الحب فى بساطة ودون تفكير، كما يتقبل النبات الماء» وحينئذ كان فى وسعى أن أسير وذراعى يتأبط ذراعها قرب القناة العفنة، أو نبحر فوق المياه السابحة فى الشمس، أتمتع بها كما هى، وأتقبلها كما هى. أى قدرة رائعة نمتلكها نحن الكتاب كى نحتمل التعاسة. إننى لا أعرف إلا أن هذا الفحص الطويل الموجع لـ «جوستين» لم ينجح إلا فى أن يجعلها أقل ثقة بذاتها، كذلك أكثر ممارسة للخيانة عن وعى، والأسوأ من كل هذا، أنها بدأت تنظر إلىّ كعدو يتربص أقل هفوة، أقل كلمة أو إشارة يمكن أن تفضحها، وضاعفت يقظتها للدفاع عن نفسها، وأخذت تتهمنى بأننى أغار غيرة غير محتملة. ربما كانت على صواب. إننى أتذكرها وهى تقول: «إنك تعيش الآن وسط علاقاتى العاطفية الخيالية، لقد كنت غبية عندما صارحتك بكل شىء، عندما كنت صريحة معك إلى هذا الحد. انظر إلى الطريقة التى تسألنى بها الآن. إنك تكرر نفس الأسئلة منذ عدة أيام. ثم تنقض علىَّ لأقل تناقض فى

كلامى. وأنت تعرف أننى لا أحكى نفس القصة بنفس الطريقة مرتين. فهل يعنى هذا أننى أكذب؟».

«ولم يثر، هذا القول منها حذرى، فضاعفت محاولاتى لاختراق الستار الذى اعتقدت أن غريمى يقف خلفه، وعصابة سوداء فوق إحدى عينيه. كنت لا أزال أراسل «مانيانى» وأحاول تجميع أكبر قدر ممكن من الأدلة والتى ربما كانت تساعده فى تفسير هذا اللغز، ولكن بلا جدوى. فمن فى وسعه أن يجد طريقًا فى ذلك الدغل الكثيف الذى تكونه بواعث الخطيئة والذى يشكل نفسية الإنسان - حتى عندما يكون صاحب المشكلة راغبًا فى التعاون؟ كم كنا لهونا معًا لو كانت «جوستين» تنعم بالقدرة على الملاحظة، بدلاً من الوقت الذى ضيعناه فى بحوث لا طائل تحتها فيما تحب وما تكره. إننى أتذكر رسالة كاملة بنيتها على اعتراف منها بأنها لم تكن تقرأ الكلمات «واشنطن د. ك» الموجودة فوق أى خطاب إلا وتحس بالتقزز والاشمئزاز. إنه لأمر آسف عليه الآن أشد الأسف، فقد ضيعت هذا الوقت بينما كان على أن أستمتع بحبها كما تستحق. ولابد أن بعض هذه الشكوك قد أصابت «مانيانى» العجوز أيضًا فإننى أتذكره وقد كتب إلىّ قائلاً: يجب ألا تنسى يا عزيزى الصغير أن هذا العلم الوليد الذى نعمل به، والذى يبدو مليئًا بالمعجزات والآمال، قد قام فى أحسن الأحوال على غالبية من القواعد المزعزعة، مثله فى ذلك مثل علم التنجيم. ومع ذلك، فإن تلك الأسماء الهامة التى نطلقها على الأشياء مثل «الهوس الجنسى السحاقى» ربما يعتبر صيغة أخرى، إن شئت، للعذرية، أما بالنسبة لـ«جوستين» فإنها ربما لم تقع فى الحب على الإطلاق. وربما جاء يوم تلتقى فيه برجل تتساقط أمامه كل تلك الأوهام المرهقة وتنتهى إلى أن تكون بريئة مرة أخرى. يجب عليك ألا تستبعد هذه الفكرة، بالطبع لم يكن يحاول إيلامى لأنها كانت فكرة لا أبالى

بالاعتراف بها لنفسى. غير أنها نفذت إلى أعماقى عندما قرأتها فى خطاب هذا الرجل العجوز الحكيم».

* * *

لم أكن قد قرأت تلك الصفحات من كتاب «الأرناؤوطى» حتى قبل ذلك الأصيل فى «برج العرب» عندما تقرر مستقبل علاقتنا بدخول عنصر جديد. إننى لا أجرؤ على استخدام كلمة الحب، خشية أن أسمع بخيالى تلك الضحكة الخشنة العذبة! ضحكة يمكن أن يكون كاتب اليوميات قد ردد صداها فى مكان ما. وللحقيقة فقد وجدت أنه قد حلل موضوعه تحليلاً يخلب الألباب، ووجدت أن علاقتنا كانت صدى يتردد عن قرب للعلاقة التى تمتع هو بها مع «جوستين»، حتى إننى أحس فى بعض الأحيان وكأنى شخصية من شخصيات «عادات». وفضلاً عن ذلك، فهأنذا، أحاول أن أقوم بنفس الشيء معها مستخدمًا الكتابة، رغم أنى لا أمتلك مقدرته ولا أزعم لنفسى أية ادعاءات تعنى أننى فنان. إننى أود أن أضع الأشياء فى بساطة وكما هى، دون تنسيق أو تنميق. يجب أن تغطى المواد المستخدمة فى صورة «جوستين» بخطوط ترسم فى أمانة ما تعانيه من تعاسة.

لم نلتق لفترة قصيرة بعد حادث الشاطئ، فقد أصيب كلانا بدوامة من التردد، أو على الأقل كنت أنا كذلك. واستدعى «نسيم» إلى «القاهرة» لأمور تتعلق بالعمل، ورغم أن «جوستين» - حسبما أعرف - كانت فى المنزل بمفردها، إلا أننى عجزت عن أن أحمل نفسى على زيارة المرسم. وبينما كنت عابرًا ذات مرة سمعت عزف البيانو وكاد أن يحملنى الإغراء على دق الجرس. فقد كانت صورتها وهى جالسة إلى البيانو الأسود بملامحها المحددة واضحة

فى خيالى. ومرة أخرى بينما كنت أسير - فيما بعد - قرب الحديقة رأيت شخصًا ما، لابد أنه كان لـ «جوستين» - يسير قرب بركة الزنابق، يظلل شمعة براحة يده. ووقفت مترددًا للحظة أمام البوابة الكبيرة حائرًا أأدق الجرس أم لا أدقه؟ وكانت «ميليسا» قد انتهزتها فرصة لزيارة صديقة لها فى الصعيد. كان الصيف يحث الخطا، والحر يكتم أنفاس المدينة وأنا أتوجه للاستحمام كلما سمح وقتى بذلك، متخذًا ذلك الترام الصغير الذى يشبه العلبة، وسيلتى فى الانتقال إلى الشواطئ المزدحمة.

ثم حدث ذات يوم بينما كنت راقدًا على سريرى أعانى من ارتفاع فى درجة الحرارة بسبب جرعة من الشمس أكثر مما أحتمل، أن دخلت «جوستين» فى هذا الهدوء الرطب لشقتى الصغيرة، مرتدية ثوبًا وحذاء أبيض، وتحمل تحت إبطها حقيبة يدها وبشكيرًا ملفوفًا، وقد تألق فى سرعة آسرة، بهاء جلدها وشعرها السمراوان من خلال كل هذا اللون الأبيض. وعندما تكلمت كان صوتها فظًا مهتزًا. وبدا للحظة كأنها كانت سكرى، ربما كانت بالفعل كذلك. وأخرجت إحدى يديها وأسندتها إلى المدفأة وهى تقول: «إننى أود أن أضع حدًا لكل هذا بأكبر سرعة ممكنة. إننى أعتقد أننا قد تمادينا إلى الحد الذى يصعب فيه النكوص». أما بالنسبة لى فقد شعرت بنوع رهيب من انعدام الشهوة يستنفد طاقتى، وآلام مبرحة فى الجسد والعقل تمنعنى من أن أقول شيئًا أو أفكر فى شىء. لم يكن فى وسعى أن أتصور مضاجعتها، بالنسيج العاطفى الذى نسجه كل منا حول الآخر - كان على نحو ما - يقف حائلا بيننا نسيج غير مرئى من قيم الوفاء، والآراء، والتردد، الذى لم تكن لدى الجرأة لألقى به جانبًا. وعندما خطت للأمام خطوة قلت فى صوت واهن: «إن هذا السرير فظيع وكريه الرائحة. لقد كنت أسكر.

حاولت أن أمتع نفسى بنفسى لكننى فشلت، لقد ظللت أفكر فيك».
وأحسست بنفسى وقد شحب لونى بينما أنا راقد ساكن فوق الوسائد، وفجأة أحسست بالصمت المخيم على الشقة الصغيرة، وقد مزقته قطرات من صنبور يرشح الماء فى أحد الأركان. ونهقت سيارة أجرة على بعد، ومن الميناء جاء صوت الصفارة فى زفرة واحدة سوداء، كزئير حيوان خرافى مكتوم. وأحسست للتو أننا بمفردنا تمامًا.

كانت الغرفة بكل ما فيها تخص «ميليسا». منضدة الزينة التى تثير الرثاء وقد ازدحمت بعلب المساحيق الفارغة والصور: الستارة الرشيقة تتنفس فى رقة كشراع سفينة فى هواء العصر الخانق. كم رقدنا هنا أنا و«ميليسا» كل فى أحضان الآخر نراقب التأرجحات البطيئة لتلك القطعة الشفافة من الكتان الزاهى. وتحركت «جوستين» بجسدها العارى القاسى عبر كل هذا، كأنما كانت تتحرك عبر صورة المحبوب وقد احتوتها دمعة كبيرة. ولابد أن أكون أعمى حتى لا ألحظ كيف امتزج بالحزن عزمها على أن تنال ما تريد. ورقدنا لفترة طويلة، ينظر كل منا فى عين الآخر، وقد تلامست أجسادنا، لا نكاد نتبادل إلا الشعور الحيوانى بالضجر والذى يبعثه فينا ذلك الأصيل المتلاشى. وعندما ضممتها فى رقة بين ذراعى لم أستطع أن أمتنع عن التفكير حينئذ كيف أننا لا نسيطر على أجسادنا إلا قليلاً. وفكرت فى كلمات «الأرناؤوطى» وهو يقول: «لقد اتضح لى حينذاك، أن هذه الفتاة قد جز شعرها. غير أن الفرنسيين - كما فكرت - يتألمون دون شك عندما يواجهون شيئًا لا يستطيعون الرجوع فيه إلى أحكام مسبقة، ويعود ذلك لما جبلوا عليه من التردد الذى لا نهاية له بين السعادة والأسى. لقد فطروا على البراعة الوقتية وحب الفنون، لكنهم لم يفطروا على المجابهة الدائمة للأمور، إنهم يفتقدون إلى تلك اللمسة البسيطة من

الخشونة والتى تغلف العقل «الأنجلوساكسونى». وقلت لنفسى: «حسنًا، دعها تسير بى إلى حيث تشاء، فإنها ستجدنى ندًا لها. وفى النهاية لن يكون هناك مكان للأحزان». ثم فكرت فى «نسيم»، الذى كان يبدو وكأنه يرقبنا (رغم أنى لم أكن أعرف ذلك) من خلال تلسكوب ضخم مقلوب، كان يرى صورنا الصغيرة بعيدًا هناك على أفق آماله ومشاريعه. كنت متلهفًا على ألا يتألم.

غير أنها كانت قد أقفلت عينيها، إنهما الآن ناعمتان متألقتان كأنما قد صقلهما الصمت الذى يجثم كثيفًا على كل ما حولنا. وغدت أصابعها المرتعشة ثابتة مستريحة فوق كتفى. واستدرنا نحو بعضنا البعض كضلفتى باب تنغلقان على الماضى، وتمنعان كل شىء من الدخول، وأحسست بقبلاتها التلقائية القلبية الهانئة، وقد أخذت تشكل الظلام حولنا وكأنها لمسات متلاحقة من اللون، وقالت بعد أن انتهينا من المضاجعة ورقدنا مرة أخرى يقظين، «إننى دائمًا رديئة للغاية فى المرة الأولى، لماذا يحدث ذلك؟».

«ربما يرجع ذلك إلى ما عليه الأعصاب من حال. فأنا أيضًا كذلك».

«إنك تخشانى بعض الشىء».

وعندئذ نهضت على مرفقى وكأنى قد استيقظت فجأة وقلت لها: «ولكن ماذا سنستفيد يا «جوستين» من كل هذا؟ إذا كان هذا...» غير أن رعبًا شديدًا تملكها الآن فوضعت راحتها على فمى وهى تقول: «بحق السماء لا تقدم أى تبريرات وإلا عرفت بأننا على خطأ. لا شىء فى استطاعته أن يبرر ما فعلناه. لا شىء. ومع ذلك فلم يكن هناك مفر من أن يحدث الأمر هكذا». وغادرت الفراش وتوجهت إلى منضدة الزينة وقد صفت عليها الصور وعلب المساحيق، وكنست كل

ما عليها بضربة واحدة كضربة مخلب النمر. وقالت: «هذا ما أفعله أنا بـ«نسيم»، وما تفعله أنت بـ«ميليسا» إذ من الدناءة أن نحاول وندعى غير ذلك». لقد اتفق هذا إلى حد كبير مع ما هيأنى «الأرناؤوطى» لتوقعه منها فلم أقل شيئًا، واستدارت وأخذت تقبلنى فى ألم نهم إلى أن بدا كتفاى المحترقان من الشمس ينبضان بالألم حتى اغرورقت عيناى بالدموع. فقالت فى رقة وحزن: «آه، إنك تبكى. كم أود لو بكيت. فقد فقدت القدرة على ذلك».

إننى أتذكر وأنا أحدث نفسى وقد أمسكت بها أتذوق دفء وحلاوة جسدها المالح من ماء البحر - فقد كان لحلمتى أذنيها مذاق مالح - أتذكر وأنا أقول لنفسى: «إن كل قبلة منى ستقربها من «نسيم»، ولكنها تجعلنى أكثر بعدًا عن «ميليسا». إلا أن الأمر الغريب حقّا هو أنه لم ينتابنى أى شعور بالقنوط أو الألم، ولابد أنها أيضًا من ناحيتها كانت تفكر بنفس النهج إذ قالت فجأة: «إن «بلتازار» يقول بأن هؤلاء الذين جبلوا على الخيانة كجزء من طبيعتهم - مثلى ومثلك - إنما هم «قباليون» حقيقيون. إنه يقول: إننا أموات نعيش حياتنا كالأشياء المنسية التى تتجمع على حافة الجحيم. ومع ذلك فإن الأحياء لا يستطيعون الاستغناء عنها. إننا نمدهم بالرغبة فى أن ينموا، وأن يمارسوا مزيدًا من التجربة».

حاولت أن أقول لنفسى كم كان كل هذا غباء! إنها قصة زنا مبتذلة من أرخص تفاهات المدينة: ولا تستحق حيلاً عاطفية أو أدبية. ومع ذلك ففى مكان آخر، فى أعماق نفسى، كان يبدو أننى أدرك أن التجربة التى أقدمت عليها ستكون لها الخاتمة الخالدة لدرس تعلمته، وقلت لها فى حنق: «إنك جادة أكثر مما يجب». فقد كنت مغرورًا ولا

أحب أن أشعر بأن هناك من ينتزعنى خارج أعماقى. وأدارت «جوستين» عينيها الكبيرتين نحوى. وقالت فى رقة وكأنها تخاطب نفسها: «أوه كلا، إنها لحماقة منى أن أنشر كل هذا الأذى كما أفعل ولا أدرك بأن هذا هو دورى فى الحياة. إننى بهذه الطريقة وحدها، بمعرفة ماذا أفعل، يمكننى أن أتفوق على نفسى. ليس من السهل أن أحقق ذاتى.. إننى أتوق إلى أن أكون مسئولة عن نفسى. أرجوك ألا تشك فى قولى هذا».

ونمنا، ولم يوقظنى إلا صرير مفتاح «حميد» وهو يدور فى القفل وقيامه بأعماله المسائية المعتادة. كان متطيراً بصورة غير عادية، رغم أنه كان متدينًا وكانت الحصيرة الصغيرة التى يصلى عليها ملفوفة وموضوعة فى متناول يده على شرفة المطبخ. كان كما قال عنه «بومبال» «تركبه الجن». كان يخيل إليه أن هناك جنيّا فى كل ركن من أركان الشقة. كم تعبت من سماع تمتمته «دستور - دستور»(*)، وهو يلقى بفضلات العظام فى بالوعة المطبخ، فهنا يقيم جنى مهيب يجب التوسل إلى غفرانه. كان الحمام أيضًا مسكونًا بالجن. وكان فى وسعى دائمًا أن أكتشف «حميد» عندما يستخدم دورة المياه الخارجية، إذ إنه كلما جلس على كرسى المرحاض انطلق من بين شفتيه فى صوت مبحوح ابتهال لا إرادى «دستوركم يا أسيادى»، وهذا الابتهال يجعل الجنى مسالمًا وإلا سحبه إلى شبكة المجارى. وأنا الآن أسمعه يتمتم لنفسه فى خفوت وهو يحك أرضية المطبخ بشبشبه القديم المصنوع من اللباد فى صوت يشبه حية «البواء».

أيقظت «جوستين» من تهويمة قلقة وتحسست عيناى، فمها وعينيها وشعرها الناعم بذلك الفضول المعذب الذى كان يشكل على الدوام

(*) بالعربية فى حروف لاتينية.

أكثر العناصر فى شهوتى. وقلت لها : «يجب أن تغادرى هذا المكان فسيحضر «بومبال» من القنصلية بعد وقت قليل».

إننى أتذكر الفتور الذى ارتدينا به ملابسنا خلسة، وكيف أخذنا طريقنا إلى السلم المعتم المؤدى إلى الطريق صامتين صمت شركاء جريمة. لم نجرؤ على أن نشبك ذراعينا، غير أن أيدينا كانت تلتقى بطريقة عرضية بينما كنا نسير، وكأنها لم تنفض عنها سحر الأصيل ولا فى وسعها احتمال الفراق. وانفصلنا كذلك صامتين، عند الميدان الصغير بأشجاره الجافة والتى أحرقتها الشمس فجعلتها فى لون القهوة، انفصلنا ونحن نتبادل نظرة واحدة؛ وكأننا نبغى أن يحتل كل واحد منا وإلى الأبد مكانًا فى عقل الآخر.

كان الأمر يبدو وكأن المدينة قد تحطمت علىّ، وأنا أمشى فيها دون غاية كما يمشى الناجون بعد زلزال فى مدينتهم، حيرى إذ يجدون أن كل ما تعودوا عليه قد تغير. وأحسست بالصمم على نحو غريب، ولم أعد أتذكر شيئًا إلا أننى قد هرعت بعد ذلك - بوقت طويل - إلى «بورسواردن» و«بومبال» فى البار، وأن الأول تلا علينا بعض أبيات من قصيدة «المدينة» المشهورة للشاعر الشيخ، وأنها قد أمدتنى بقوة جديدة، وكأن القصيدة قد صيغت حديثًا : رغم أننى كنت أعرف الأبيات كلها. وعندما قال «بومبال» إنك الليلة غارق فى الأفكار، فما الأمر؟. وددت لو أجبته بكلمات «عمرو»(*) وهو يموت : «أحس كما لو كانت السماء تكاد تنطبق على الأرض، وأنا بينهما، أتنفس من ثقب إبرة».

* * *

الجـــزء الثانـــى

أن يكتب الإنسان كل هذا ولا يتحدث بشيء عن «بلتازار» إنما هو فى الحقيقة إغفال وإهمال، فـ «بلتازار» على نحو ما واحد من مفاتيح المدينة، المفتاح: نعم، لقد تقبلته كما كان فى تلك الأيام، وأحس الآن بأنه لا بد من تقييمه فى ذاكرتى من جديد. كان هناك الكثير الذى لم أفهمه حينذاك، والكثير الذى تعلمته منذ ذلك الوقت. إننى أتذكر على وجه الخصوص تلك الأمسيات التى لا تنتهى، والتى كنا نقضيها فى مقهى «الأقطار» نلعب الطاولة بينما يدخن «بلتازار» فى غليونه الطويل تبغ «اللاكاديف» المفضل لديه. وإذا كان «منمجيان» هو أرشيف المدينة فإن «بلتازار» هو الشيطان الأفلاطونى، أى إنه الوسيط بين آلهتها ورجالها. إننى أدرك، كما يبدو، أن هذا الأمر غير واضح.

إننى أرى رجلاً طويل القامة يرتدى قبعة سوداء ذات حافة رفيعة. وقد أطلق عليه «بومبال» اسم «العنزة النباتية». إنه رفيع، محنى القامة قليلاً، له صوت عميق ذو نقيق، شديد الجمال خاصة عندما يقتبس أو يتلو الشعر. وهو لا ينظر إليك مباشرة عندما يتحدث معك، ـ وتلك خاصية لاحظت وجودها عند عدد كبير من المصابين بالشذوذ الجنسى. وهى عنده لا تدل على أنه المفعول به، الأمر الذى لا يحس بالخجل منه، ولكنه يحس إزاءه باللامبالاة الحقيقية. كانت عيناه الصفراوان الشبيهتان بعين الماعز هما عينا منوم

مغناطيسى. وهو يعفيك عندما لا ينظر إليك من نظرة قاسية إلى الحد الذى يجعلك تقضى الليل متكدراً. إن الكيفية التى تتعلق بها يداه الهائلتا البشاعة إلى جذعه تثير الحيرة. كنت أتوق منذ ذلك الحين لو قطعتهما وألقيت بهما إلى البحر. وكانت تنمو تحت ذقنه خصلة واحدة من الشعر الغامق، تشبه تلك التى يراها المرء أحيانًا على ظلف تمثال صنم منحوت.

كم مرة من المرات وجدت نفسى، خلال تلك النزهات الطويلة التى كنا نقوم بها قرب مياه القناة الراكدة التى تشبه القطيفة، أتساءل فى حيرة عن الميزة التى يتمتع بها والتى شدتنى إليه. كان هذا قبل أن أعرف أى شىء عن «القابال». ورغم أن «بلتازار» يقرأ كثيراً، إلا أن حديثه لم يكن مثقلاً بهذا النوع من المواد الذى يدعو السامع إلى الاعتقاد بأنه كثير الاطلاع والقراءة، مثل «بورسواردن». إنه يحب الشعر والأمثال والعلم والسفسطة. غير أن لمسة من النزق والقدرة على التمييز تكمن وراء تفكيره. ومع ذلك فتحت ذلك النزق يوجد شىء آخر. يوجد صدى يعطى لفكره وزنًا وثقلاً. كانت الحكم والأمثال تجرى فى عروقه، وكانت تمنحه فى بعض الأحيان لمسة عراف صغير. إننى أرى الآن أنه كان واحداً من هؤلاء الناس القلائل الذين عثروا لأنفسهم على فلسفة ما، وشغلوا حياتهم بمحاولة ممارستها فى الحياة، وأعتقد أن هذه هى الصفة التى لم ترد إلى أصلها والتى كانت تعطى لحديثه تلك النبرة القاطعة.

كان يقضى، بوصفه طبيبًا، الجانب الأكبر من وقت عمله فى عيادة الأمراض التناسلية الحكومية، ولقد قال ذات مرة بطريقة جافة: «إننى أعيش فى قلب حياة المدينة. فى جهازها البولى التناسلى: إنه نوع من

الأماكن التى تجعل المرء يحس بالعقل والاتزان». بالإضافة إلى ذلك. فهو أيضًا الرجل الذى لم يؤثر شذوذه بصورة ما على رجولة عقله الفطرية. إنه ليس واحدًا من المتطهرين ولا هو عكس ذلك. فكثيراً ما دخلت حجرته فى شارع «لبسيس»، الحجرة ذات الكرسى الخيزرانى، الذى يزيق، لأجده يضاجع أحد البحارة. لم يكن يبرر تصرفه فى مثل تلك الحالة ولا يشير إلى رفيق فراشه. كان يستدير فى بعض الأحيان، بينما يرتدى ملابسه، ثم يحشر الغطاء فى حنان حول جسد زميله النائم، إننى آخذ تلك التصرفات الطبيعية مأخذ التصرفات التى تستحق المديح.

إنه مزيج غريب، فقد سمعت صوته فى بعض الأحيان وهو ينتفض بالعاطفة، بينما يشير إلى بعض وجهات نظر «القابال» التى يسعى كى تكون مفهومة للمجموعة التى يقوم على تدريسها. ومع ذلك فقد تنهد ذات مرة فى حسرة عندما تحدث فى حماس عن بعض الملاحظات التى كان قد أبداها من قبل وقال بتلك النبرة المتشككة التى تتميز بها الإسكندرية والتى تنطوى بصورة ما على ولاء وثقة لا جدال فيهما للروحانيات: «إننا جميعًا نسعى حتى نصل إلى أسباب معقولة لإيماننا بالمستحيل». وفى مرة أخرى قال بعد مناقشة طويلة ومرهقة مع «جوستين» حول الوراثة والوسط: «آه! يا عزيزتى، ماذا فى وسعنا أن نقول عن معرفتنا الفعلية بالإنسان، بعد كل العمل الذى قام به الفلاسفة على روحه والأطباء على جسده؟ إنه، بعد أن يقال كل شىء ويفعل كل شىء. مجرد ممر للسوائل والأشياء الصلبة، مجرد أنبوبة من اللحم».

كان زميل دراسة وصديقًا للشاعر الشيخ. إنه يتكلم عنه فى حرارة وبطريقة تصل إلى الأعماق، حتى إن كل ما يقوله كان يحرك

مشاعرى: «إننى أعتقد فى بعض الأحيان بأننى قد تعلمت من دراسته أكثر مما تعلمت من دراسة الفلسفة، إن مساواته الرائعة، بين السخرية والرقة، كان من الممكن أن تضعه فى مصاف القديسين لو أنه كان رجلاً متدينًا. ولكن المشيئة الإلهية لم تجعل منه غير شاعر وفى أغلب الأوقات شاعر حزين، غير أن المرء يحس، وهو معه، بأنه يمسك بكل دقيقة تمر عابرة ليقلبها رأسًا على عقب حتى يكشف جانبها السعيد. كان يستهلك فى الحقيقة ذاته، ذاته الداخلية كى يحيا. إن أغلب الناس تتمدد وتدع الحياة تلعب فوقها كدفقات دش فاترة. ولقد عارض فرض ديكارت: «أنا أفكر إذن فأنا موجود» بفرض من عنده جاء فيه، كما أعتقد، شيئًا كهذا: «أنا أتخيل إذن فأنا منتم وحر».

ولقد قال «بلتازار» عن نفسه ذات مرة فى ضجر، «إننى يهودى، بكل ما فى اليهودية من رغبة دموية وتعطش للقدرة على القياس المنطقى. إنها الدليل إلى نقاط الضعف العديدة فى تفكيرى، والتى أتعلم كيف أوازنها مع بقية نفسى، وذلك بشكل رئيسى، عن طريق القابال».

* * *

إنى أتذكر لقائى به أيضًا ذات ليلة شتوية باردة، بينما كان يسير على الكورنيش، وقد غسلته الأمطار، يتفادى الاندفاعات الفجائية للمياه المالحة عبر حواجزها. وتحت قبعته السوداء جمجمة تطن بذكريات «أزمير» و«السبورادس» حيث تكمن طفولته. وتحتها أيضًا كانت توجد تلك الإشعاعات التى تلازم الحقيقة والتى حاول أن ينقلها إلىّ فيما بعد فى إنجليزية لا بأس بها، باعتبار أنها لغة مكتسبة بالنسبة إليه. حقًا لقد التقينا من قبل، ولكنه لقاء وقف عند حدود الرؤية، كان من الممكن أن

يعبر كل منا الآخر دون أن نتبادل غير إيماءة، لولا أن هياجه جعله يوقفني ويمسك بذراعى قائلاً: «آه، فى استطاعتك أن تساعدنى». ثم صرخ وهو يمسك بى من ذراعى قائلاً: «أرجوك، ساعدنى». ومال وجهه الشاحب بعينيه اللامعتين الشبيهتين بعينى الماعز نحوى فى عتمة المساء.

كان أول المصابيح الشاحبة المبتلة قد بدا يضفى توترًا وتصلبًا على المنظر الخلفى للإسكندرية والذى يشبه الورق المبتل: ضفة البحر وصفوف المقاهى الواقعة عليها، وقد ابتلعها رذاذ يتوهج بضياء فسفورى ملطخ ومرتعش، وهبت الريح نحو الجنوب الساكن. وقبعت مريوط متجمدة وسط نبات الغاب وكأنها أبوالهول رابضا. كان يبحث، كما قال، عن مفتاح ساعته ساعة الجيب الذهبية الجميلة التى صنعت فى ميونيخ. وفكرت فيما بعد، أنه يخفى خلف العجلة المرتسمة على ملامحه المعنى الرمزى الذى تحمله له هذه الساعة: المعنى الذى يدل على الزمن الذى لا تقيده قيود، والذى ينساب خلال جسده وجسدى، لسنين عديدة وتبينه الآن تلك الساعة التاريخية. «ميونيخ» «زغرب» «الكارباثيون». كانت الساعة لأبيه، يهودى طويل القامة يرتدى الفراء، ويركب الزحافة. لقد قطع بولندا وهو راقد بين ذراعى أمه، لا يعرف غير أن المجوهرات التى ترتديها فى تلك الأماكن التى ينيرها الثلج كانت ثلجية الملمس، لقد «تكتكت» الساعة فى رقة وهى على جسد أبيه كما «تتكتك» الآن فى رقة وهى على جسده، وكأن الزمن يختمر فى كل منهما. كانت تدار بمفتاح صغير على هيئة «عنخ» رمز الحياة عند المصريين القدماء، كان يحتفظ به مربوطًا إلى حلقة مفاتيحه بقطعة من شريط أسود. وقال لى فى صوت أجش «إن اليوم فى الإسكندرية هو يوم السبت». قالها وكأن الزمن هنا شىء مختلف،

وكأنه على صواب أيضًا . «إن لم أجد المفتاح فسوف تتوقف الساعة» . وسحب الساعة فى رقة من جيب الصديرى المبطن بالحرير لأراها فى آخر ومضات العتمة المنداة بالمطر ، «ما زال أمامى حتى مساء الإثنين ، ثم تتوقف» . كان من العبث أن يفتح الغطاء الذهبى الرقيق دون المفتاح وأن تتعرى أحشاء الزمن النابض وهى تتحرك ، «لقد بحثت الأرض ثلاث مرات ! لا بد أنه قد سقط منى فيما بين المقهى والمستشفى» .

كنت أرغب مسرورًا فى معاونته . غير أن المساء كان يهبط فى سرعة فاضطررنا لوقف البحث بعد أن قطعنا مسافة قصيرة نبحث فى الفتحات التى بين الأشجار . قلت له : «بالتأكيد ، يمكنك الحصول على مفتاح آخر» . فأجاب وقد نفد صبره : «نعم بالطبع ، ولكنك لا تفهم ، لقد كان هذا المفتاح يخص تلك الساعة . لقد كان جزءًا منها» .

وذهبنا ، كما أتذكر ، إلى مقهى على الشاطئ وجلسنا يملؤنا شعور باليأس وأمامنا قهوة سوداء ، بينما راح هو يتحدث عن ساعته التاريخية فى صوت كالنقيق . قال أثناء ذلك الحديث : «أعتقد أنك تعرف «جوستين» لقد تحدثت إلىَّ عنك فى حرارة . إنها سوف تأتى بك إلى «القابال» . » وسألته : «وما هو «القابال»؟ فقال وهو يكاد يكون خجلاً : «إننا ندرس «القبالة» : إنها صورة مصغرة لمحفل ماسونى . ولقد قالت لى ، إنك تعرف بعض الشىء عن «القابال» وأنك سوف تعجب به» . ولقد أثار هذا الأمر دهشتى لأننى ـ حسبما أتذكر ـ لم أذكر لـ «جوستين» على الإطلاق الخط الدراسى الذى أسير عليه فيما بين نوبات الخمول والقرف الطويلة . وحسبما أتذكر ، فإن الحقيبة الصغيرة التى تحتوى على الكتب «الهرمزية» وكتب أخرى من نفس النوع كانت مغلقة وموجودة دائمًا تحت سريرى . وعلى أية حال فإننى لم أقل شيئًا .

ثم انتقل هو الآن إلى الكلام عن «نسيم» فقال، «إنه أكثرنا سعادة على نحو ما، إذ لا توجد فكرة مسبقة عما يبتغيه فى مقابل حبه، وأن يحب الإنسان بمثل هذه الطريقة غير المغرضة سلفًا لشىء يجب تعليمه لغالبية الناس بعد سن الخمسين. فالأطفال يتمتعون بهذا النوع من الحب وكذلك «نسيم» إننى جاد فيما أقول».

«وهل كنت على معرفة بـ «الأرناؤوطى» الكاتب؟»

«نعم، كاتب «عادات»».

«حدثنى عنه».

«لقد أقحم نفسه علينا، غير أنه لم ير المدينة الروحية الكامنة تحت المدينة الدنيوية. لقد كان كاتبًا موهوبًا وحساسًا ولكنه كان «فرنسيّا» أكثر من الفرنسيين. وكانت «جوستين» صغيرة للغاية، حتى إنه لم ينل منها غير الأذى. لقد كان سيئ الحظ. ولو أنه وجد أخرى أكبر منها قليلاً، فكل نسائنا كما تعرف «جوستين» مختلفة الأنماط، لاستطاع، لن أقول أن يكتب بطريقة أفضل، فكتابه جيد الصياغة، أن يجد فى كتابته العزم الذى يجعله عملاً فنيّا أكثر أصالة».

وتوقف يسحب نفسًا طويلاً قبل أن يضيف فى بطء: «أنت ترى أنه قد تجنب فى كتابه هذا التعرض لعدد من المسائل التى تخص «جوستين» والتى يعرف أنها حقيقة، غير أنه تجاهلها لأغراض فنية بحتة، كحادثة طفلتها. إننى أظن أنه اعتقد بأن لها طعمًا ميلو دراميّا».

«أية طفلة هذه؟»

«كان لجوستين طفلة، لا أدرى ابنة من كانت. وذات يوم اختطفت واختفت. كانت تبلغ من العمر ستة أعوام، إن مثل هذه الأمور تحدث

كثيراً كما تعرف. ثم سمعت فيما بعد أن البعض قد رآها أو تعرف إليها، فبدأت بحثًا لا هوادة فيه خلال الحى العربى لكل مدينة، خلال كل منزل سيئ السمعة، حيث إنك تعرف ما يحدث للأطفال الذين بلا أبوين. إن «الأرناؤوطى» لم يذكر هذا على الإطلاق، رغم أنه كثيراً ما ساعدها وهى تلاحق كل خيط أو دليل، ولابد أنه قد رأى كيف أسهم فقدان طفلتها هذا فى تعاستها».

«من أحبت «جوستين» قبل «الأرناؤوطى»؟»

«ليس فى وسعى أن أتذكر، فالكثيرون من عشاق «جوستين» يظلون أصدقاء لها، ولكن فى وسعك أن تقول كما أعتقد: إن أصدقاءها الحقيقيين لم يكونوا على الإطلاق عشاقًا لها. إن أهل المدينة على استعداد دائم للقيل والقال». غير أننى كنت أفكر فى فقرة جاءت فى كتاب «عادات» حيث تأتى «جوستين» مع عشيق لها عند المؤلف. كتب «الأرناؤوطى» يقول: «كانت تحتضن هذا الرجل، عشيقها، أمامى فى حرارة، وتقبله فى فمه وعينيه، ووجنتيه، حتى يده، ووقفت لا أدرى ماذا أفعل. ثم لمعت فى خاطرى على نحو مثير فكرة أنها كانت فى الحقيقة تقبلنى أنا فى خيالها».

وقال «بلتازار» فى هدوء: «الحمد لله إننى قد أعفيت من اهتمام بالحب لا لزوم له. فاللوطى يفلت على الأقل من الصراع المخيف الذى يواجهه المرء كى يمنح نفسه لشخص آخر. إذ عندما يضاجع المرء واحداً من نوعه فإنه يحتفظ، وهو يستمتع بالتجربة، بحرية ذلك الجزء من عقله الذى يشغله «أفلاطون»، أو الاهتمام بالحدائق، أو الحساب التفاضلى. لقد ترك الجنس الآن ودخل الخيال، ولهذا شقى «الأرناؤوطى» كثيراً مع «جوستين»، لأنها افترست كل ما كان يود

المحافظة عليه منفصلا، طبيعته الفنية إن شئت، إنه بعد كل شيء أشبه «بأنطونيو» صغير وهي «كليوباترا». وفي وسعك أن تقرأ كل شيء عنها في «شكسبير». وعندئذ يمكن أن تفهم، بقدر ما يخص هذا الأمر «الإسكندرية»، لماذا تعرف هذه المدينة، بالمدينة التي يضاجع الناس فيها أرحامهم؟ أعني أن عبادة «سيرابيس» قد تأسست هنا. فإن هذا الذبول في القلب والانفلات في العشق جعلا المرء ينقلب على أخته، إن العاشق يرى صورته في أسرته مثل «ناريس»، ولا مخرج هناك من هذه الورطة».

لم يكن كل هذا مفهومًا لدى بصورة كاملة، ومع ذلك، فقد أحسست إحساسًا مبهمًا بوجود نوع من المطابقة بين العناصر التي استخدمها لربط الموضوع، وبالتأكيد فقد بدا الكثير، مما قاله، لا يفسر، والتي قرأت لأول مرة بخط يدها النابض بالحيوية، هذا الاقتباس من «لافورج».

«ليس لديَّ فتاة صغيرة يمكن أن تتذوقني، أي والله، ممرضة. ممرضة تعاودني لمجرد حب التمريض، ولا تعطي قبلاتها للمحتضرين، إلا لمن كانوا على حافة النهاية».

وكتبت تحتها: «كثيرا ما استشهد (ا) بها. وأخيرًا اكتشفت بالصدفة أنها مأخوذة عن «لافورج».

وسألني «بلتازار» فجأة، «هل انتهيت من حب «ميليسا» لك؟ إنني لا أعرفها، لقد رأيتها فقط. سامحني. فقد آذيت مشاعرك».

في هذا الوقت بدأت أدرك كم كانت تعاني «ميليسا»، غير أنها لم تنبس بكلمة لوم واحدة، كذلك لم تتكلم عن «جوستين» قط. غير أنها

كانت منطفئة، وغدا لونها، لون جسدها ذاته، لونًا تمجه النفس. وبدا أمرًا متناقضًا للغاية، إذ كنت أحس حينذاك بأننى أحبها أكثر من أى وقت مضى، رغم أننى كنت أجد صعوبة بالغة فى مضاجعتها دون أن أبذل جهدًا. كان تنخر فىَّ أضرابًا من المشاعر وشعوراً بالخيبة لم أحس به من قبل، مما جعلنى أغضب معها فى بعض الأحيان.

كانت أحاسيسى معها تختلف اختلافًا تامًا عن أحاسيسى مع «جوستين»، التى كانت تعانى اضطرابًا بين أفكارها ومقاصدها يكاد يماثل الاضطراب الذى أعانيه، والتى قالت لى: «إننى أتساءل من الذى اخترع قلب الإنسان؟ أخبرنى ثم أرنى المكان الذى شنق فيه».

* * *

أما عن «القابال» نفسها، فماذا يمكن أن يقال عنها؟ إن «الإسكندرية» مدينة الملل والطوائف الدينية. لقد قذفت المدينة بداعر من رجال الدين، «كاربوكراتس» و«أنطونيو»، مقابل كل ناسك. داعر قد أعد ليغرق فى الحسيات بعمق وصدق، كما يغرق فى العقل أى راهب فى الصحراء. قال «بلتازار» ذات مرة: «إنك تتكلم باستهانة عن الإيمان بعدة أديان. ولكن ينبغى عليك أن تدرك حتى تتمكن من العمل هنا، وأنا إذ أتكلم الآن فإنما أتكلم كرجل متدين إلى حد الهوس لا كفيلسوف، أنه يجب على المرء أن يحاول التوفيق بين النقيضين من العادة والسلوك اللذين لا يرجعان إلى الاستعداد الذهنى للمواطنين، ولكن إلى الأرض التى يعيشون عليها، إلى الهواء والطبيعة. أقصد الحسية إلى أقصى مداها والتقشف الذهنى إلى أقصى مداه. إن المؤرخين يتناولون الإيمان بعدة أديان على أنه حصيلة مزيج من المبادئ الفكرية المتصارعة، وهو تفسير لا يعطى تحديدًا كاملاً للمشكلة. إنها

ليست قضية أجناس ولغات مختلطة. إنها الخاصية قومية أن يسعى سكان «الإسكندرية» للتوفيق بين أعمق خاصيتين نفسانيتين يعون ويدركون وجودهما. وذلك هو السبب فى أننا متهوسون ومتطرفون. وذلك هو السبب أيضًا فى أننا العشاق الذين لا نظير لنا».

ليس هذا المكان بالمكان المناسب لمحاولة كتابة ما أعرفه عن «القابال»، حتى لو كنت عازمًا على محاولة تعريف «الأرضية غير المتينة لتلك المعرفة بالأسرار الروحية». والتى لا يستطيعها أحد من أتباع «هرمس» الطامحين، لأن لمثل تلك الشذرات من الإلهام، جذورها الممتدة إلى أسرار تلك الفلسفة. إنها خبرات فجة لا يمكن أن يشارك فيها غير المطلعين.

لقد تعرضت لمثل تلك الأمور فى «باريس» من قبل، وكنت على اعتقاد بأننى قد أجد فيها طريقًا يمكن أن يقودنى إلى فهم أعمق لنفسى. النفس التى تبدو كمجموعة هائلة من الشهوات والنزوات المشوشة والتى لا شكل لها. واعتبرت كل هذا الحقل من الدراسة شيئًا منتجًا يعود بالفائدة على أعماقى كرجل، رغم أن تشككًا طبيعيًا وغريزيًا قد جعلنى غير مقيد إلى أية ملة دينية. ولقد درست قرابة عام على يدى «مصطفى»، وهو رجل صوفى كنت أجلس فى شرفة منزله الخشبية المتداعية كل مساء أستمع إليه، وهو يتحدث فى صوته الرقيق الذى يشبه نسيج العنكبوت. وكنت قد شربت الشربات مع حكيم تركى مسلم. ولهذا سرت إلى جوار «جوستين» يحتوينى شعور بالألفة خلال التواءات الشوارع التى تشبه جحر الأرانب والتى تتوِّج قلعة «كوم الدكة»، أحاول بنصف عقلى أن أتخيل كيف بدا هذا المكان عندما كان حديقة مقدسة للأوثان، وقد نحتت كل الرابية البنيَّة الأحجار على

هيئة ثمرة الصنوبر. إن ضيق الشوارع هنا يعطى المرء إحساسًا بالألفة رغم أنه لم يكن على جانبها شيء غير مساكن كجحور الأرانب الدودية الشكل، ومقاه صغيرة مظلمة تضاء بمصابيح الزيت المرتعشة. وقد غمر هذا المكان الصغير من المدينة جو غريب من الطمأنينة، منحها بعضًا من جو قرى الدلتا. وهناك أسفل عند الميدان البنى، البنفسجى غير المنتظم والقريب من محطة السكة الحديدية والذى بدا مهملاً فى الغسق المتلاشى، تجمعت تجمهرات صغيرة من الأعراب حول مجموعات المتبارين الذين يلعبون بالعصا، وقد كتمت صرخاتهم الحادة فى الغسق الذاوى. وإلى الجنوب كانت تلمع صفحة «مريوط» القاتمة. وسارت «جوستين» بسرعتها المعتادة فى صمت، وقد نفد صبرها، لأننى كنت أتلكأ وألقى بناظرى خلال الأبواب على مناظر الحياة العائلية التى بدت (وهى مضاءة كمسارح العرائس) مليئة بمغزى درامى هائل.

كانت جمعية «القابال» تجتمع فى هذا الوقت فيما يشبه كوخًا خشبيًا مهملاً من أكواخ الحراسة، بنى عند الحوائط الترابية لسد قريب للغاية من عمود «بومبى»، وأعتقد أن حساسية البوليس السقيمة للاجتماعات السياسية هى التى أملت اختيار مكان كهذا المكان. كان على المرء أن يعبر الخنادق والحواجز الموحشة التى أقامها علماء الآثار، وأن يتبع ممرًا موحلاً عبر البوابة الحجرية، ثم ينحرف بصورة حادة فى زاوية قائمة فيدخل هذا الكوخ الكبير الخالى من الطلاء والذى كان أحد حوائطه جزءًا من سد ترابى، وأرضيته من التراب المقوى بالطفلة. كان مضاء بقوة من الداخل بمصباحين بتروليين ومؤثثًا بعدد من الكراسى المصنوعة من الأغصان المجدولة.

كان الجمع مكونًا من حوالى عشرين شخصًا، قادمين من أنحاء

المدينة المختلفة. وقد لاحظت فى شىء من الدهشة وجود «كابوديستريا» فى أحد الأركان بقامته النحيلة وهيئته التى يبدو عليها الضجر. وكان «نسيم» بالطبع، هناك. غير أن عدد الذين يمثلون الأقسام الأكثر ثراء والأكثر تعليمًا فى المدينة حينئذ كان قليلاً للغاية. كان هناك على سبيل المثال، ساعاتى متقدم فى السن كنت أعرفه جيدًا بالعيان، رجل حلو الشمائل، فضى الشعر كانت تبدو لى سماته الصارمة وكأنها تحتاج إلى كمان يوضع أسفلها حتى تغدو معبرة. عدد قليل من السيدات المتقدمات فى السن واللواتى لا داعى لوصفهن، كيميائيًا، وجلس «بلتازار» أمامهن على كرسى منخفض وقد رقدت راحتاه القبيحتان فى حجره. وعرفته فى الحال فى صورة جديدة كلية عن ذلك المقيم فى قهوة «الأقطار» والذى لعبت معه الطاولة ذات مرة. ومرت بضع دقائق فى ثرثرة متفرقة بينما أعضاء جمعية «القابال» فى انتظار من لم يحضر بعد من الأعضاء. ثم وقف الساعاتى العجوز واقترح أن يفتتح «بلتازار» أعمال الجلسة، واتكأ صديقى إلى الخلف فى مقعده، وأغلق عينيه وابتدأ يتكلم بذلك الصوت الغليظ الذى يشبه النقيق، والذى أخذت تتجمع فيه عذوبة غير عادية. وتكلم، كما أتذكر، عن ينابيع النفس وقدرتها على إدراك نظام فطرى قائم فى الكون يكمن تحت «التحكم الواضح للظاهرة وفقدانها لكيانها». إن عمليات تدريب المخ يمكن أن تمكن الناس من اختراق حجاب الحقيقة واكتشاف أشكال من التوافق بين المكان والزمان، تتطابق مع التركيب الداخلى لنفوسهم. غير أن دراسة «القابال» كانت علمًا ودينًا معًا. وكان كل هذا مألوفًا للغاية بالطبع. غير أنه خلال المسائل التى كان يعرضها «بلتازار» كانت تخرج منه شذرات من الفكر غير عادية على صورة حكم رسمية تظل تلح على العقل طويلاً بعد أن يغادر المرء

مـجلسـه. إننى أتذكـره يقـول على سـبيل المثـال: «لـم تفـعـل أى من الديانات أكثر من المنع والحرمان وإضافة قائمة طويلة من المحرمات. إلا أن المحرمات تخلق الرغبة التى أرادت الأديان علاجها. إننا أعضاء هذا «القـابال» نقـول: «انغـمس ولكـن انتق». إننا نطوع كل شىء، حـتى المنفـعـة، كى نجـعل كـمـال الإنسـان نداً لكمـال الكـون. إننا نعـمـد إلى التحطيم الدقيق للعقل بانغماسه فى المتعة».

كـانت جـمـعـية «القـابال» تقـوم فى تكـوينهـا على حلقة داخليـة من الأعضاء المطلعين على كل شىء ـ لو سمع «بلتازار» هذه الكلمة لأصابه الفزع ولكنى لا أعرف كيف أعبر عنها بكلمة أخرى ـ وحلقة خارجية من الدارسـين وإلى تلك الحلقة ينتمى «نسيم» و«جوستين». كـانت الحلقة الداخلية تتألف من اثنى عشر عضواً منتشرين بصورة واسعة على طول البحر الأبيض المتوسط، فى «بيروت» و«يافا» و«تونس» وهكذا. وفى كل مكان كـان يوجـد معـهـد علمى صـغير مكون مـن «الدارسين» الذين كـانوا يتـعلمـون استـعـمـال الحسـاب الغـريب، حسـاب التفـاضل والتكامل العاطفى الذى وضعته جمعية «القابال» عن فكرة الإله. وكان أعضـاء الحلقـة الداخلية من الجـمـعـية يتبادلون المراسلات مع بعضـهـم البعض كثيراً، مستخدمين فى ذلك الطريقة القديمة الغريبة فى الكتابة، والمعروفة بالخطوط المتعاقبة فى اتجاهات متضادة، والتى يمكن القـول إنها كتابة تقرأ من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين فى أسطر متبادلة. إلا أن أبجدية الحروف المستخدمة كانت رموزاً لحالات عقلية وروحية. لقد قلت ما فيه الكفاية.

فى تلك الأمسيات الأولى جلست «جوستين» بيننا، وقد شبكت ذراعيها فى رقة بذراعينا، تستمع فى تواضع وتركيز مؤثرين. وكـانت

عينا المحاضر فى بعض الأحيان تستقران عليها للحظة فى ألفة ومودة. هل أدركت حينئذ، أو هل اكتشفت فيما بعد، أنه ربما كان «بلتازار» هو صديقها الوحيد وبالطبع الشخص الوحيد الذى تضع فيه ثقتها فى المدينة؟ إننى لا أتذكر. كانت تقول «لقد كان «بلتازار» هو الشخص الوحيد الذى فى وسعى أن أخبره بكل شيء، لم يكن يفعل شيئًا إلا أن يضحك. ولكنه كان يساعدنى بصورة ما على أن أطرد الفراغ الذى أحسه فى كل ما أفعل». وإلى «بلتازار» كانت تكتب تلك الرسائل الطويلة المعذبة والتى أثارت اهتمام عقل «أرناؤوطى» الفضولى. لقد سجلت فى يومياتها أنهما قد فازا ذات ليلة قمرية بالدخول إلى المتحف، حيث جلسا مدة ساعة بين التماثيل «العمياء كالكوابيس» تستمع إليه وهو يتكلم. قال أشياء كثيرة أثرت فيها حينذاك، ولكنها اختفت فيما بعد من عقلها عندما حاولت كتابتها. ومع ذلك فإنها تتذكره وهو يقول فى صوت هادئ متأمل شيئًا ما عن «هؤلاء الذين كتب عليهم من بيننا أن يسلموا أجسادنا إلى الغيلان». ولقد اخترقت تلك الفكرة «جوستين» حتى النخاع على أساس أنها تومئ إلى نوع الحياة التى تحياها. أما بالنسبة لـ«نسيم» فإننى أتذكره وهو يخبرنى بأن «بلتازار» قد قال له فى جفاء ذات مرة عندما كان يعانى من أجل «جوستين» عذابًا عقليًا شديدًا، «كل غيور على زوجته فاسق».

ثم أضاف بعد ذلك قائلاً: «إننى لا أتكلم الآن باعتبارى شخصًا عاديًا ولكننى أتكلم بصفتى عضواً فى «القابال». إن الحب العاطفى الحاد، إنما هو نوع من الزنا أيضًا حتى لو كان من رجل لزوجته».

* * *

محطة «الإسكندرية» الرئيسية: فى منتصف الليل. ندى ثقيل

كالموت. وضجة العجلات وهى تشق أرصفة الشوارع الموحلة الزلقة، برك جعلها الضوء الفوسفورى صفراء اللون، وممرات من الظلام كالدموع فى واجهة مسرح كئيبة مبنية بالطوب. ورجال البوليس فى الظلام. وأنا واقف إزاء حائط طوبى ملوث لأقبلها قبلة الوداع. إنها ستذهب لأسبوع، ولكنى أستطيع أن أرى، فى رعبى ونعاسى، أنها لن تعود أبدًا. لقد ملأتنى بالخواء قبلتها الناعمة المليئة بالعزم وعيناها اللامعتان. وتأتى من عند الرصيف المظلم أصوات قرقعة مؤخرات البنادق وطقطقة الجنود البنغاليين. قوات هندية على صورة فرق صغيرة منقولة إلى «القاهرة» فى مهام روتينية خاصة. ولم أحس بأن «ميليسا» تتركنى حقًا إلا عندما أخذ القطار يتحرك، وعندما أخذ الشبح الواقف بالنافذة، القائم فى الظلام، يفلت يدى، أخذت أحس بكل ما جحدته بطريقة قاسية لا رحمة فيها ـ وجرة القطار الطويلة نحو الضياء الفضى تذكرنى بحركة سلسلة ظهرها الأبيض وهى تتقلب فى الفراش. وأنادى «ميليسا» غير أن زفير القطار المدوى يمحو كل صوت. وبدأت القاطرة تميل وتنحنى وتنزلق وتأخذ المحطة فى طى الإعلانات واحدًا بعد الآخر ثم تكومها فى الظلام بسرعة تشبه سرعة الشخص المكلف بتغيير المشاهد فى المسرح. ووقفت وكأنى قد تركت وحيدًا على قمة جبل جليد عائم. وإلى جوارى وقف جندى من «السيخ» يحمل بندقية وقد سد فوهتها بوردة. وهيكل القطار الذى يشبه الظلال ينساب على قضبان الصلب فى الظلام، وللمرة الأخيرة يميل القطار ثم يتدفق داخل نفق وكأنه قد تحول إلى سائل.

وأسير ذلك المساء خلال «محرم بك»، أرقب القمر تغطيه السحب، ينهشنى قلق لا يوصف.

خلف السحاب ضوء ساطع، وفى الساعة الرابعة رذاذ خالص رفيع كالإبر وقد تصلبت الزهور المكسيكية فى حديقة القنصلية، وعلى أعضاء التذكير حطت قطرات ماء فضية. لا طيور تغنى فى الفجر وريح خفيفة تجعل أشجار النخيل تميل بأعناقها تطقطق متزنة خفيفة جافة. وللمطر فوق «مريوط» صوت رائع صامت.

الساعة الخامسة. أتنقل فى حجرتها، أتفحص الحاجيات الخالية من الحياة بتركيز عميق. علب المساحيق الفارغة. أدوية إزالة الشعر من عند «سارديس». رائحة الساتان والجلد. الرائحة البشعة لفضيحة توشك أن تقع.

إننى أكتب هذه السطور فى ظروف مختلفة تمام الاختلاف، أكتبها هنا، تحت شجرة الزيتون هذه، فى بركة الضوء التى يلقى بها مصباح زيتى، وقد انقضت عدة شهور منذ تلك الليلة. إننى أكتب وأعيش مرة أخرى تلك الليلة التى تحتل مكانها فى الذخيرة الهائلة لذكريات المدينة. وفى مكان آخر، فى حجرة مكتب واسعة وقد تدلت على منافذها ستائر سمراء نحاسية اللون كانت «جوستين» تنقل إلى يومياتها حكم «هيراكليتس» الفظيعة. إن الكتاب يرقد الآن إلى جوارى. وعلى إحدى صفحاته تكتب: «من العسير أن يحارب المرء رغبة قلبه. فمهما كانت تلك الرغبة، فإنها تبتاعها على حساب الروح». وأسفل الصفحة على الهامش: «السائرون، ليلاً، المجوس، والمطلعون على الأسرار».

هل فاجأنى «منمجيان» فى ذلك الوقت بأن يهمس فى أذنى تلك الكلمات: «هل تعرف، أن «كوهين» يموت. كان تاجر الفراء قد اختفى عن الأنظار منذ شهور مضت. وكانت «ميليسا» قد سمعت أنه بالمستشفى يعانى من تسمم بولى. إلا أن المدار الذى وصفناه ذات مرة

عن الفتاة كان قد تغير، وكان الكاليدوسكوب «المنظار الملون» قد مال مرة أخرى وغاب «كوهين» عن الأنظار كشظية مختفية من الزجاج الملون. والآن فإنه يموت. ولم أقل شيئًا وأنا أجلس أتمعن ذكريات تلك الأيام المبكرة، اللقاءات فى زوايا الشوارع والبارات، خلال الصمت الطويل الذى أعقب كلمات «منمجيان» الذى جز شعرى تمامًا بموسى حلاقة، وأخذ فى رش رأسى بعطر ورق الغار المنقوع فى الروم. وتنهد تنهيدة قصيرة وقال، «كان يسأل عن فتاتك «ميليسا»».

وقلت له: «سأخبرها بالأمر». وأومأ الرجل الأرشيف برأسه ونظرة لزجة تآمرية فى عينيه. ثم قال وهو يمسك بأنفاسه: «أى مرض فظيع هذا المرض؟! إنه كريه الرائحة. إنهم يكشطون له لسانه بسكين طبى. تفوه». ووجه رذاذ بصاقه إلى أعلى نحو السقف كأنه يزيل ما علق بالذاكرة من عفونة: «وكأن الرائحة قد غزت الدكان».

كانت «ميليسا» ترقد فوق الكنبة فى ثوبها المنزلى وقد أدارت وجهها نحو الحائط. واعتقدت فى أول الأمر أنها نائمة، ولكن ما إن وصلت حتى استدارت وجلست. وأخبرتها بأنباء «منمجيان» فقالت: «إننى أعرف بالأمر، فقد أرسلوا إلىّ الخبر من المستشفى، ولكن ماذا فى وسعى أن أفعل؟ إننى لا أستطيع الذهاب ورؤيته. إنه لا يعنى شيئًا بالنسبة لى. لم يكن كذلك البتة، ولم يكن كذلك أبدًا.» ثم نهضت وسارت بطول الحجرة وأضافت فى غضب يوشك أن يكون بكاء: «إن له زوجة وأطفالاً، ماذا يفعلون به؟» وجلست وواجهتنى مرة أخرى ذكرى ذلك الكلب الأليف من كلاب البحر وهو يحملق بحزن فى كأس خمر آدمية. وأعتقد أن «ميليسا» قد أخذت صمتى مأخذ النقد الموجه إليها لأنها جاءت إلىّ وهزتنى فى رفق من كتفى، وتساءلت:

«ولكن ما العمل إذا كان يموت بالفعل؟». كان السؤال موجهًا إليَّ بنفس القدر الموجه إليها. فانفجرت تبكى فجأة وركعت وقد وضعت رأسها على ركبتى: «أوه، إنه لأمر مقزز للغاية، أرجوك ألا تجبرنى على الذهاب».

«بالتأكيد كلا».

«ولكن إن كنت ترى ضرورة ذهابى فسأذهب».

ولم أقل شيئًا. كان «كوهين» على نحو ما قد مات ودفن بالفعل بالنسبة إلينا. كان قد فقد مكانه فى تاريخنا. وبدا لى أن بذل أى جهد عاطفى عليه، إنما هو شىء لا جدوى منه. لم تكن لهذا علاقة بالرجل الحقيقى الراقد وسط بقايا جسده الراحل فى غرفة بيضاء نظيفة بالمستشفى. لقد غدا بالنسبة إلينا مجرد شخصية تاريخية. ومع ذلك فإنه ما زال هنا يحاول فى عناد أن يؤكد شخصيته، يحاول العودة إلى حياتنا من عند نقطة أخرى فى محيطها. ما الذى فى وسع «ميليسا» أن تعطيه له الآن؟ وما الذى تستطيع أن تحرمه منه؟.

وقلت لها: «هل ترغبين فى ذهابى إليه؟» ولقد واتتنى هذه الفكرة غير المعقولة فجأة، فى وسعى أن أدرس حبى أنا ونهايته، فى موت «كوهين». لقد أرعبنى أن يستغيث إنسان أوشك على النهاية بحبيب قديم، فلا ينال منه غير صرخة اشمئزاز. لقد انقضى الزمان الذى كان فى وسع الرجل العجوز أن يوقظ حنان حبيبتى أو حتى مجرد إثارة اهتمامها، فقد حلت بها نوائب جديدة مقابل ماضيها الذى ذبلت فيه نوائبها القديمة وتعفنت. وربما خلال فترة قصيرة، إذا ما حدث واستنجدت بى أو استنجدت أنا بها، فهل يعود أىّ من عند الآخر بصرخة تعبر عن الفراغ والتقزز؟ وأدركت حينئذ حقيقة الحب كله:

أدركت أنه شيء مطلق يأخذ كل شيء أو يخسر كل شيء. أما المشاعر الأخرى كالحنان والرقة وغيرهما، فإنها لا توجد إلا عند الخطوط الحدية وتنتمى إلى تراكيب المجتمع وما تعود عليه. إلا أن «أفروديت» ذاتها، «أفروديت» الصارمة القاسية، إنما هى وثنية. إنها لا تنتقى عقولنا وغرائزنا ولكنها تنتقى عظامنا. لقد أفزعنى أن أفكر فى أن هذا العجوز فى مثل تلك اللحظة من حياته، كان عاجزاً عن أن ينال لحظة حنان إكراماً لذكرى أى شيء قاله أو فعله: حنان من المرأة التى هى فى أعماقها أكثر البشر حناناً ورقة.

أن يُنسى الإنسان على هذا النحو، كان معناه أن يموت ميتة الكلاب. وقلت لها: «سأذهب لأراه من أجلك»، بالرغم من أن قلبى كان ينتفض تقززاً من هذا المشهد، غير أن «ميليسا» كانت قد نامت ورأسها الفاحم على ركبتىَّ كلما كدرها شيء ما تلوذ بعالم النوم البريء، تنزلق إليه فى يسر وسهولة كغزال أو طفل. ووضعت يدىَّ داخل «الكيمونو» الحائل اللون ودلكت ضلوعها البارزة وجبينها فى رقة. وتحركت وهى نصف نائمة وتمتمت شيئاً ما فى صوت خافت عندما تركتنى أرفعها وأحملها فى رقة مرة أخرى إلى الكنبة. وتأملتها لمدة طويلة وهى نائمة.

حل الظلام وكان سكان المدينة يتدافعون، كما يتدافع غرس من أعشاب البحر، نحو المقاهى المضاءة فى أعلى المدينة. وتوجهت إلى «باسترودى» وطلبت كأساً مضاعفاً من الويسكى شربته فى بطء وأنا أمعن التفكير. ثم أخذت تاكسياً واتجهت به إلى المستشفى.

تبعت الممرضة المنوط بها العمل خلال الممرات الطويلة الخضراء الخالية مما يميزها، والتى تنضح جدرانها المطلية بالزيت جواً من

الرطوبة. وكانت المصابيح البيضاء الشبيهة بالأبصال والتى يشع منها الضوء فتحدد طريقنا تنغمس فى الظلام كحشرات منتفخة مضيئة.

كانوا قد وضعوه فى الغرفة الصغيرة، ذات السرير الواحد الذى تحجبه الستائر والتى كانت، كما علمت فيما بعد من «منمجيان»، محجوزة للحالات الخطرة والتى لا يتوقع لها أن تعيش طويلاً. لم يرنى فى بادئ الأمر، فقد كان يراقب فى إعياء ممزوج بالدهشة الممرضة بينما كانت ترتب له وسائده. وأدهشنى تعبير وجهه المتسيد المتأمل الحذر، الذى يحملق من فوق المرتبة، فقد غدا نحيلاً إلى حد يجعل التعرف إليه أمرًا صعبًا. غار اللحم من على عظام وجنتيه معريًا الأنف الطويلة المعقوفة بعض الشيء حتى الجذور، مظهراً بروز المنخرين كنقرتين. وقد أعطى هذا للفم والفكين تعبيراً فرحًا لا بد أنه كان يميز وجهه فى صباه المبكر. كانت عيناه محتقنتين من أثر الحمى، وشعره داكن خشن يظلل رقبته وحلقه، غير أن خطوط وجهه العارية كانت نقية نقاء خطوط وجه رجل فى الثلاثين. واختفت للحال صورته التى احتفظت بها طويلاً فى ذاكرتى، صورة قنفذ يقطر عرقًا، صورة عجل بحر أليف. وحلت محلها صورة هذا الوجه الجديد، هذا الرجل الجديد الذى يبدو مثل واحد من وحوش سفر الرؤيا. ووقفت برهة طويلة أرقب فى دهشة شخصية غريبة عنى وهى تتلقى رعاية الممرضات، بإعياء ذاهل يختص به الملوك وحدهم. وهمست الممرضة المنوط بها العمل فى أذنى: «لقد أحسنت بالحضور. إن أحدًا لن يحضر ويراه. كان يهذى فى بعض الأحيان. ثم يفيق ويطلب الناس. هل أنت أحد أقاربه؟».

وقلت لها: «إننى شريكه فى العمل».

«سيفيده أن يرى وجهًا يعرفه».

غير أنى كنت أتساءل إذا ما كان سيعرفنى؟ فلو أنى تغيرت نصف ما تغير لغدا كلانا غريبًا تمام الغربة عن الآخر. كان يرقد الآن على ظهره، وأنفاسه تصفر بطريقة فظة خلال ذلك الأنف الطويل الذى يشبه أنف الثعلب، وقد استرخى على وجهه كنحت شامخ فى مقدمة سفينة مهجورة. وأزعجته همساتنا، إذ استدار نحوى فوجه إلىّ نظرة غائمة، وإن كانت نقية متأملة، بدت وكأنها نظرة طائر كبير من الطيور الجارحة. غير أنه لم يتعرف إلىّ إلا عندما تحركت بضع خطوات إلى جوار الفراش. ومرة واحدة فاضت عيناه بالضياء، مزيج غريب من المذلة والكبرياء الجريحة، والخوف البرىء. وأدار رأسه نحو الحائط، وأدليت فى اقتضاب برسالتى كلها فى جملة واحدة. قلت: إن «ميليسا» غائبة، وإننى قد أبرقت لها لتعود بأسرع ما فى استطاعتها. وفى تلك الأثناء حضرت لأرى إن كان فى وسعى أن أساعد على أى وجه من الوجوه. واهتزت كتفاه وخيل إلىّ أن أنينًا لا إراديًا على وشك أن ينفجر من بين شفتيه، إلا أن ضحكة ساخرة فظة لا مبالية خالية من النغم انطلقت للحال مكان الأنين. وكأنها تسخر من جيفة نكتة مائتة بالية بالغة العفن لا تستطيع أن تثير فيه شيئًا أكثر من فتحة فمه الشاحبة المقورة فى خديه المشدودين.

قال: «إننى أعرف أنها هنا»، وامتدت إحدى يديه فى سرعة فوق الغطاء كفأر خائف تتلمس يدى: «إننى أشكرك للطفك». وبهذا بدا فجأة وكأنه قد أخذ يهدأ رغم أنه أبقى وجهه بعيدًا عنى. وقال فى بطء وكأنه يجمع شتات نفسه حتى يعطى للجملة معناها المحدد: «لقد أردت، أردت أن أسوى حسابى معها بشرف، لقد عاملتها بطريقة سيئة، سيئة للغاية. إلا أنها بالطبع لم تلحظ ذلك، إنها ساذجة للغاية،

غير أنها طيبة، فتاة طيبة». كان غريبًا أن يسمع المرء جملة «فتاة طيبة» من شفتى واحد من «الإسكندرية» وقد نطقت بالإضافة إلى ذلك بلهجة متكسرة ممطوطة منغمة مألوفة لهؤلاء الذين تلقوا تعليمهم فى هذا المكان. ثم أضاف، وهو يبذل جهدًا واضحًا، ويناضل فى مواجهة مقاومة داخلية هائلة: «لقد خدعتها فيما يختص بمعطفها. لقد كان مصنوعًا من جلد عجل البحر حقًا كذلك كانت العثة قد غزته. فعملت على أن تعيد خياطته. لماذا كان على أن أفعل شيئًا كهذا؟ وعندما كانت مريضة لم أكن أعطيها مالاً حتى تذهب إلى الطبيب. أشياء بسيطة، ولكنها ثقيلة العبء». وتزاحمت الدموع فى عينيه وضاق حلقه وكأنه قد غص بجسامة تلك الأفكار. وابتلع ريقه بجهد قاس وقال: «لم تكن تلك الأفعال جزءًا من شخصيتى. سل أيًا من رجال الأعمال الذين يعرفوننى. سل أىَّ إنسان».

غير أن الارتباك بدأ يسيطر عليه، فقادنى وهو يمسكنى فى رقة من يدى إلى غابة أوهامه الكثيفة، حيث كان يسير خلالها بقدم ثابتة ومعرفة راسخة حتى إننى وجدت نفسى أكاد أساير تلك الأوهام أيضًا. وشكلت أوراق أشجار مجهولة كانت تمر على وجهه فى سرعة قوسًا فوق رأسه، بينما أرصفة من الحصى تحدد طريق العجلات المطاطية لنقالة مليئة بأجسام معدنية وأخرى قاتمة، تتحدث عن حافة الجحيم، وعواء كريه تتخلله عبارات زاجرة باللغة العربية. وكان الألم أيضًا قد بدأ يبلغ عقله وإدراكه ويجسد له الأوهام. وتحولت أطراف السرير البيضاء الصلبة إلى قوالب من القرميد الملون، وتحولت الورقة البيانية البيضاء الخاصة بدرجة الحرارة إلى وجه بحار أبيض.

كانا يسبحان يدًا فى يد، هو و«ميليسا»، عبر مياه «مريوط» الضحلة

الحمراء كالدم، نحو الأكواخ الطينية المزدحمة بلا نظام، حيث وقفت «راكوتيس» ذات مرة. وأعاد سرد أحاديثهما بدقة شديدة حتى إننى رغم ضآلة نصيب حبيبتى من الحديث، استطعت أن أسمع صوتها الرصين، وأن أستنتج أسئلتها من الإجابات التى قدمها لها. كانت تحاول فى استماتة إقناعه بالزواج منها، وهو يلف ويدور ولا يرغب فى فقد جمال شخصها، وبالمثل لا يرغب فى توريط نفسه. لقد شدتنى أمانته الغريبة التى كان يعيد بها سرد كل تلك المناقشة. والتى كان من الواضح أنها تحتل فى ذاكرته مكان واحدة من أعظم التجارب التى مر بها فى حياته. لم يكن يعرف حينذاك كم كان يحبها، وكان علىّ أنا أن أعلمه هذا الدرس. ومن الناحية الأخرى كيف حدث أن «ميليسا» لم تحدثنى على الإطلاق عن رغبتها فى الزواج، لم تكشف لى على الإطلاق عن أعماق ضعفها وإرهاقها كما فعلت معه؟ لقد جرحنى هذا جرحًا عميقًا. لقد طعنت كبريائى فكرة أنها قد أظهرت له جانبًا من طبيعتها، فى حين أنها احتفظت به خافيًا عنى.

وتغير المشهد الآن مرة أخرى ووقعت قدماه على طريق أكثر وضوحًا. لقد بدا الأمر؛ وكأننا قد عثرنا فى هذا الدغل الشاسع من اللامعقول على أماكن خالية يسيطر عليها العقل السليم، حيث استطاع أن ينفض عنه أوهامه الشاعرية. هنا تكلم عن «ميليسا» وهو يفيض بالمشاعر وإن كانت مشاعر رصينة، كزوج أو كملك. لقد بدا الآن والجسد يموت وكأن كل مكونات نفسه الداخلية، والتى احتجزت طويلاً خلف أكاذيب حياة مورست بطريقة خاطئة، قد انفجرت عبر السدود وفاضت تغطى أقرب الأجزاء من وعيه. لم تكن «ميليسا» وحدها التى تكلم عنها، فقد تكلم عن زوجته، وكان فى بعض الأحيان يخلط اسميهما. كذلك كان هنا اسم ثالث، «ربيكا»، كان ينطقه

بتحفظ أعمق، بأسى عاطفى أكثر من الآخرين. وأخذت الاسم على أنه اسم ابنته الصغيرة، لأن الأطفال هم الذين يوجهون الطلقة الأخيرة القاضية وسط كل تلك التعاملات الفظيعة التى يقوم بها القلب.

وبينما أجلس إلى جواره أحس نبضنا يدق فى انسجام وأصغى إليه وهو يحدثنى عن محبوبتى بهدوء جديد مهيب، لم يسعنى إلا أن أرى الكثير من السجايا التى يتمتع بها هذا الرجل، والتى كان من الممكن أن تحبها «ميليسا». أية مصادفة غريبة جعلتها تخطئ الرجل الحقيقى؟ لقد بدا لى الآن منافسًا خطيرًا لم أكن متنبهًا لقدراته، بعيدًا كل البعد عن ذلك الشيء الذى يوضع موضع الازدراء كما كنت أنظر إليه على الدوام، وواتتنى فكرة دنيئة حتى إنى أخجل من كتابتها. لقد شعرت بالسرور لأن «ميليسا» لم تحضر لتراه وهو يموت وإلا لرأته كما رأيته أنا الآن، وربما اكتشفته مرة أخرى فى غمار الصدمة. ولقد وجدت نفسى بسبب واحد من تلك التناقضات الوهمية التى يسبح فيها الحب منتشيًا، أحس الغيرة منه وهو يموت أكثر مما أحسست بها خلال حياته. لقد كانت تلك الأفكار أفكارًا فظيعة بالنسبة لامرئ عانى من الحب طويلاً وكان من مريديه الظرفاء. ولكنى عرفت فيها مرة أخرى وجه «أفروديت» الصارم اللامبالى البدائى.

وعرفت من خلاله على نحو ما، من صدى صوته وهو ينطق باسمها، نضجًا كنت أفتقده، لأنه قد تغلب على حبه لها دون أن يدمره أو يصيبه بالضرر. لقد تركه ينضج كما يجب أن ينضج كل حب، إلى صداقة متفانية تذوب فيها شخصيته. إنه لم يطلب أن يراها خوفًا من الموت أو لحاجته إليها كى تواسيه، ولكنه أراد أن يقدم لها من خزائن رجل يحتضر، من خزائنه التى لا تفنى، عطية أخيرة.

كان معطف السمور الفاخر يرقد ملفوفًا فى ورق رقيق للغاية فوق الكرسى عند نهاية الفراش، وكان فى وسعى أن أدرك من نظرة واحدة أنه لم يكن من نوع الهدايا التى تقدَّم إلى «ميليسا»، فقد كان حريّا به أن يثير الاضطراب فى صوان ملابسها الضيق الرث، متفوقًا بحسنه على كل ما لديها. وقال فى سعادة: «لقد كنت وأنا حى أحس على الدوام بالقلق فيما يختص بالمال. ولكن عندما تحتضر فإنك تجد نفسك فجأة رجلا ذا مال». لقد كاد أن يكون قادرًا على الابتهاج لأول مرة فى حياته. غير أن المرض كان يربض هناك كعليل صبور ونذير لا يرحم.

كان يمر بين الحين والآخر بفترة قصيرة من النوم القلق والظلام يطن حول أذنيّ المتعبتين مثل خلية نحل، كان الوقت متأخرًا ورغم ذلك، لم أستطع أن أحمل نفسى على تركه. وأحضرت لى ممرضة، ممن يناط بهن العمل، كوبًا من القهوة وتحدثنا فى همس. لقد كان مريحًا لى أن أسمعها تتكلم، فالمرض بالنسبة لها لم يكن غير مهنة أجادتها وموقفها منه هو موقف الأجير الذى ينال أجره عن كل يوم يعمل فيه. قالت فى صوتها البارد: «لقد هجر زوجته وطفلته من أجل امرأة ما. والآن لا ترغب زوجته ولا المرأة، التى كانت عشيقته، فى رؤيته. حسنًا»، وهزت كتفيها. إن تلك المشاعر المعقدة من الوفاء لا تثير فى نفسها أى إحساس بالشفقة، فقد كانت لا ترى فيها إلا نقاط ضعف لا تستحق منها غير الازدراء. وسألتها: «لماذا لا تحضر الطفلة؟ ألم يطلب رؤيتها؟» ولكنها سلّكت سنتها الأمامية بظفر إصبعها الصغير وقالت: «نعم لقد طلبها، ولكنه لا يود أن يفزعها بأن يجعلها تراه وهو مريض. إنك تدرك أن هذا الأمر لا يسعد طفلة». والتقطت رشاشة وأخذت تبخ فى تراخ شيئًا من المطهر فى الهواء فوقنا، مما ذكرنى بشكل قاطع بـ«منمجيان». ثم أضافت قائلة: «لقد تأخر الوقت، فهل ستمضى الليل هنا؟».

كنت على وشك أن أتحرك، غير أن النائم استيقظ وقبض على يدى مرة أخرى وقال فى صوت عميق ممزق لكنه يدل على سلامة العقل، وكأنه قد سمع العبارات الأخيرة من حديثنا. «لا تذهب. ابق قليلاً. هناك شىء آخر كنت أفكر فيه ويجب أن أصارحك به». واستدار نحو الممرضة وهو يقول فى هدوء ولكن فى وضوح «اذهبى» فسوّت الفراش وتركتنا وحدنا مرة أخرى. وأطلق تنهيدة عميقة تبدو للمرء، إن لم يكن مراقبًا وجهه، وكأنها تنهيدة ارتياح وسعادة. وقال: «ستجد ملابسى فى الدولاب». كانت هناك بدلتان غامقتان وأخرجت، حسبما أشار، صديرية واحدة منهما، وأخذت أصابعى تتحسس ما فى جيوبها حتى عثرت على خاتمين: «لقد عزمت على أن أتقدم أطلب الزواج من «ميليسا» إن رغبت الآن. لهذا السبب أرسلت إليها. ومع ذلك فما فائدتى؟ اسمى مثلاً؟» وابتسم ابتسامة غامضة وهو ينظر إلى السقف. «والخاتمان...» وأمسك بهما بين أصابعه فى رقة وتبجيل كما يمسك المرء بقربان المناولة المقدس: «إنهما الخاتمان اللذان اشترتهما «ميليسا» لنفسها منذ زمن طويل. ولهذا يجب أن تأخذهما. فربما...» ونظر إلىّ نظرة طويلة بعينين متألمتين متسائلتين. وقال: «ولكن كلا. إنك لن تتزوجها. ما الذى يضطرك إلى ذلك؟ ولا يهمك خذهما والمعطف إليها».

ووضعت الخاتمين فى جيب معطفى العلوى ولم أقل أى شىء. وتنهد مرة أخرى ولدهشتى أخذ يغنى، فى صوت واهن يكاد أن يكون خافتًا كصوت قزم صغير، يتلو أبياتًا قليلة من أغنية شائعة اسمها «محال». والتى كانت ذات يوم الأغنية التى جنت بها «الإسكندرية»، والتى كانت «ميليسا» لا تزال ترقص على أنغامها فى

الكباريه. وقال لى: «أصغ إلى الموسيقى» وفكرت فى الحال فى «أنطونيو» وهو يحتضر فى قصيدة «كافافى»، قصيدة لم يقرأها على الإطلاق، ولن يقرأها البتة. وزعقت الصفارات فجأة عند الميناء كنجوم تعانى الألم. ثم سمعت هذا القزم مرة أخرى يغنى فى رقة عن الحزن والسعادة، لم يكن يغنى لـ «ميليسا» ولكنه كان يغنى لـ «ربيكا». وما أشد اختلاف هذا الغناء عن غناء جوقة المرتلين العظيم الممزق للقلب الذى سمعه «أنطونيو»، الثراء الذى تتمتع به حدة الأوتار والأصوات التى انطلقت فى الشارع المظلم، آخر ما تمنح «الإسكندرية» لهؤلاء الذين اختارتهم نماذج يعبرون عنها. إن كل إنسان يغادر هذا العالم على أنغام موسيقاه الخاصة، وفكرت وتذكرت وأنا أحس بالخجل والألم الحركات غير المتقنة التى كانت تقوم بها «ميليسا» وهى ترقص.

كان قد انساق الآن إلى حافة النوم وقدرت أن الوقت قد حان كى أتركه وأنصرف. فأخذت المعطف ووضعته فى درج الدولاب السفلى، قبل أن أخرج على أطراف أصابعى وأستدعى الممرضة المنوط بها العمل. والتى قالت «إن الوقت متأخر للغاية» فقلت لها «سأحضر فى الصباح». وكنت أعنى ما أقول.

وبينما أسير على مهل إلى منزلى عبر الشارع المظلم الذى تصطف الأشجار على جانبيه أتذوق ريح الميناء المالحة الطعم، تذكرت «جوستين» وهى تقول فى صوت أجش بينما ترقد فى السرير: «إننا نستخدم بعضنا البعض كمعاول نهدم بها هؤلاء الذين نحبهم حبّا حقيقيّا».

* * *

كثيرًا ما قيل لنا: إن التاريخ محايد، إلا أننا نأخذ ما يصدر عنه من

تقتير أو وفرة مأخذ الأمر الذى تدبره قوة ما، إننا فى الحقيقة لا نصغى أبدًا.

وهأنذا الآن أسير على شبه الجزيرة المكفهرة تلك، التى تشبه ورقة مسطحة، وتمتد كأصابع اليد (حيث تطقطق أمطار الشتاء بين الصخور فى صوت كصوت القش) أسير وأنا متصلب متيبس تلفنى الرياح قرب شاطئ يخنقه أنين الإسفنج أبحث عن معنى للنموذج.

وأعتقد، كشاعر للوجدان التاريخى، أننى مضطر إلى رؤية الطبيعة كحقل تسوده الرغبة الإنسانية. حقل قد مزق إلى مزارع وكفور، وحرث لتقام عليه المدن. منظر عام شخبطته توقيعات الرجال والعصور. ومع ذلك فقد بدأت أعتقد الآن، أن الرغبة قد آلت إلى الإنسان من الموقع الذى يعتمد عليه فى تزويد وتأكيد إرادته على مكانه فى الأرض، سواء كان مستأجرًا لفدادين مثمرة أم لغابة مجدبة. إننى لا أرى الآن أثر ضرباته الإرادية فوق الطبيعة (كما اعتقدت) ولكنى أرى النمو الذى لا يقاوم، لنظريات الطبيعة التلقائية غير المحدودة عن التباين والألم من خلال هذا الإنسان. لقد اختارت الطبيعة هذا المكان المسكين المتشعب نموذجًا لها. ولذا يبدو من التفاهة بمكان أن يقول أى رجل كما سمعت «بلتازار» يقول ذات مرة «إن رسالة: «القابال»، إذا كان لها ثمة رسالة، هى أن تشرف الوظيفة، حتى إن قدر الأكل والإفراز يرتفع إلى مرتبة الفنون»، وسترى فى كل هذا ازدهارًا للشك الكامل الذى سيقوض إرادة البقاء. إن الحب وحده هو الذى فى وسعه أن يمد الإنسان بسند لفترة أطول قليلاً.

إننى أعتقد، أيضًا، أن شيئًا كهذا كان يجول بخاطر «الأرناؤوطى»

عندما كتب: «لقد انتهى البشر كحالات نفسية تطرح أمام الكاتب. إن النفس الإنسانية المعاصرة قد انفجرت فى ظل الأبحاث التى يقوم بها هؤلاء الذين يفسرون ما غمض من الأمور، فماذا بقى الآن للكاتب؟».

لعل إدراكى لهذا الأمر هو الذى حدا بى إلى اختيار تلك البقعة الحالية كى أقضى بها السنوات القليلة القادمة، فى هذا اللسان الذى حرقته الشمس فى جزر بحر «إيجة». إن هذه الجزيرة المحاطة بالتاريخ من كل جانب هى وحدها الخالية من كل مرجع تاريخى. إنها لم تذكر البتة فى تواريخ الجنس الذى ننتمى إليه. إن ماضيها قد رد إليها من خلال المكان، لا عبر الزمان، حيث لا توجد بها معابد ولا حدائق ولا مدرجات تفسد الأفكار بمقارناتها الزائفة. صف من القوارب الملونة، وميناء فوق التلال، ومدينة صغيرة جعلها الإهمال جرداء.

هذا كل ما هناك. وسفينة تجارية تمر بها مرة كل شهر خلال طريقها إلى «أزمير».

وتتسلق عواصف البحر، فى تلك الأمسيات الشتوية، صخور الساحل الوعرة وتغزو أحراش الوديان الهائلة التى لا يرعاها أحد، حيث أسير أتحدث فجأة بلغة عامية برية وأنا أدفع وأزيح جانبًا تلك الأشجار ذات الفروع التى تشبه قلاع السفينة.

إننى أسير هنا ترافقنى تلك الإيحاءات التى تثير الحسد لماض لا يستطيع أن يشاركنى فيه أحد. وحتى الزمن نفسه لا يستطيع أن يحرمنى منه. إن شعرى مثبت إلى الخلف فوق رأسى، وراحة يدى تحمى من قوة الريح بقايا التبغ المشتعل فى غليونى. وقد رصعت السماء من فوق بصفوف متماثلة من النجوم المتلألئة. ونجم «قلب العقرب» ينساب

هناك وقد غلفه الرذاذ . . . إننى أهجر ، وأنا أحس بالبهجة ، أصدقاء وكتبًا فى متناول اليد ، غرفًا مضاءة ، مدافئ بنيت لتقام حولها المناقشات ، كل رغبة العقل المتمدين ، إننى أفعل ذلك الشىء وأنا لا أندم عليه ، ولكن أحار له فقط .

وأرى فى هذا الاختيار أيضًا شيئًا عرضيًا ولدته بواعث أجد نفسى مضطرًا لاعتبارها شيئًا خارج نطاق ما جلبت عليه . ومع ذلك ، فإنه لأمر غريب حقًا أننى هنا فقط استطعت أخيرًا أن أدخل من جديد وأن أستوطن مرة أخرى ، أنا وأصدقائى ، المدينة التى لا تندثر ، وأن أصوغهم فى نسيج متماسك كالفولاذ فى الكتابات التى سوف تدوم نصف عمر المدينة . أو هذا ما أتمناه . هنا على الأقل أستطيع أن أرى تاريخهم وتاريخ المدينة كشىء واحد وكظاهرة واحدة .

غير أن أغرب ما فى الأمر : أننى مدين بهذه الانطلاقة لـ«بورسواردن» ، آخر شخص كان على أن أعتبره مصدرًا محتملاً من مصادر الخير . ففى ذلك اللقاء الأخير ، مثلاً ، فى الفندق فى حجرة النوم القبيحة الغالية والتى كان ينتقل إليها كلما عاد «بومبال» من إجازته . . . لم أدرك فى رائحة الحجرة العفنة الثقيلة رائحة انتحار وشيك الوقوع ، وأنَّى لى أن أدرك ذلك؟ كنت أعرف أنه تعس ، حتى لو لم يكن كذلك . فقد كان مضطرًا لأن يتظاهر بالتعاسة . إنه لأمر متوقع ، من جميع فنانى هذا العصر أن ينمو ، على سبيل الموضة ، شىء من التعاسة فى نفوسهم . ولكونه «أنجلو ساكسونيًا» فقد كانت به لمسة من الضعف والإشفاق العاطفى الشديد على ذاته ، مما حدا به كى يشرب قليلاً . لقد كان فى الليلة متوحشًا وغبيًا وسريع الخاطر على التوالى . وأذكر أنه بينما كنت أستمع إليه ، خطر ببالى ذلك الخاطر فجأة : «هنا إنسان أهمل أحاسيسه

بينما كان ينمى موهبته، ولم يحدث هذا الأمر عرضًا، ولكنه حدث عن قصد وعن عمد، فقد كان التعبير عما بنفسه خليقًا بأن يضعه فى تناقض مع العالم، أو أن وحدته كانت تهدد عقله وإدراكه. لم يكن فى مقدوره احتمال حرمانه واستبعاده، وهو لا يزال على قيد الحياة، من قاعات الشهرة والتمايز. وتحت كل هذا كان يعانى على الدوام من إدراك لا يكاد يحتمل بخسته الذهنية. والآن لقد بلغ مجرى حياته مرحلة مثيرة: أعنى النساء الجميلات، اللواتى كان يحس دائمًا، شأنه فى ذلك شأن ريفى هياب، أنهن بعيدات المنال، وهن الآن سعيدات بأن يراهن الناس فى صحبته. إنهن يلبسن فى حضرته مسوح عرائس الشعر الساهيات قليلاً واللائى يعانين من الإمساك. ويرضى غرورهن إن هو أمسك على مشهد من الناس بيد موضوعة فى قفاز لمدة أطول مما يسمح به العرف. ولابد أن كل هذا كان فى البدء بلسمًا لغرور رجل يعانى الوحدة، ولكنه عمق فى النهاية شعوره بالقلق والخطر. لقد بدأت حريته التى اكتسبها عن طريق نجاحه المالى المتواضع تبعث بالضجر فى نفسه، لقد أخذ يحس أكثر فأكثر بحاجته إلى العظمة الحقيقية، بينما كان اسمه ينتفخ كل يوم كلافتة مقززة. لقد أدرك أن الناس يسيرون الآن فى الشوارع مع الاسم الذى اشتهر وليس مع الرجل الذى يحمل هذا الاسم. إنهم لم يعودوا، مع أن كل أعماله إنما كتبها لتجذب الانتباه إلى الشخصية التى تعانى الوحدة وتتألم والتى أحس أنه يعبر عنها. لقد غطاه اسمه كشاهد القبر. والآن تأتى الفكرة المرعبة، ربما لم يعد هناك أحد ليراه الناس؟ ومع ذلك فمن يكون هو؟

إننى لست فخوراً بتلك الأفكار، فهى تفضح الحسد الذى يحسه كل فاشل إزاء كل ناجح. غير أن الضغينة غالبًا ما ترى بوضوح كذلك الوضوح الذى يرى به البر والإحسان. وفى الحقيقة فقد عبرت

خـاطرى، وفى خط مـتـواز لتلك الأفكار، كلمـات «كليـا» التى استخدمتها ذات مرة فى وصفه، والتى لسبب ما أتذكرها الآن وأمعن الفكر فيها: «إنه منفر فى بعض النواحى. ويكمن جزء من ذلك السر فى تجهـمه الطبيعى، إذ توجد فى موهبته بذرة من الخجل ترجع إلى انزوائه. وللخـجل قـوانين: إذ ليس فى اسـتطاعـتك أن تهب ذاتك بطريقة مأساوية، إلا لأولئك الذين يفهمون أقل مما يفهم الجميع. لأن تَفَهُّم إنسان يتطلب إظهار الشفقة على ما فى هذا الإنسان من ضعف الإرادة. ومن هنا فإن النساء اللواتى يحبـهن والرسائل التى يكتبـها إليهن، إنما تقوم فى عقله مقام الرموز لهؤلاء اللواتى يعتقد أنه يرغب فيهن، ويستحقهن على أية حال من الأحوال، يا صديقى العزيز».

وتنقطع عبارات «كليا» دائمًا فى منتصفها وتنتهى بتلك الابتسامة الساحرة المليئة بالرقة، «هل أنا مسئول عن حراسة أخى؟».

(إن أهم ما أحتاج إليه هو تسجيل التجارب، لا بالترتيب الذى وقعت فيه، لأن ذلك هو التاريخ، ولكن بالترتيب الذى غدت فيه لأول مرة ذات دلالة بالنسبة إلىَّ).

ماذا إذن، كان حافز «بورسواردن» كى يترك لى خمسمائة جنيه بشرط واحد هو أن أنفقها مع «ميليسا»؟ واعتقدت أنه ربما أحبها هو نفسه، ولكن بعد تفكير عميق انتهيت إلى أنه لم يحبها هى، ولكنه أحب حبى لها. وأنه بالنسبة لجميع فضائلى لم يكن يحسدنى إلا لقدرتى على الاستجابة بحرارة لتودد الآخرين، الأمر الذى كان يعرف قدره، حتى لعله تمناه، غير أنه سيكون محرومًا منه إلى الأبد لأنه يشمئز من نفسه. والحقيقة أن هذا الشىء بذاته كان لطمة موجهة إلى كبريائى، فقد كنت أحب أن يبدى إعجابه، إن لم يكن بالعمل الذى

أنجزته، فعلى الأقل بما يكشف عنه هذا العمل من أمل يرجى لمستقبل أعمالى الأدبية. ما أغبانا! وما أضيق أفقنا، إننا مجرد أباطيل تسعى على أقدام.

لم نكن قد التقينا لأسابيع، فإن أحداً منا لم يكن يتردد عادة على مسكن الآخر، وعندما حدث أن التقينا تم ذلك فى المرحاض المصنوع من الصفيح فى الميدان الرئيسى إلى جوار محطة الترام، كان ذلك بعد أن حل الظلام، وكان من الممكن ألا يرى أحدنا الآخر، لولا أن غمرت المصابيح الأمامية لإحدى السيارات هذا المكان الكريه الرائحة مصادفة بضوء أبيض كالرذاذ. وقال وقد تعرف إلى: «آه»، قالها دون اتزان وبعد تفكير، فقد كان مخموراً (وكان قبل ذلك بعدة أسابيع قد ترك لى فى وصيته خمسمائة جنيه، وهذا يعنى أنه قد حكم على وقيّمنى، رغم أن هذا الحكم لم يكن ليبلغنى إلا عندما يذهب إلى القبر).

كان المطر يقرض السقف المصنوع من الصفيح فوقنا. وتقت للذهاب إلى منزلى، فقد قضيت يوماً مرهقاً، لكنى تريثت فى ضعف، وقد عاقنى عن الذهاب ما أحسه على الدوام من آداب المجاملة نحو هؤلاء الذين لا أكن لهم حبّا. وحدد الجسد المترنح بعض الشىء ملامحه أمامى فى الظلام. وقال فى لهجة عاطفية واضحة: «دعنى أستودع فيك سر حرفة الروائى. فأنا ناجح وأنت فاشل. إن الجواب أيها العجوز، هوالجنس والكثير من الجنس». ورفع رأسه وذقنه وهو يقول أو يلقى بطريقة خطابية، بكلمة «الجنس». وأمال رقبته الضامرة، كما تفعل الدجاجة عند الشرب، وقضم الكلمة وهو ينبح كصول يدرب الجنود. وقال مكرراً بطريقة أكثر طبيعية: «سياط الحب ولكن تذكر»، ثم جعل صوته يهبط إلى تمتمة كمن يهمس سرّاً خاصّاً. «عليك

بالبقاء متحفظًا حتى التزمت. فتقاليد الجدة الخالدة كفيلة بأن تنقذك، عليك أن تظل متحفظًا تعانى الألم. حاول وابدُ كأنك تعانى انقباضًا، فذلك عنوان النخبة الممتازة فى المجتمع. أما عن الأنخاب الوقحة، والتصرفات القبيحة ما كان منها طبيعيًا أو هزليًا، فهى أمور لا يسمح بها. لقد كانت هذه أعمال لا غبار عليها أيام «شوسر» و«اليصابات» إلا أنها لا ترفع من قدر المرء فى هذه الأيام. كن متزمتًا وتلفع بثياب الوقار كشيخ من شيوخ الكنيسة». وأدار نحوى فى نفس اللحظة التى نفض فيها عن نفسه كل دخيلته وجهًا تشكل فحاكى غطاء الزرار. كان مشدودًا ضيقًا غريب المنظر. وشكرته، غير أنه أزاح شكرى جانبًا بطريقة ملكية. وقال: «كل هذا مجانًا بلا مقابل». ثم أمسك بى من يدى وقادنى إلى الخارج، إلى الشارع المظلم. وسرنا نحو وسط المدينة كعبدين، ككاتبين تربطهما الزمالة، يثقل كلاً منا إحساس مختلف بالفشل. كان يتحدث بثقة إلى نفسه فى تمتمة لم أستطع تبينها عن أمور تهمه. وعندما استدرنا نسير فى «شارع الراهبات» توقف أمام باب مضاء هو باب منزل سيئ السمعة وقال: «يقول «بودلير» إن المضاجعة هى موال الرعاع، ولكنها للأسف لم تعد كذلك! إذ إن الجنس يموت. وبعد قرن آخر سنرقد ولسان كل منا فى فم الآخر، فى صمت وبلا وجد كفاكهة البحر. حقًا! سيحدث هذا ما فى ذلك شك». ثم استشهد بالمثل العربى الذى يستخدمه كالشيء المميز لثلاثيته. «الدنيا زى الخيارة، النهاردة فى إيدك وبكره فى.... » وتابعنا بعدئذ خطانا نتقدم نحو الفندق الذى يقطنه «كأبو جلمبو» وهو يكرر فى سعادة ظاهرة قوله: «ما فى ذلك شك» لما فى جرسه من نعومة متفجرة. كان شاحبًا هزيلاً، وقد طالت ذقنه، غير أنه كان يتمتع بمعنويات طيبة بعد هذه النزهة، والتجأنا إلى زجاجة من «الجين» كان يحتفظ بها فى

«الكومودينو» إلى جوار سريره. وأشرت إلى الحقيبتين المتفختين والقائمتين إلى جوار منضدة الزينة وقد تم ربطهما بالأحزمة، وكان معطفه الواقى من المطر ملقى فوق أحد الكراسى وقد حشى بالصحف، كذلك بيجامته، ومعجون الأسنان. . . . إلخ. فقال إنه كان يعتزم اللحاق بقطار المساء إلى «غزة». كان يود أن يستجم وأن يزور «بترا». وكانت ترقد فوق رخام منضدة الزينة، مسودات آخر رواية كتبها وقد صححت ولفت وكتب عليها العنوان. وعرفت فى مسلكه الفظ الكآبة والإرهاق الذى يلاحق الفنان عندما يصل بواحدة من أعماله إلى نهايتها. تلك هى لحظات الهبوط النفسى عندما تبدأ هواجس الانتحار فى الانتعاش من جديد.

إننى لا أستطيع، لسوء الحظ، أن أستعيد إلا القليل من المناقشة الفعلية التى دارت بيننا، رغم أنى كثيراً ما أحاول استعادتها كاملة. وإذا عدنا إلى الماضى، فإننى أجد كون هذا اللقاء هو اللقاء الأخير قد أحاطه بأهمية لا يستحقها دون شك. فإن «بورسواردن» لم يكف عن الوجود كهدف من أهداف هذا الكتاب، لقد انتقل كما سننتقل جميعًا إلى المرآة الزئبقية العاكسة التى هى ذكرى أصدقائنا، حيث نترك وراءنا أمراضنا، وأفعالنا الشريرة، وأوكار رغباتنا التى تشبه أعشاش الزنابير، والتى ما زالت تؤتى الخير أو الشر فى العالم الحقيقى. ومع ذلك فإن وجود الموت يزيد من حنكتنا، وتلك هى وظيفته: إنه يساعد على إبعاد الفكر فى كل ما يجد على الزمن. ومع ذلك ففى تلك اللحظة كان كلانا يقف على بعد متساو من الموت، أو هذا ما ظننته. ولربما كان يزدهر فى أعماقه حينذاك شىء من التصميم الصامت على الموت، ما المشكلة؟ ليس فى وسعى أن أحدد. إذ ليس خافيًا أن أى فنان يرغب فى إنهاء حياة قد استنفدها، (ففى كتابه الأخير تصرخ إحدى

الشخصيات: «لسنوات كان على المرء أن يحتمل الشعور بأن الناس لا تعبأ به، لا تبالى به مبالاة حقيقية، ثم يدرك المرء ذات يوم بانزعاج متزايد: أن الله هو الذى لا يعبأ وأن الأمر لا يقف عند هذا الحد ولكنه لا يعبأ به على أية حال من الأحوال».

غير أن هذا الجانب يذكرنى بجزء صغير من ذلك الحديث المخمور، فقد تكلم فى هزء وسخرية عن «بلتازار»، وعن انشغاله بأمور الدين، عن «القابال» (التى كان قد سمع باسمها فقط) واستمعت إليه دون أن أقاطعه وأخذ صوته يهبط بالتدريج كساعة حائط قهرها ثقل الثوانى. وانتصب ليصب لنفسه كأسًا وقال: «إن المرء يحتاج إلى قدر هائل من الجهل حتى يقرب من الله. وأعتقد أنى كنت أعرف على الدوام أكثر مما يجب».

إن تلك الشذرات تثير الغيظ فى عقلى اليقظ فى مثل تلك الأمسيات، وأنا أسير فى ظلام الشتاء، إلى أن أعود فى النهاية إلى طقطقة نيران خشب الزيتون فى المدفأة المقوسة القديمة الطراز، التى ترقد إلى جوارها «جوستين» الطفلة نائمة فى سريرها الهزاز المصنوع من خشب الصنوبر الذكى الرائحة.

إلى أى مدى أستطيع الادعاء بأنى أعرفه؟ إننى أدرك أن كل امرئ فى وسعه أن يدعى معرفة جانب من شخصيتنا كجزء من خبرتنا. إننا نذير لكل إنسان وجهًا مختلفًا من وجوهنا التى تشبه المنشور. ولقد وجدت نفسى مرة بعد أخرى مفاجأ بمشاهدات تذكرنى بهذه الفكرة. كما حدث مثلاً عندما قالت «جوستين» عن «بومبال»: «إنه واحد من أعظم فرسان الجنس». رغم أنه لم يبد لى على الإطلاق مفترسًا سلابًا. لم يكن غير مفرط فى ذاته إلى حد يثير الضحك والسخرية. كنت أرى

فيه شخصًا مسليًا ومؤثرًا، خليقًا بأن يكرم بعض الشىء لقدرته الفطرية على السخرية. غير أنها لا بد وقد رأت فيه القط الكبير الناعم.

وأما بالنسبة لـ «بورسواردن»، فإننى أتذكر، أيضًا، أنه شد قامته فى نفس الوقت الذى كنا نتحدث فيه عن الجهل الدينى ولمح صورته الشاحبة المنعكسة فى المرآة. فرفع الكأس إلى شفتيه، وأدار رأسه، ثم ألقى بملء فيه من الشراب على انعكاس صورته اللامع. ستظل تلك الصورة باقية واضحة فى رأسى، انعكاس متميع لصورة تلك الحجرة القذرة الباهظة الإيجار والتى تبدو الآن مكانًا مناسبًا تمامًا للمشهد الذى حدث فيما بعد فى تلك الليلة ذاتها.

* * *

«محل زغلول»، أوان فضية وحمائم موضوعة فى الأقفاص. كهف كالقبو رصت على جانبيه براميل سوداء وقد اختنق بدخان السمك المقلى ورائحة «الريتزيناتو». رسالة قد شخبطت على طرف جريدة. هنا سكبت الخمر على معطفها، وقد لمست نهديها دون قصد بينما كنت أحاول مساعدتها فى إصلاح الضرر. لم تصدر ولا كلمة واحدة عن أى منا. بينما «بورسواردن» ما زال يتكلم فى تألق عن «الإسكندرية» ومكتبتها التى احترقت. وفى الحجرة التى فوقنا يصرخ فقير مصاب بالتهاب سحائى.

يجىء اليوم، على غير انتظار، مطر ربيعى غير طبيعى، يجمد غبار المدينة وحبوب لقاح أزهارها، يدق سقف المرسم الزجاجى حيث يجلس «نسيم» عاكفًا على الرسم التخطيطى لوجه زوجته. لقد أمسك بها لحظة كانت تجلس تغنى أمام النار وبين يديها جيتار، وقد لفت عنقها بوشاح منقط، وقد مالت برأسها. ويتداخل ضجيج صوتها فى مؤخرة

رأسه كآثار صوت هزة أرضية تندفع متراجعة. وينصب المطر فوق الحدائق صب نبال هائلة حيث تميل أشجار النخيل إلى الوراء وقد توترت، أسطورة الأمواج الصفر الهامات تهاجم الفراعنة.

وتمتلئ المدينة فى الليل بأصوات جديدة، أصوات شد الريح وضغطها، حتى تحس وكأن المدينة قد غدت سفينة، أخشابها القديمة تئن وتزيِّق مع كل هجمة يقوم بها الطقس.

هذا هو الطقس الذى يعشقه «سكوبى». إنه يرقد على فراشه يدلك منظاره المكبر فى حب، ملقيًا بنظرة مشتاقة إلى الحائط الطينى الأصم، الذى يحجب عنه منظر البحر.

إن «سكوبى» يناهز السبعين من عمره، ولكنه ما زال يخشى الموت، والشىء الوحيد الذى يخافه هو أن يستيقظ ذات صباح فيجد نفسه ميتًا، اللفتنانت كوماندر «سكوبى» الضابط بالإمبراطورية البريطانية. ولذا تهزه بشدة صيحات السائقين كل صباح تحت نافذته قبل الفجر فتوقظه، إنه يقول: إنه يظل للحظة لا يتجاسر على فتح عينيه، فيبقيهما مغلقتين تمامًا (خشية أن تفتحا على مضيف سماوى أو على الملائكة وهم يترنمون) ويتحسس حامل الفطائر الموجود إلى جانب سريره حتى يمسك بغليونه. إنه محشو على الدوام منذ الليلة السابقة وقد وضعت إلى جواره علبة ثقاب مفتوحة. ويستعيد رباطة جأشه وإبصاره مع أول نفس من أنفاس الدخان. فيتنفس فى عمق مسرورًا لتأكده أنه ما زال على قيد الحياة مرة أخرى. فيبتسم. ويتفرس فيما حوله. ويسحب فروة الخروف التى يستخدمها كغطاء حتى أذنيه وينشد للصباح أغنيته القصيرة، أغنية الشكر، على انتصاره فى صوت يطقطق كرقائق الصفيح: «اسكت أيها الطفل الصغير، دع أمك تتكلم».

ويتلون خداه المترجرجان كخدى نافخ البوق باللون الوردى من الجهد الذى يبذله. ويكتشف عندما يتنبه إلى نفسه أنه يعانى من الصداع الذى لا مفر منه. ولسانه يؤلمه من خمر الليلة الماضية. غير أن منظر يوم آخر من أيام الحياة يساوى الكثير لديه فى مقابل تلك المضايقات التافهة. ويغنى «اسكت أيها الطفل الصغير» وهكذا. ثم يتوقف عن الغناء ليدس طاقم أسنانه فى فمه. إنه يضع أصابعه المجعدة على صدره يعزى نفسه بصوت قلبه وهو يعمل، محافظًا على دورته الدموية المرتجفة فى ذلك الجهاز المكون من الأوردة، والذى لا يعوض قصوره (لست أدرى إن كان هذا حقّا أم من نسج الخيال) إلا جرعات يومية قاتلة من البراندى. لذا فهو فخور بقلبه. ولو حدث أن زرته، وهو فى الفراش، فكن على يقين بأنه غالبًا ما سيقبض على راحتك قبضة فك حيوان صلب صلابة القرن ويسألك أن تحس نبضه. «إنه قوى كقلب ثور، ماذا؟ «يتكتك» بطريقة ظريفة». هكذا يتحدث عن قلبه، رغم البراندى. وحتى تجاريه بعض الشىء، فإنك تدس يدك داخل سترة نومه الرخيصة وأنت تبلع ريقك لتختبر ضربات الحياة، القليلة، الحزينة، الضعيفة النائية والتى تشبه دقات قلب جنين فى شهره السابع. ثم يزرر بيجامته فى إعزاز ويطلق صيحته التى يقلد فيها زئير الحيوان الذى يتمتع بصحة جيدة. ويقول: «وأقوم واثبًا من فراشى كالأسد». وتلك واحدة أخرى من مأثوراته. إنك لن تتعرف على سحر هذا الرجل تعرفًا كاملاً، حتى تراه بالفعل، وقد انحنى ظهره من الروماتيزم، خارجًا يزحف كحطام إنسان من بين بطاطينه القطنية الخشنة، إن عظامه لا تلين بمقدار يجعله قادراً على أن يقف منتصب القامة، إلا فى أكثر شهور العام دفئًا، وهو يتمشى فى عصارى أيام الصيف فى الحديقة، وطاسة رأسه الصغيرة تتوهج كشمس صغيرة،

وغليونه مسدد نحو السماء، وقد أطبق فكيه فى تقطيبة عنيفة كمن يتمتع بصحة فاجرة.

إن أسطورة المدينة لا تكتمل دون «سكوبى»، وستفتقد «الإسكندرية» شخصيته عندما يتدلى، فى النهاية، جسده الذى جففته الشمس، وقد لف فى علم المملكة المتحدة، فى المقبرة الضحلة التى تنتظره فى جبانة الروم الكاثوليك قرب شريط الترام.

إن راتب التقاعد الضئيل الذى يتقاضاه من البحرية لا يكاد يكفى إيجار الحجرة الوحيدة التى يسكن فيها فى المنطقة القذرة الفقيرة المزدحمة خلف «شارع التتويج» والتى تحتلها الصراصير، ولكنه يغطى النقص الذى يعانيه براتب تقاعد مماثل يتقاضاه من الحكومة المصرية. فهو يحمل بالإضافة إلى ذلك لقب «بمباشى» بقوة البوليس، وهو لقب يثير فى النفس الكبرياء، وقد رسمت له «كليا» صورة رائعة وهو فى زى رجل البوليس والطربوش القرمزى على رأسه، وقد رقدت منشته الهائلة السميكة، ذيل الحصان، فى رشاقة على ركبتيه العظميين.

إن «كليا» هى التى تمده بالتبغ وأنا أمده بالإعجاب والصحبة والبراندى إذا كانت حالة الجو تسمح بذلك. وقد أخذنا على عاتقنا، أنا و«كليا»، أن نتناوب الإشادة بصحته. ونقوم بإنهاضه عندما يضرب صدره بقوة زائدة فى غمرة حماسته لإثبات قوته. ليس لـ «سكوبى» أصل ينسب إليه، إذ يتجمع ماضيه كمادة أسطورية حقيقية عبر دستة من القارات. كما أن حاضره غنى بما يتخيله عن صحته حتى إنه لا يطلب المزيد، إلا رحلة يقوم بها أحيانًا إلى «القاهرة» خلال شهر «رمضان» عندما يغلق مكتبه حيث يفترض أن تتوقف كل الجرائم بسبب الصيام.

الشباب أمرد وكذلك مرحلة الطفولة الثانية. ويشد «سكوبى» فى

حنان بقايا لحية كانت ذات يوم وسيمة كثة تشبه الطوربيد، ولكنه يشدها فى رقة، ودلال، خوفًا من أن يقتلعها كلها، ويترك وجهه عاريًا تمام العرى. إنه يتشبث بالحياة تشبث نوع من الأصداف بالصخور، نوع لا يظهر عليه تأثير البحر كل عام إلا فى صورة طفيفة للغاية. يبدو وكأن جسده يتضاءل، يتقلص، بمرور فصول الشتاء، وسرعان ما ستغدو جمجمته فى حجم جمجمة الطفل. سيمر عام آخر أو عامان، وبعدها سنكون قادرين على أن نحشر جمجمته فى قنينة وأن نخللها هناك محتفظين بها إلى الأبد. إن التجاعيد تترك على مر الأيام بصمات أشد عمقًا. ويبدو وجهه بدون أسنان كوجه قرد من العصور القديمة. وتوجد فوق لحيته الهزيلة وجنتاه الحمراوان فى لون التوت المعروفتان على سبيل التدليل بيسار السفينة ويمينها، وهما تشعان دفئًا فى جميع الأجواء.

ولقد تردد «سكوبى» كثيراً على عنبر الاستبدال، ففى عام ١٩٠٠ نقلت سقطة من على الصارى فكه من موضعه وتحطم عظم الجمجمة المحيط بالتجويف الأمامى. ويسلك طاقم أسنانه الصناعية عندما يتكلم سلوك سلم متحرك. إنه ينتقل إلى أعلى ويدور داخل جمجمته فى حلزون هزاز. كما لا تستقر ابتسامته على حال، إذ من الممكن أن تظهر من أى مكان مثلها فى ذلك مثل ابتسامة القط «شيشير». وفى عام ١٨٨٤ بصبص بعينيه لزوجة رجل آخر (كما يقول هو) ففقد واحدة منهما. والمفروض أن أحدًا لا يعرف بهذا الأمر غير «كليا»، إلا أن استبدال العين التالفة بعين صناعية لم تكن عملية متقنة. إذ عندما يكون هادئًا تصعب ملاحظة عينه الصناعية، غير أن التفاوت بين العينين يبدو واضحًا عندما يكون نشطًا. كذلك توجد هناك مشكلة فنية صغيرة، وهى أن عينه الطبيعية تكاد تكون على الدوام حمراء كالدم. ولقد

لاحظت منذ اللحظة الأولى عندما دعانى لرؤية رسم بالغاب بعنوان «أيها الحارس، ماذا عن الليل؟» بينما وقف فى ركن الحجرة ممسكًا فى يده بمبولة قديمة، لاحظت أن عينه اليمنى تتحرك أبطأ قليلاً من عينه اليسرى. وبدت حينذاك وكأنها تقليد مبكر لعين النسر المحنطة التى تطل متجهمة كئيبة من تجويف فى المكتبة العامة. على أن عينه الصناعية وليست الطبيعية هى التى تنبض بعنف فى الشتاء بطريقة لا تحتمل، وتجعله عبوسًا بذىء اللسان لا يهدأ حتى يلقى بقليل من البراندى فى معدته.

ويشبه «سكوبى» بعض الحيوانات البدائية عندما يكون هناك ضباب ومطر، إنه يحمل معه شيئًا من الطقس الإنجليزى، ولا يسعده شىء قدر استطاعته الجلوس فى الشتاء إلى نار صغيرة، يتحدث، تنثال ذكرياته واحدة بعد الأخرى من ذهنه الذى يشبه آلة تالفة حتى يختلط الأمر عليه فلا يتبين أيها تخصه هو. وأرى من خلفه أمواج الأطلنطى الطويلة الرمادية تطوى المحيط، وتحيط بذكرياته، تحاصرها، تخنقها فى الرذاذ، تعميه فلا يرى. وهو عندما يتحدث، وكأن وسائل الاتصال ضعيفة بالفعل، والجو غير موات للإرسال. لقد تجمد الرجال العشرة الذين ركبوا النهر فى «داوسون» وماتوا. هبط الشتاء عليهم كالمطرقة، وأصابهم الويسكى والذهب والقتل بفقدان الإحساس. إنها حرب تشبه الحرب الصليبية، إنها تجرى فى الشمال فى بلاد الأخشاب. فى ذلك الوقت سقط أخوه فى شلالات أوغندا، لقد رآه فى حلمه، رأى جسده الصغير للغاية وهو يسقط كذبابة، وللحال داعبته مخالب المياه الصفراء. كلا، لقد حدث ذلك فيما بعد عندما كان يحاول جاهدًا أن يتذكر متى حدث هذا الأمر بالضبط؟ وقد أسقط رأسه المصقولة بين راحتيه، غير أن الأمواج الرمادية تتداخل وتحمى التيارات العالية،

الحاجز القائم بينه وبين ذاكرته دون عناء. لذا كانت تصلنى كلمة العاصفة بدلاً من كلمة القرصان؛ وتبدو جمجمته وكأنها قد امتصت واعتصرت حتى لم يبق منها غير فاصل رقيق من الجلد يفصل بين ابتسامته وابتسامة الجمجمة المختفية أسفل الجلد. خذ بالك من جمجمته بمعالمها الواضحة: الفروع العظمية داخل أصابعه الشمعية: القضبان الشحمية التى تسند قصبتى ساقيه المرتعشتين.... إن «سكوبى» العجوز كما لاحظت «كليا»، يشبه بحق آلة.. صغيرة قديمة تستخدم فى إجراء التجارب وقد تركت من القرن الماضى، شيئًا ودودًا يثير العواطف مثله فى ذلك مثل أول صاروخ نارى اخترعه «ستيفنسون».

إنه يعيش كناسك فى الطابق الأعلى المنحدر بعض الشىء. و«ناسك» تلك واحدة أخرى من مأثوراته، إنه يطقطق، عندما ينطق بها، أصابعه وهو يضغطها بطريقة فظة إلى خده، تاركًا عينه الدوارة تشير إلى كل ما انغمس فيه سرّاً من علاقات نسائية، إنه يتصرف على هذا النحو من أجل خاطر «كليا»، ففى حضرة «سيدة كاملة» مثلها يحس بضرورة التلون بالشكل الذى يستره، وسرعان ما يلقى هذا القناع جانبًا لحظة أن تغادر. غير أن الحقيقة أكثر مدعاة للحزن. إنه يعترف لى فى صوت خفيض: «لقد قمت على الوجه الأكمل، بعمل ضابط الكشافة فى فرقة «هاكنى». كان ذلك بعد أن سرحت بسبب ضعفى. غير أنه كان علىَّ أن أبقى خارج «إنجلترا» أيها الصبى العجوز. كان الضغط هناك أكثر مما أحتمل. كنت أتوقع كل أسبوع أن أرى عنوانًا رئيسيًا فى جريدة نيوز أوف ذى ورلد «أخبار العالم» يقول: شاب آخر يقع ضحية النزوات القذرة لضابط الكشافة.

لم تكن الأمور فى «هاكنى» تهمنى كثيراً. كان صبيتى مهرة فى صناعة الأدوات الخشبية بطريقة يدوية. كانوا، كما تعودت أن أدعوهم، صغاراً يتمتعون بالأناقة والرشاقة. ولقد سجن ضابط الكشافة الذى كان من قبلى عشرين عامًا. وهذا أمر كاف يثير الريب فى نفسى. فمثل تلك الأشياء تدعوك للتفكير. وكيفما كان الأمر فإننى لم أستطع الاستقرار فى «هاكنى». خذ بالك، تذكر لقد تخطيت الآن كل شىء، إلا أننى أحب أن أكون هادئ البال، كما هو الحال الآن بالضبط. وعلى نحو ما فإن المرء لم يعد يحس بالحرية فى إنجلترا، انظر الطريقة التى يخلعون بها القساوسة، رجال الدين المحترمين. لقد اعتدت أن أرقد يقظًا أفكر فى قلق.

وأخيراً غادرت إنجلترا إلى الخارج بصفتى «حامل بوق» خاص. فقد كان «توبى مانرينج»، وهو ابن عضو فى البرلمان، يبحث عن ذريعة للسفر. فقالوا: إنه يجب أن يكون لديه حامل بوق كان يريد الالتحاق بالبحرية. هذه هى الطريقة التى حضرت بها إلى هنا. وللحال رأيت أن الحياة هنا ظريفة سهلة وبلا قيود.

وحصلت للفور على وظيفة فى فرقة مكافحة الرذيلة تحت قيادة «نمرود باشا». وهأنذا أيها الولد العزيز، لا أشكو كما ترى. وماذا أرى عندما أنظر من شرق هذه الدلتا الخصبة إلى غربها؟ السمر الصغار الملائكيون يغطون الأرض ميلا بعد ميل.

كانت الحكومة المصرية، بكرمها النموذجى الخيالى والذى تغدقه تبذيراً شرقيّا على أى أجنبى يبدى قليلاً من الود والصداقة، قد قدمت له سبيلاً للعيش فى «الإسكندرية». ويقال: إن الرذيلة قد بلغت بعد تعيينه فى فرقة مكافحة الرذيلة حدّاً هائلاً، حتى وجد أنه من الضرورى

ترقيته ونقله، غير أنه كان يؤكد على الدوام، أن نقله للعمل بفرع البوليس الخاص بدائرة المباحث كان ترقية يستحقها. وأنا من ناحيتى لم تكن لدى الشجاعة لأغيظه فى هذا الموضوع. لم يكن عمله شاقًا.

فهو يعمل لمدة ساعتين فى حجرة آيلة للسقوطة فى الجزء العلوى من المدينة، تحوطه البراغيث التى تقفز من خشب مكتبه المتعفن القديم الطراز. إنه يتغذى غذاء متواضعًا فى «اللوتيشيا»، ويشترى لنفسه، إذا ما سمحت نقوده بالشراء، تفاحة وزجاجة من البراندى لوجبة المساء. إنه يقضى عصارى الصيف الطويلة القاسية فى النوم، وتصفح الجرائد التى يستعيرها من بائع جرائد يونانى يكن له الود، (وبينما يقرأ يرق النبض فى أعلى جمجمته ويهدأ). إن بلوغ الكمال هو كل شىء فى الحياة.

ويكشف تأثيث غرفته الصغيرة عن روح عالية القدرة على الاختيار، فالأشياء القليلة التى تزين حياة الناسك تحمل رائحته الخاصة على نحو حاد، وكأنها معًا تشكل شخصية مالكها. ولهذا السبب تعطى الصورة التى رسمتها له «كليا» إحساسًا بالشمول، فقد رسمت فى خلفيتها كل ممتلكات الرجل العجوز: مثلاً، الصليب الصغير الذى تغطيه القذارة والمعلق فوق الحائط خلف السرير، مع أنه قد مضت بضع سنوات منذ تلقى «سكوبى» مواساة كنيسة الروم المقدسة وتعزياتها له لمواجهة الشيخوخة ولمواجهة تلك المثالب الشخصية التى غدت الآن طبيعة ثانية له. وبالقرب من الصليب توجد هناك صورة صغيرة ملونة «للموناليزا» والتى كانت ابتسامتها الغامضة تذكر «سكوبى» بأمه (أما من ناحيتى فإن الابتسامة الشهيرة تبدو لى على الدوام ابتسامة امرأة تناولت غذاءها لتوها بعيدًا عن زوجها). ومع ذلك فإن هذه أيضًا قد

دمجت نفسها على نحو ما فى وجود «سكوبى»، وأقامت معه علاقة خاصة وسرية. وكأن «موناليزا» التى تخصه لا تشبه أية واحدة أخرى، إنها هاربة من «ليوناردو».

ثم هناك بالتأكيد حامل الكعك الذى يستخدمه «ككومودينو»، وحقيبة كتب ودرج للكتابة فى نفس الوقت. ولقد منحته «كليا» كل ما يستحق من معاملة حانية، فرسمته بأمانة دقيقة. ويتكون هذا الحامل من أربع طبقات، كل منها محاطة بحافة مائلة ضيقة غير أنها أنيقة. لقد اشتراه بتسعة بنسات من شارع «بوستون» عام ١٩١١، ولف معه حول العالم مرتين. إن «سكوبى» سيساعدك بنفسه على أن تعجب به دون أن يتعمد ذلك أو يبدو عليه أى أثر للمزاح. سيقول لك وهو يتناول قطعة من القماش ينفض بها التراب عنه: «إنه شىء صغير جذاب أليس كذلك؟» وسيشرح لك فى عناية أن الطبقة العليا قد صممت خصيصًا من أجل الخبز المحمر المدهون بالزبد، والطبقة المتوسطة من أجل الفطائر، والسفلى من أجل «نوعين من الكعك». ومع ذلك فإنها الآن تفى بأغراض أخرى. فعلى الرف العلوى يرقد المنظار المكبر والبوصلة والإنجيل، وعلى الرف الأوسط توجد مراسلاته التى تتكون من ظروف خطابات معاش التقاعد، وعلى الرف الأسفل ترقد فى وقار مهيب مبولة يشير إليها دائمًا باعتبار أنها «المتاع المنقول الموروث»، والتى تقترن بها قصة غامضة سوف يستودعنى إياها يومًا ما.

ويضىء حجرته مصباح كهربى ضعيف، وحزمة من شعلات الزيت القائمة فى مشكاة والموضوعة على «زلعة» فخارية مليئة بماء الشرب البارد. ويطل شباك حجرته الوحيد الخالى من الستائر، على حائط طينى قاتم تساقطت قشرته، كما أنه يحجب كل شىء. إنه يذكرنى،

وهو راقد فى السرير ووميض أنوار الليل الباهتة فى لون الدخان تنعكس على زجاج بوصلته وهو راقد فى السرير بعد منتصف الليل والبراندى ينبض فى جمجمته، بكعكة زواج قديمة، فى انتظار من ينحنى فوقها ويطفئ شمعاتها.

إن آخر تعليقاته فى الليل، بعد أن يضعه المرء فى السرير ويطمئن عليه ويحشر حوله الغطاء عدا عبارته السوقية «قبلنى فى عنف» والتى يصحبها على الدوام بطرقعة وغمزة من خده، إن آخر تعليقاته أن يقول بطريقة أكثر جدية: «اصدقنى القول، هل أبدو فى حدود عمرى؟».

وفى صراحة، فإن «سكوبى» يبدو مناسبًا لجميع الأعمار، إنه أسن من ميلاد المأساة وأصبى من الموت الأثينى. ولد فى فلك «نوح» حصيلة لقاء وقران عابر بين الدب والنعامة، ولد قبل ميعاده من صيحة السأم التى تشبه قباع الخنزير، والتى أطلقها قاع السفينة وهو يحط على «جبل أرارات». وقد خرج «سكوبى» من الرحم على كرسى ذى عجلات إطاراتها من المطاط، مرتديًا قماطًا من جلد الغزال ولفة من الصوف الأحمر. يغطى أصابع قدميه القابضة ألمع زوج من الأحذية ذات الرقبة المرنة الجوانب. يحمل فى يده إنجيل العائلة المهترئ وقد كتب على صفحته الأولى يشوع صموئيل سكوبى ١٨٧٠. أكرم أباك وأمك». وقد أضيفت إلى تلك الممتلكات عينان كقمرين ميتين، تقوس واضح فى العمود الفقرى لهذا القرصان، وحاسة ذوق للسفن القديمة. لم يكن ما يجرى فى عروقه دمًا ولكن ماء أخضر مالحا، من قاع البحر. مشيته دحرجة بطيئة عسيرة تطحن ما تحتها كقديس يسير فى الجليل. حديثه رطانة الماء الأخضر وقد غسل فى خمسة محيطات، دكان أنتيكات ملىء بالخزعبلات المهذبة منتفش بالمزاول، أجهزة ملكية،

البروبنيتينات وأجهزة قياس الضغط الجوى. عندما يغنى، وهو غالبًا ما يفعل ذلك، إنه يغنى بنفس النبرات التى كان إله البحر العجوز يغنى بها. وكقديس من الأولياء فإنه يترك قطعة من لحمه فى كل مكان من العالم، فى «زنجبار» «كولومبو»، «توجولاند»، وفى «ووفو»: الشذرات الصغيرة المتساقطة، والتى كان ينثرها منذ زمن طويل، كقرون قديمة، وأزرار أكمام القمصان، الأسنان والشعر. . . . والآن يتركه المد المنحسر عاليًا وجافًا فوق أمواج الزمن التى تنطلق فى سرعة «يشوع»، المفلس رجل الأنواء، ساكن الجزيرة، الناسك.

* * *

إن «كليا»، «كليا» الرقيقة المحبوبة والتى لا يمكن معرفة ما فى أعماقها هى أعظم صديق لـ «سكوبى»، إنها تقضى الكثير من وقتها مع القرصان العجوز، تهجر مرسمها الذى يشبه عش العنكبوت لتصنع له الشاى وتستمتع بالإصغاء إلى ذلك المونولوج الذى لا ينتهى عن حياة تقهقرت منذ أمد بعيد، فقدت دافعها الجوهرى، لتعيش عوضًا عن ذلك فى متاهات الذاكرة.

أما عن «كليا» نفسها: إننى أتساءل إذا ما كان خيالى وحده هو الذى يجعل رسم صورتها يبدو لى وكأنه أمر عسير للغاية؟ إننى أفكر فيها كثيرًا جدًا، ومع ذلك فإننى أرى كم راوغت فى كل ما كتبت من التعرض لها بشكل مباشر. ربما تكمن الصعوبة هنا: فى أنه لا توجد، كما يبدو، علاقة سهلة بين عاداتها ومزاجها الحقيقى. وإن كان على أن أصف بنيان حياتها الخارجى، وهى البسيطة إلى حد يجرد المرء من غضبه، فهى رشيقة تتحكم فى ذاتها، فهنالك خطر حقيقى فى أن تبدو إما كراهبة أخلت مجال النزوات الإنسانية كله ليحل محله استغراق فى

البحث عن ذاتها التى لا تعرف الخوف. وإما كعذراء خاب أملها وانطوت على نفسها، وقد حرمت نفسها من العالم بسبب نوع من الخلل العقلى أو بسبب جرح قديم لا يرجى له التئام.

إن كل شيء يحوط شخصها فى لون العسل، دافئ النغم، شعرها الأشقر المقصوص والمسوى بطريقة مجعدة تتركه ينساب قليلاً على ظهرها وقد عقصته عند أسفل العنق، مما يبرز الوجه الصادق لعروس الشعر الصغيرة بعينيها الرماديتين الخضراوين المبتسمتين. إن فى يديها المطبوعتين على الهدوء حذقًا وجمالاً لا يمكن للمرء أن يلحظهما إلا عندما يراها وهى تعمل، ربما وهى تمسك بفرشاة الرسم أو وهى تجبر ساق عصفور مكسورة بجبيرة مصنوعة من عيدان الكبريت.

إننى أستطيع القول إنها قد صبت، وهى لا تزال دافئة، فى جسد الرشاقة صبية: أى فى جسد ولد بلا غرائز ولا شهوات. أن تحوز الجمال الرائع، وتملك ما يكفى من المال لتبنى حياة مستقلة وأن تكون حاذقة، تلك هى العوامل التى أغرت الحساد وضعاف النفوس إلى اعتبارها محظوظة دون وجه حق. غير أن من ينتقدونها ويراقبونها، يتساءلون عن السبب الذى من أجله حرمت نفسها من الزواج؟

إنها تعيش حياة متواضعة رغم أنها ليست حياة بائسة، تقطن فى مرسم مريح يوجد فى أعلى طابق بالبناء، مؤسس بسرير حديدى صغير وعدد قليل من كراسى الشاطئ البالية والتى تنقل بكاملها إلى كابينتها الصغيرة فى «سيدى بشر». أما الشيء الكمالى الوحيد لديها، فهو حمام مبلط بالقيشانى البراق، وضعت فى أحد أركانه موقداً صغيراً لتغطيه بأى طبيخ تحس ميلا نحو طهوه لنفسها، ومكتبة تدل أرضها المكتظة على أنها لا تبخل عليها بشيء.

إنها تعيش بلا عشاق ولا روابط عائلية، بلا أحقاد ولا حيوانات مدللة، مركزة كل اهتمامها على ما تقوم به من أعمال الرسم التى تأخذها مأخذ الجد، غير أنها لا تبالغ فى تلك الجدية. وهى محظوظة أيضًا فى عملها، فتلك اللوحات الجسورة الظريفة تشع لطفًا ومرحًا. إنها مليئة بروح المداعبة، إنها كأطفال محبوبين غاية الحب.

ولكننى أرى أننى قد تكلمت عنها سخفًا. باعتبار أنها «تحرم نفسها من الزواج». كم سيثير هذا القول غضبها! إننى أتذكرها وهى تقول ذات مرة: «إذا أردت أن نظل صديقين فعليك ألا تفكر أو تتكلم عنى كامرأة تحرم نفسها من أى شىء فى الحياة. إن وحدتى لا تجردنى من أى شىء، كما أنى لست مؤهلة لأى شىء غير ما أنا عليه. إننى أودك أن ترى مقدار نجاحى ولا تتخيلنى مليئة بأنواع الفشل الداخلية. أما عن الحب ذاته، يا صديقى العزيز، فلقد أخبرتك من ذى قبل بأنه لا يعنينى إلا قليلاً جدًا، ويعنينى الرجال بدرجة أقل من ذلك. إن التجارب القليلة، وفى الحقيقة التجربة الوحيدة، التى أثرت فى نفسى كانت تجربة مارستها مع امرأة. وما زلت أعيش فى سعادة تلك العلاقة التى أنجزت على الوجه الأكمل، وأى بديل جسدى لهذا الذى أحسه يبدو لى اليوم سوقيًا وفارغًا إلى درجة بشعة. ولكن لا تظن أننى أعانى أى مظهر من مظاهر الموضة الحديثة عن القلوب المحطمة. كلا. إننى أحس، على نحو يثير الضحك، بأن حبنا قد ربح حقًا بخلاصه من المحبوب، إذ يبدو الأمر وكأن الجسد كان يقف بصورة ما فى طريق النمو الحقيقى للحب، فى طريق استيعابه وإدراكه لذاته. هل يبدو قولى هذا مفجعًا؟» وضحكت.

كنا، كما أتذكر، نسير فى الخريف على الكورنيش الذى غسلته

الأمطار تحت سماء معتمة هلالية ملبدة بالغيوم، عندما وضعت ذراعها في ذراعي بطريقة ودودة، بينما أخذت تتكلم، وابتسمت لي في حنان حتى إن العابر بنا لا يلام إذا ما ظن أننا عاشقان.

وتابعت حديثها: «إن هناك شيئًا آخر قد تكتشفه من تلقاء نفسك، شيئًا عن الحب، لا أقول معيبًا، فالعيب يرقد في أعماقنا نحن، ولكنه شيء أخطأنا فهم طبيعته. فحبك الذي تحسه الآن، مثلاً، نحو «جوستين» ليس حبًّا مختلفًا لشيء مختلف، إنه نفس الحب الذي تكنه لـ «ميليسا»: يحاول التعبير عن نفسه خلال «جوستين». والحب شيء ثابت بقدر هائل، وليس مخصصًا لكل منا، إلا جزء منه، نصيب ما. إنه قادر على الظهور في صور لا نهاية لها، والارتباط بأناس لا حصر لهم. إلا أن كميته محدودة ويمكن استهلاكه، فيغدو بضاعة بائرة ويذبل قبل أن يؤتي مفعوله الحقيقي. إن غاية الحب ترقد في مكان ما في أعمق أجزاء النفس، حيث يمكن التعرف عليها باسم حب الذات، تلك الأرض التي قام عليها نوع من سلامة النفس، إنني لا أعني بذلك الأنانية أو النرجسية».

لقد كانت مثل تلك الأحاديث هي التي قربتني في بادئ الأمر من «كليا». أحاديث كانت تستمر في بعض الأحيان حتى الهزيع الأخير من الليل، أحاديث علمتني بأنه في وسعي أن أعتمد على القوة التي استمدتها هي من التأمل ومعرفة الإنسان بذاته. إن صداقتنا قد جعلتنا قادرين على أن نتبادل أفكارنا وآراءنا الخاصة، وأن نختبر تأثيرها على كل منا بطريقة كان يستحيل اللجوء إليها لو كنا أكثر ارتباطًا بقيود تفرق، ويا له من تناقض ظاهري، بصورة أعمق مما تجمع، رغم أن الوهم البشري يمنعنا من تصديق ذلك. إنني أتذكرها تقول ذات مرة

عندمـا نوهت لهـا عـن تلك الحـقـيـقـة : «إنه لحق أننى أقـرب من بعض النواحى، أقرب إليك من كل من «ميليسـا» و«جوستين» . أنت تعرف أن حب «مـيليسـا» حب عـميق الوثوق بك، وهـذا يعـميـهـا . بينمـا «جوستين» جبانة فى هوسها الخاص بأمر واحد فلا تراك إلا من خلال الصـورة التى اختـرعتـهـا لك . وهذا يمنعك من إتيـان أى شىء إلا أن تكون مهووسًا مثلها . لا تستأ من قولى هذا، فإنى لا أضمر بما أقول سوءًا لأحد» .

غيـر أنه إلى جـانب مـا تقـوم به «كليـا» من أعـمـال الرسم الخـاصـة، يجب ألا أنسى التنويه بالعـمـل الذى تقـوم به من أجل «بلتـازار» إنهـا رسامة العيادة . فصديقى لسبب أو آخر غير قانع بالطريقة العـادية غير الدقيقة، لتسجيل الظواهر الطبيعية الشاذة بالصور الفوتوغرافية . إنه يتبع نظرية خاصة به تجعله يعلق أهمية على لون الجلد فى مراحل معينة من الأمراض التى يهتم بها اهتمامًا خاصًا . لقد سجلت له «كليا»، مـثلاً، الآثار المدمرة للزهرى، فى كل درجـة من درجات تغيـره، فى رسوم كبيرة ملونة واضحة ورقيقة بطريقة مرعبة . وعلى نحو ما، فإن تلك الرسوم إنما هى أعمال فنية حقيقية . إن استهداف المنفعة الخالصة من هذه الأعمـال قد حرر الرسامة من الالتـزام فى رسومهـا بالتعبير الذاتى . لقد حددت لنفسهـا مهمة أن تسجل . وكـان لهؤلاء المعذبين الغـارقين فى الجـهل، من أعـضـاء الأسـرة البـشـرية والذين يلتـقطهم «بلتازار» يوميًا من العيادة الخارجية من الطابور الطويل الحزين (كما يلتقط رجل ما تفاحة عطنة من أحد البراميل)، كل القيمة التى لرسوم الوجوه الإنسانية، للبطون المفتوحة وكأنها قد فرقعت، لسطح الجلد المنكمش المتقشر كطلاء الحائط للأورام السرطانية المتفجرة من خلال الأغشية التى تحيط بها . . . إننى أتذكر أول مرة رأيتها فيها وهى تعمل،

كنت أقوم بزيارة «بلتازار» فى العيادة لأحصل منه على شهادة خاصة ببعض الأعمال الروتينية التى لها علاقة بالمدرسة التى أعمل بها. ولمحت «كليا»، والتى لم أكن أعرفها حينذاك، من خلال أبواب العيادة الزجاجية، كانت جالسة تحت شجرة الكمثرى اليابسة فى الحديقة المهملة. كانت ترتدى رداء طبيًا أبيض، وأنابيب ألوانها منسقة إلى جوارها على لوح من الرخام يرقد على الأرض. وقد جلست القرفصاء أمامها، فوق كرسى مصنوع من الأغصان المجدولة، فتاة فلاحة لها صدر كبير ووجه أبى الهول، وقد شمرت رداءها الداخلى حتى أعلى وسطها لتكشف عن شيء معين اختاره صديقى لدراسته. كان يومًا من أيام الربيع الزاهية. وكان فى وسع المرء أن يسمع من بعيد أمواج البحر وهى تركض وراء بعضها البعض. وأصابع «كليا» المقتدرة والتى لا تؤذى أحدًا تتحرك على سطح الورقة البيضاء إلى الأمام وإلى الوراء بثقة وحذق وإصرار فطين. كان وجهها يحمل سمات المتعة المركزة الوالهة لإخصائى يتحسس ألوان زهرة نادرة.

ولقد طلبت «ميليسا» «كليا» عندما كانت تحتضر، وكانت «كليا» هى التى قضت ليالى بطولها إلى جوارها ترعاها وتحكى لها القصص. . أما عن «سكوبى» فإننى لا أجرؤ على القول بأن شذوذهما الجنسى كان يشكل رباطًا خفيًا بينهما، رباطًا عميقًا كسلك تحت الماء يربط ما بين قارتين، لأن قولى هذا قد يكون مجحفًا بكليهما. ومما لا شك فيه أن الرجل العجوز لم يكن يدرى بمثل هذا الأمر، أما من ناحيتها هى فقد كانت تمنعها حصافتها الكاملة من أن تظهر له كم هى فارغة وجوفاء تلك المفاخر التى يرويها عن علاقاته النسائية! إنهما متوافقان مع بعضهما البعض توافقًا كاملاً، وسعداء بعلاقتهما سعادة كاملة، إنهما كأب وابنته، وفى المناسبة الوحيدة التى سمعته يمزح معها بخصوص بقائها من غير زواج، استدار وجه «كليا»

الجميل وغدا أملس كوجه تلميذة، وأجابته من أعماق جدية مصطنعة تخفى ومضة الشقاوة فى عينيها الرماديتين بأنها كانت تنتظر مقدم الرجل المناسب. وعندئذ أومأ «سكوبى» إيماءة الذى أدرك الأمر بعمق، ووافقها على أن هذا هو السبيل الصحيح للسلوك.

ولقد عثرت ذات يوم وأنا أنبش فى كومة من اللوحات التى يغطيها التراب فى أحد أركان مرسمها، على رسم لرأس «جوستين»، منظر جانبى غير كامل، خطوطه الفنية لمسات على الطريقة التأثيرية فى الرسم، وكان من الواضح، أنه لم ينته بعد. وأمسكت «كليا» أنفاسها وحملقت فى الصورة بكل الحنان الذى يمكن أن تبديه أم نحو طفلها الذى تعرف قبحه، ولكن بالنسبة لها لا يقل جمالا عن أى طفل آخر. وقالت: «منذ سنين طويلة مضت»، وبعد تفكير طويل أهدتنى تلك اللوحة فى مناسبة عيد ميلادى. إنها موضوعة الآن فوق ظهر المدفأة المقوس القديم لتذكرنى بالجمال الأخاذ المرهف لذلك الرأس الأسمر المحبوب. كانت صورتها وقد نزعت لتوها السيجارة من بين شفتيها، وهى تهم بأن تقول شيئًا حدده ذهنها فى الحال، ولكن لم يبلغ إلا عينيها. وقد انفرجت الشفاه، فى استعداد لأن تنطقه فى كلمات.

* * *

إن الهوس لتبرير التصرفات الخاصة أمر مشترك بين أصحاب الضمائر القلقة، وبين هؤلاء الذين يبحثون عن تفسير فلسفى معقول لأعمالهم. إلا أنه يقود فى كلتا الحالتين إلى أشكال غريبة من التفكير. فالفكرة لا تنبعث على نحو مرغوب فيه. ففى حالة «جوستين» قادها ذلك النوع من الهوس إلى فيض متصل من الأفكار والتأملات الخاصة بأحداث الماضى والحاضر، فيض يضغط على عقلها بثقل كذلك الثقل

الذى تضغط به كتلة من الأمواج فوق جدران أحد السدود. وما كان فى وسع المرء أن يمنع نفسه من الشك فيما تصل إليه من نتائج، رغم الجهد الذى تبذله دون أن توفق فى هذا الاتجاه، ورغم كل المحاولات العاطفية لاختبار ذاتها، طالما أن تلك النتائج سريعة التغيير لا تستقر على حال. كانت تثير عن نفسها نظريات كثيرة كثرة أوراق الزهور. ولقد سألت «الأرناؤوطى» ذات مرة: «ألا تعتقد أن الحب يتكون بصورة كلية من تناقضات ظاهرية؟» وإننى لأذكر أنها كثيراً ما سألتنى نفس السؤال بصوتها المضطرب والذى كان يعطى للسؤال من الحنان قدر ما كان يعطيه من التهديد والوعيد. «لنفرض أننى قلت لك بأننى ما كنت أسمح لنفسى بالاقتراب منك إلا لإنقاذها من خطر وعار الوقوع بعمق فى حبك؟ لقد أحسست بأننى كنت أنقذ «نسيم» بكل قبلة منحتها لك».

كيف يمكن لهذا، مثلاً، أن يشكل الدافع الحقيقى لذلك المشهد الغريب على الشاطئ؟ إن الشك ينهشنى، إن الشك ينهشنى؛ وفى مناسبة أخرى تناولت نفس المشكلة من زاوية أخرى، ربما بطريقة لا تقل صدقًا عن المرة السابقة: «إن الحكمة هى.. ولكن ما هى الحكمة؟ إننا لم نكن مجرد نهمين إلى الجنس، أم يا ترى كنا كذلك؟ وإلى أى مدى أنجزت هذه العلاقة كل ما وعدتنا به، على الأقل بالنسبة إلىّ. لقد التقينا، إلا أن أسوأ الأمور لم تصبنا نحن، لقد أصابت أفضل ما فينا، أحباءنا. أوه، أرجوك لا تضحك منى».

أما من ناحيتى فقد ظللت على الدوام مأخوذًا مذهولاً من الدروب التى تفتحها تلك الأفكار، كما كنت خائفًا، فقد كان أمرًا غريبًا غاية الغرابة أن تتحدث عن الأوقات التى نعيشها بالفعل بعبارات النعى

والتأبين؛ كنت أكاد أستثار فى بعض الأحيان كما استثير «الأرناؤوطى» فى مناسبة مماثلة، فأصرخ: «بالله كفى عن هذا الولع بالتعاسة وإلا قادنا ذلك إلى داهية. إنك تستنفدين حياتنا قبل أن نأخذ الفرصة لنحياها». كنت أدرك بالطبع عبث هذا النصح. ففى هذا العالم هناك أشخاص كتب عليهم أن يدمروا أنفسهم بأنفسهم. ولن يجدى مع هؤلاء أى قدر من الجدل العاقل. كانت «جوستين» تذكرنى على الدوام بإنسان يسير فى نومه وقد عثر عليه وهو يعبر المسالك الخطرة لبرج عال. إن أية محاولة لإيقاظها بالصراخ قد تؤدى إلى كارثة. وهنا على المرء أن يتبعها فى صمت على أمل أن يقودها شيئًا فشيئًا بعيدًا عن المهاوى السحيقة المعتمة والتى تبدو فى كل جانب.

غير أن تلك النواقص التى خلقتها، تلك النفسية السوقية التصرفات، هى بالذات التى شكلت بالنسبة إلىّ، وفى هذا تناقض ظاهرى غريب، نقطة الجاذبية نحو هذه الشخصية الساحرة القوى. إننى أعتقد أن تلك الصفات تطابق ما فى شخصيتى من ضعف، استطعت لحسن حظى أن أسيطر عليه بصورة أفضل مما استطاعت هى السيطرة على نواقصها. كنت أدرك أن ممارسة العشق لم تكن بالنسبة لنا غير جزء صغير من الصورة الكلية التى أبرزها التقارب الفكرى الذى كان ينمو ويترعرع كل يوم حولنا؛ كم من ليلة قضيناها نتبادل الحديث فى المقاهى القذرة المواجهة للشاطئ (محاولين بلا جدوى أن نخفى تلك العلاقة، التى كانت تشعرنا بالخطيئة، عن «نسيم» وبعض الأصدقاء المشتركين). كنا، بينما نتكلم، نقترب أكثر فأكثر من بعضنا البعض، ليس بدافع الحسية العادية التى يبتلى بها العشاق ولكن الأمر يبدو وكأن اتصالنا الجسدى يستطيع أن يخفف آلام استكشاف كل منا لذاته.

كانت هذه العلاقة الغرامية بالطبع أتعس علاقة يقدر الإنسان على تحملها، كان يثقلها شيء ما كانكسار الفؤاد كالكآبة التى تعقب المضاجعة والتى تعلق بكل صورة من صور الملاطفة، وتظل كالراسب فى مياه القبلة الصافية. يقول «الأرناؤوطى»: «من السهل أن تكتب عن القبل. غير أن الوجد أطفأ شعلة أفكارنا بدلاً من أن يفيض علينا بالإيماءات والمعانى. إنه لم ينقل إلينا أى جديد كما هى عادته. فقد كانت هناك أشياء أخرى كثيرة تفعل فعلها». ولقد بدأت فى الحقيقة أدرك إدركًا تامًا خلال مضاجعتى لها، ماذا كان يعنى بوصفه ذلك الحائل على أنه: «ذلك الإحساس الخارق الذى يحسه امرؤ يرقد مع تمثال محبوب عاجز عن أن يرد قبلات الجسد الذى يلامسه. كان هناك شيء يستنفد طاقة الإنسان ويضلله، أن يحب فى صدق ورغم ذلك لا يحب إلا قليلاً».

حجرة النوم مثلاً بنورها الفوسفورى البرونزى، وأقلام الرسم الملونة تتوهج فى القارورة الخضراء القادمة من «التبت» وتنشر رائحة تشبه رائحة الزهور فى أرجاء الحجرة. وإلى جوار سريرها تعلق بالأغطية رائحة مساحيقها النفاذة الدسمة بشكل كثيف. وعلى منضدة الزينة توجد أوانى الكريم والأدهنة مغلقة بصماماتها. وفوق السرير خريطة لعالم «بطليموس»، كانت قد حصلت عليها مرسومة على رق وقد وضعت فى إطار أنيق. إنها ستظل إلى الأبد معلقة فوق سريرها، فوق الأيقونات بأغلفتها الجلدية، فوق طابور كتب الفلاسفة المنظم على الطريقة العسكرية، «كانت» فى طاقية نومه يتحسس طريقه إلى الطابق العلوى. «جوبيتر» و«تونانز». ويوجد على نحو ما فى هذا الطابور من كتب الرجال العظام عيب فاضح، فقد سمحت «جوستين» لـ«بورسواردن» أن يكون له مكان بينهم. كان من الممكن رؤية أربع من

رواياته، غير أنه لم يكن فى وسعى أن أحدد إذا ما كانت قد وضعتهم خصيصًا لهذه المناسبة (فقد كنا نتعشى معًا) وكانت «جوستين» وهى محاطة بفلاسفتها تشبه قعيدًا محاطًا بالأدوية، بالكبسولات الفارغة، بالزجاجات والحقن. يقول «الأرناؤوطى»: «قبلها، وستدرك أنها لا تغمض عينيها بل تفتحهما أكثر من ذى قبل، تفتحهما فى شك وجنون متزايدين. إن عقلها يقظ إلى حد يجعل أية منحة يعطيها الجسد مجرد منحة جزئية، جنون لا يستجيب لشىء أقل من الحك بمحكة.. وفى وسعك أن تسمع مخها وهو «يتكتك» أثناء الليل كمنبه رخيص».

وعلى الحائط البعيد يوجد صنم تضىء الكهرباء عينيه من الداخل، وأمام هذا الناصح الأمين كانت تؤدى «جوستين» دورها الخاص الذى تلعبه فى الحياة، تخيل شعلة دفعت فى حلقوم هيكل عظمى لتضىء قبو الجمجمة التى تطل منها مقلتا العينين الفارغتين. ظلال حبيسة ملقاة على قوس الجمجمة. وتحل مكان الكهرباء إن تعطلت بقايا شمعة: وعندئذ تقف «جوستين» حافية على أطراف أصابعها لتدفع عود ثقاب مشتعلاً فى مقلة عين الإله. وللحال تبرز أخاديد الفك والعظمة الأمامية العارية وقصبة الأنف المستقيمة، إلا أنها تهدأ حتى تطمئن إلى أن هذا الزائر من دنيا الأساطير البعيدة يسهر على أحلامها المزعجة، وتحته توجد بعض اللعب الرخيصة، دمية مصنوعة من «السليولويد»، بحار، أشياء لم أكن أمتلك على الإطلاق الشجاعة لسؤالها عنها. وقد وجهت «جوستين» لهذا الصنم أكثر مناجاتها روعة، إنها تقول: «إنه من الممكن أن تتكلم وهى نائمة فيسمعها هذا الصنم العاقل الذى يتعاطف معها والذى غدا يمثل بالنسبة لها ما تسميه هى بنفسها الأصلية». وتضيف فى حزن وهى تبتسم ابتسامة المرتاب فيما يقول: «إنك تعلم أن هذه الأشياء موجودة».

وتجرى صفحات كتاب «الأرناؤوطى» فى ذهنى وأنا أرقبها أو أتحدث إليها، لها وجه نهشته شعلة مخاوفها الداخلية. إنها تستيقظ فى الظلام بعد أن أنام بفترة طويلة لتفكر فى شىء قلته لها حول علاقتنا. إننى أجدها دائمًا عندما أستيقظ منهمكة فى شىء ما، مشغولة البال، تجلس أمام المرآة عارية، تدخن سيجارة، تدق بقدمها العارية فوق السجادة الثمينة. ومن الغريب أنه يجب علىَّ دائمًا أن أرى «جوستين» فى إطار حجرة النوم هذه والتى ما كان فى وسعها أن تعرف مثلها قبل أن يمنحها «نسيم» لها. إننى أراها هنا دومًا تمارس تلك العلاقات الجنسية الفظيعة التى يكتب عنها: «لا يوجد ألم يمكن أن يقارن بالألم الذى يعانيه من يحب امرأة تجعل جسدها فى متناول يده، ومع ذلك فهى عاجزة عن أن تمنحه نفسها الحقيقية - لأنها لا تعرف أين تجدها». كم من مرة، جادلت فيها نفسى، وأنا راقد إلى جوارها، حول تلك الملاحظات التى يمكن أن يعبرها القارئ العادى خلال تدفق الأفكار وانحسارها بشكل عام فى كتاب «عادات».

إنها لا تنزلق من القبلات إلى النوم، كأن بابًا قد فتح لها إلى حديقة خاصة، كما تفعل «ميليسا». ويبدو جلدها الشاحب أكثر شحوبًا فى الضوء البرونزى الدافئ، وتزدهر الورود الحمراء الشهية فى وجنتيها حيث يسقط الضوء ثم يكف فى سرعة. إنها ترفع رداءها إلى الخلف لتنزل جوربها وتريك الندبة القاتمة فوق الركبة بين أثرى الحمالة اللذين يشبهان غمازتين متماثلتين تمام التماثل. إننى أعجز عن وصف هذا الشعور الذى أحسه عندما أرى هذا الجرح، وكأنه شخصية من شخصيات الكتاب، وأتذكر أصله البشع. إننى أرى الآن رأسها الأسمر فى المرآة أكثر شبابًا ورشاقة عن تلك السابقة التى عاشت بها. إنها تعيد لـ «جوستين» الصغيرة صورة من الماضى الذى اندثر كآثار

نبات السرخس المتكلس فوق الطباشير، صورة صباها الذى نعتقد أنها فقدته.

لا أستطيع أن أصدق أنها قد عاشت هذه الحياة بتمامها فى حجرة غير تلك الحجرة، وأن الصنم قد علق فى مكان غير هذا المكان، وفى إطار غير هذا الإطار. إننى على نحو ما أراها على الدوام تصعد السلم العالى، تقطع القاعة الكبيرة بما فيها من سرخسيات، وتعبر الباب المنخفض إلى هذه الحجرة التى هى أكثر الحجرات خصوصية. تتبعها «فاطمة» خادمتها الحبشية السوداء. وتهبط «جوستين» فى ثبات على سريرها وتمد أصابعها المحلاة بالخواتم فتسحبها الزنجية من الأصابع الطويلة فى جو من الخيال الرقيق وتضعها فى علبة حلى صغيرة موضوعة فوق منضدة الزينة. لقد دعتنا ليلة تعشينا معها وحدنا أنا و«بورسواردن» للذهاب إلى المنزل الكبير، وبعد أن فحصت «جوستين» حجرات الاستقبال الكبيرة الباردة، استدارت فجأة وقادتنا إلى الطابق العلوى، بحثًا عن جو يغرى صديقى، الذى كانت تعجب به وتخافه كثيراً، على الاسترخاء.

كان «بورسواردن» مكتئبًا طوال المساء، كما كان فى غالب الأحيان، وشغل نفسه بالمشروبات المسكرة إلى حد أنه لم يكن متنبهًا إلى أى شىء آخر. وبدا لى أن الأشياء البسيطة التى تتبادلها «جوستين» و«فاطمة» والتى تشبه الطقوس الدينية قد حررتها من أى قيد، حررتها لتغدو طبيعية، لتتحرك بذلك «الجو الوقح غير المتزن، تلعن فستانها لأنه أمسك بباب الدولاب». أو تتوقف تناجى نفسها أمام المرآة الكبيرة التى تشبه «بستونى» ورق اللعب. وحدثتنا عن الصنم وهى تضيف فى حزن: «إننى أعلم أن الأمر يبدو رخيصًا ومسرحيًا نوعًا ما. إننى أدير

وجهى إلى الحائط وأتحدث إليه. إننى أسامح نفسى، أفصح عن خطاياى، كما أغفر لهؤلاء الذين أخطأوا فى حقى. وفى بعض الأحيان كنت أهذى قليلاً وأضرب الحائط عندما أتذكر الحماقات التى، لا بد، تبدو تافهة عند الآخرين وعند الله، إذا كان هناك ثمة إله. إننى أتحدث إلى الشخص الذى أتخيله مقيمًا على الدوام فى مكان أخضر هادئ كالمزمور الثالث والعشرين». ثم تأتى لتريح رأسها على كتفى وتضع ذراعيها حولى. «هذا هو السبب الذى من أجله أسألك فى غالب الأحيان أن تكون رقيقًا معى بعض الشىء. فالصرح يحس وكأنه قد تشقق هنا، إننى فى حاجة لقليل من الربتات والملاطفات، كتلك التى تمنحها لـ«ميليسا»، إننى أعرف أنها هى من تحب. فمن ذا الذى فى وسعه أن يحبنى؟».

لم يكن «بورسواردن» كما أعتقد، محصنًا ضد طبيعية وسحر النغم الذى كانت تتحدث به هذا الحديث، فقد ذهب إلى ركن الحجرة وحملق فى رف كتبها. وعندما رأى كتبه شحب وجهه فى أول الأمر ثم احمر بعد ذلك، رغم أننى لم أستطع أن أتبين إذا ما كان هذا خجلاً أم غضبًا؟. وعندما استدار بدا فى أول الأمر وكأنه يوشك أن يقول شيئًا، غير أنه عاد وغير رأيه. واستدار مرة أخرى فى اكتئاب الآثم ليواجه ذلك الرف الهائل. «إذا لم تكن تعتبر هذا سفاهة منى فإنى أحب أن توقع بإمضائك على واحدة منها». إلا أنه لم يجب. ظل واقفًا لا يتحرك، يحملق فى الرف، وكأنه فى يده. ثم استدار وفجأة ظهر أنه قد سكر سكرًا بيِّنًا وقال فى لهجة عنيفة مجلجلة. «الرواية الحديثة! ذلك الروث الذى تركه المجرمون خلفهم فوق مشهد آثامهم». ثم سقط فى هدوء على جانبه، غير أنه كان حريصًا على أن يضع كأسه معتدلة فوق الأرضية، وللحال ذهب فى نوم عميق.

لقد تم كل الحديث الطويل الذى تلا ذلك إلى جوار جسد «بورسواردن» المتمدد. كنت أعتقد أنه قد نام، لكن لا بد أنه كان مستيقظًا إذ قدم، فيما بعد، الكثير من حديث «جوستين» فى قصة قصيرة تهكمية قاسية، أعجبت «جوستين» لسبب ما رغم أنها سببت لى ألمًا شديدًا. لقد وصف عينيها السوداوين بأنهما كانتا تلمعان بدموع لم تذرف عندما قالت (وهى جالسة أمام المرآة، والمشط يتنقل عبر شعرها يطقطق ويتمتم مثل صوتها): «عندما التقيت بـ «نسيم» لأول مرة وأدركت أنى واقعة فى حبه حاولت أن أنقذ كلينا فاتخذت لنفسى عن عمد عشيقًا، سويديًا غبيًا بهيميًا، آملة أن أجرح «نسيم» فأجبره على تخليص نفسه من مشاعره نحوى. كانت زوجة السويدى قد تركته فقلت له (أى شىء لأوقف بكاءه الذى أسال مخاطه) أخبرنى كيف تتصرف زوجتك معك، وسأفعل مثلما تفعل وكلنا فى الظلام لحم، وكلنا خائن مهما كانت نعومة شعورنا أو رائحة أجسادنا. أخبرنى وسأمنحك ابتسامة ليلة العرس، وألقى بنفسى فى أحضانك كجبلٍ من الحرير. ومرة بعد أخرى كنت أفكر طوال الوقت «نسيم» «نسيم».

إننى أتذكر أيضًا فى هذا المجال ملاحظة أبداها «بورسواردن» تلخص موقفه حيال أصدقائنا. لقد قال (وكان ذلك خلال إحدى النزهات الطويلة فى ضوء القمر): «الإسكندرية! يهود يتصوفون بصوفية المقاهى! كيف يمكن للمرء أن يعالج هذا الأمر فى كلمات؟ الناس والمكان؟» ربما كان يفكر حينئذ فى هذه القصة القصيرة القاسية، وينظر فى السبل والوسائل التى يتناولنا بها. «إن «جوستين» ومدينتها متشابهتان فى أن لكل منهما نكهة قوية دون أن تكون لها شخصية حقيقية.

إننى أستعيد الآن كيف سرنا معًا فى ذلك الربيع الذى مضى (مضى إلى الأبد) فى ضوء القمر وقد اكتمل، وقد غمرنا هواء المدينة الرقيق العليل، ومياه البحر وضوء القمر يغسلان الشواطئ فى صمت ويصقلانها كما تصقل علبة الحلى الكبيرة. وتثور زوبعة هوائية بين الأشجار المهجورة فى الميادين المعتمة، والطرق الطويلة المتربة التى تربط منتصف الليل بمنتصف ليل آخر، تبدو أشد زرقة من الأكسجين. وجوه المارة قد غدت كالجواهر، هائمة، الخباز على آلته يصنع عماد حياة الغد، العاشق يهرع عائدًا إلى مأواه، متوجًا بخوذة من الذعر فضية، إعلانات السينما تستعير من القمر رونقًا شاحبًا، والقمر يبدو وكأنه راقد عبر الأعصاب كالقوس.

وننحنى عند أحد الأركان ليغدو العالم شبكة من الشوارع الرئيسية التى رشت بالفضة وأعطى الظل لأطرافها شكلاً لا استواء فيه. لم يكن فى هذا الطرف القصى من «كوم الدكة» أى إنسان سوى شرطى عات كأنما جاء لمناسبة خاصة، إنه يكمن كالرغبة الآثمة فى ذهن المدينة. وتسير خطانا منتظمة كبندول الساعة عبر الأرصفة المهجورة: رجلان يسيران عبر زمنهما ومدينتهما، ينأيان عن العالم، يسيران وكأنهما يطآن واحدة من قنوات القمر المقبضة، إن «بورسواردن» يتكلم عن كتابه الذى طالما تمنى أن يكتبه، والصعوبة التى تحاصر رجل المدينة عندما يواجه عملاً من أعمال الفن: «لو تخيلت نفسك مثلاً، مدينة نائمة.. فى وسعك أن تجلس فى هدوء وتسمع الحياة وهى تأخذ مجراها، تؤدى عملها، العزيمة، الرغبة، الإرادة، المعرفة، العاطفة، التصميم. أعنى أنها تشبه ملايين الأقدام لأم أربعة وأربعين محملة بالجسد وعاجزة عن أن تفعل به شيئًا، إن المرء يصيبه الإرهاق وهو يحاول أن يطوف بهذه الحقول الهائلة من الخبرة والتجربة. إننا معشر

الكتاب، لسنا على الإطلاق أحراراً. وفى وسعى أن أشرحها بوضوح أكبر لو كنا الآن فى الفجر. إننى أتوق إلى أن أكون موسيقيًا بالعقل والجسد. أريد أن يكون لى أسلوبى، أسلوب يزاملنى. لا أريد النفثات الفكرية القليلة وكأنها صادرة عن شريط العقل المسجل. إنه مرض العصر، أليس كذلك؟ إن هذا يفسر موجات الشعوذة الهائلة التى تتراقص حولنا، والآن «القابال» و«بلتازار». إنه لن يفهم أبدًا أننا يجب أن نكون أشد حرصًا مع الإله، لأنه هو الذى جعل هذه الجاذبية القوية لكل منحط فى طبيعة الإنسان، مثل تلك الجاذبية القوية لشعورنا بالنقض، للخوف من المجهول، لقصورنا الشخصى وفوق كل هذا، للأنانية المهولة التى ترى أن إكليل الشهيد فى سبيل المبدأ إنما هو جائزة رياضية صعبة المنال حقًا. يجب ألا تتناول حقيقة الله وطبيعة قدرته بوضوح أو تخصيص: إنها ككأس ماء أخذت من ينبوع، لا طعم لها ولا رائحة، إلا أنها منعشة: إن نداءها موجه للقلة، للقلة القليلة، للمتأملين الحقيقيين. أما بالنسبة للكثرة فإنها محتواه بالفعل فى ذلك الجزء من طبيعتهم الذى هو أقل الأجزاء التى يبغون الاعتراف بها أو اختبارها. إننى لا أؤمن أن هناك نظامًا فى وسعه أن يفعل أكثر من تحوير الفكرة الأساسية بصورة تضليلية. ثم ماذا بعد كل تلك المحاولات لتحديد الله فى كلمات أو أفكار.. لا يوجد شىء واحد فى مقدوره أن يفسر كل شىء: رغم أنه من الممكن لكل الأشياء أن تفسر شيئًا ما. إلهى، لا بد أننى ما زلت مخموراً. لو كان الله أى شىء لكان فنّا من الفنون. نحتًا أو طبّا. إلا أن الانتشار الهائل للمعرفة فى عصرنا هذا. ونمو علوم جديدة يكادان أن يجعلا من المستحيل علينا أن نهضم كل التكهنات المتاحة وأن نستخدمها.

«أعنى أنك تستطيع أن تلقى على الحائط بظل الأوعية الدموية

الخاصة بشبكية العين عندما تمسك بشمعة فى يدك. إنها ليست ساكنة سكونًا كافيًا. إنها لم تصمت فى الداخل صمت الموت أبدًا. إنها لم تكن البتة هادئة بالقدر اللازم للأسنان الطويلة كى تتغذى. فى استطاعتك أن تسمع طوال الليل اندفاع الدم فى شرايين المخ. فى خاصرة الفكر. إنها تستفزك أن تعود إلى الوراء عبر تروس حركة التاريخ، أن تعود إلى السبب والأثر. إنك لن تستطيع أن ترتاح أبدًا، لن تستطيع أن تتوقف وأن تبدأ فى قراءة الغيب. إنك تتسلق جسد الإنسان من أوله إلى آخره، تفرق برقة مجموعات العضلات المتشابكة المحدودة منها وغير المحدودة لتدخل، وتفحص جهاز الاحتراق الحلزونى الخاص بالمصارين فى البطن، البنكرياس، الكبد وقد غص بالفضلات مثل مصفاة البالوعة، المثانة، حزام الأمعاء الأحمر غير المشدود، ممر البلعوم الناعم الصلب مثل القرن، فتحة الحنجرة بمادتها الصمغية الأنعم من كيس القنغر. ماذا أعنى بذلك؟ أعنى أنك تبحث عن نظام سوى، عن قواعد للإرادة يمكن أن تثبت كل شىء وتقتلع منه جانب المأساة إلا أن العرق يغشى وجهك وذعرًا باردًا يجثم عليك وأنت تحس انقباض وامتداد الأحشاء فى رقة وهى منهمكة فى عملها، لا تهتم بالرجل الذى يرقبها، الذى هو أنت بنفسك. مدينة من العمليات كاملة، مصنع لإنتاج البراز، يا إلهى، قربان يومى، نقدمه للمرحاض مقابل كل تقدمة للهيكل. أين يلتقيان؟ وأين الصلة فيما بينهما؟ هناك فى الخارج فى الظلام قرب كوبرى السكة الحديدية حيث توجد حبيبة هذا الرجل فى انتظاره، يجرى فى دمها وجسدها نفس العفن الذى لا يمكن وصفه، الخمر تغسل الأمعاء التى تشبه القنوات، فتحة المعدة السفلية تتقيأ ما فيها كمضخة، عالم البكتيريا الذى لا يحد، يتكاثر فى كل نقطة مَنى، بصاق، لعاب، أو عطر. إنه يأخذ بين ذراعيه

عموداً فقريّا، القنوات فاضت بالأمونيا، الأغشية السحائية تنضح لقحها، قرنية العين تتوهج فى بوتقتها الصغيرة».

ويبدأ «بورسواردن» الآن ضحكته الصبيانية التى تثير الفزع، ملقيًا برأسه إلى الخلف حتى يلعب ضوء القمر على أسنانه الناصعة البياض تحت شاربه الصغير الأشقر.

فى مثل تلك الليلة ساقتنا خطانا إلى باب «بلتازار»، وإذ رأينا منزله مضاء، طرقنا الباب، وسمعت فى ذات الليلة، من جراموفون ذى بوق عتيق (بعاطفة عميقة إلى حد يثير الفزع) تسجيلاً قام به أحد الهواة للشاعر الشيخ يتلو الأبيات التالية والتى تبدأ:

أصوات هؤلاء الذين ماتوا وهؤلاء الذين
فقدناهم الآن فغدوا كالموتى تمامًا
أصوات مُثلى محبوبة للغاية.
إنهم يتكلمون أحيانًا خلال أحد الأحلام
أو تمنحهم الحياة فكرة تنبض فى العقل

تلك الذكريات الهائمة لا تفسر شيئًا ولا توضح شيئًا: ورغم ذلك فإنها تلح مرة بعد أخرى عندما أفكر فى أصدقائى وكأن الظروف التى نمت فيها طبائعنا قد غدت حبلى بما كان يحسه «بورسواردن» حينذاك وبالأدوار التى مثلنا حينذاك. انزلاق العجلات عبر أمواج الصحراء تحت سماء زرقاء يحدها الصقيع فى الشتاء، أو غارة قمرية مخيفة فى الصيف تحيل البحر إلى فوسفور والأجساد تلمع كقصدير، طحنته فقاعات كهربية، أو نسير إلى آخر لسان رملى قرب «المنتزة» نتلصص خلال الظلمة الكثيفة الخضراء

التى تخيم على حدائق الملك، نعبر الديدبان النعسان إلى حيث أصيبت قوى البحر بالعجز فجأة وأخذت الأمواج تحجل فوق حاجز الرمال. أن نهبط، وقد تشابكت أذرعنا إلى الصالة الطويلة التى يكسوها بالكآبة ضباب شتوى أصفر غير مألوف. يدها باردة، لذا جعلتها تنزلق إلى جيبى. لقد أخبرتنى اليوم، إذ كانت خالية من أى انفعال، بأنها تحبنى، الشىء الذى كانت ترفض على الدوام أن تقدم عليه. وتئز الأمطار فجأة عند النوافذ الطويلة. العينان الغامقتان باردتان لكنهما تتسليان. مركز أسود فى الأشياء يهتز ويغير شكله: «إننى أخاف «نسيم» فى هذه الأيام. فقد تغير». كنا نقف أمام اللوحات الصينية القادمة من «اللوفر». وقالت فى تقزز «معنى الفراغ» لم يعد هناك أى شكل، أو لون، أو رؤية؛ لا شىء غير ثقب يتثاءب تنزاح اللا نهاية منه إلى الحجرة على مهل، خليج أزرق حيث كان جسد النمر، يفرغ نفسه فى جو المراسم المشحون بالقلق. وصعدنا فيما بعد السلم المظلم إلى الطابق العلوى لنرى «سفيفًا»، لندير الجراموفون ونرقص. والموديل الصغيرة تتظاهر بأنها محطمة الفؤاد لأن «بومبال» قد نبذها بعد غرام عاصف دام قرابة شهر.

وصديقى نفسه يبدو مندهشًا بعض الشىء لقوة تلك العلاقة التى جعلته يفكر فى امرأة واحدة كل تلك المدة الطويلة. كان قد جرح نفسه وهو يحلق، فبدا وجهه غريب الشكل بشارب ألصق عليه شريطًا طبيًا. كان يكرر فى غضب: «إنها مدينة تصيب المرء بالخلل العقلى. لقد كدت أتزوجها. إنه أمر يثير الغضب. الحمد لله أن رفع الحجاب عنى ساعة رأيتها عارية أمام المرآة. فقد شعرت فجأة بالتقزز، رغم أنى افترضت بصورة عقلية أن هناك شيئًا من اعتداد عصر النهضة فى النهدين الساقطين، والجلد الشمعى، والبطن المتدلية، والبراثن

الفلاحية الصغيرة. وفجأة جلست على سرير وقلت لنفسى: «يا إلهى! إنها فيل يحتاج إلى طلاء مما تبيض به الحوائط».

وأخذت «سفيفا» تشهق فى هدوء فى منديلها بينما كانت تعدد من جديد الوعود المسرفة التى بذلها لها «بومبال»، والتى لن تتحقق أبداً (وسمعت صوت «بومبال» يوضح الأمر) «لقد كانت علاقة غريبة وخطرة على رجل لا يهتم إلا بالأمور التافهة. لقد كان وقعها على نفسى وكأن تفضلها البارد القاتل قد التهم مراكز الحركة عندى. وشل جهازى العصبى. الحمد لله أنى الآن حر لأركز تفكيرى فى عملى مرة أخرى».

كان يحس بالقلق فيما يختص بعمله. فقد أخذت الشائعات عن عاداته ونظرته العامة ترتد إلى القنصلية. كان يخطط وهو راقد فى سريره لحملة تجلب له عذاب المصلوب وترقيه إلى وظيفة أوسع مجالاً: «لقد قررت أن أنال ترقيتى. سأقوم بتقديم عدة حفلات أعدها فى براعة. سأعتمد عليك: لأنى سأحتاج فى أول الأمر إلى بعض الناس الذين تبدو عليهم القذارة، حتى أعطى لرئيسى شعوراً بأنه قادر على أن يرعانى من الناحية الاجتماعية. إنه بالطبع وضيع المنبت للغاية، رفعته ثروة زوجته وتملقه الفطن للناس الأقوياء. إن أسوأ ما فى الأمر أنه مصاب بعقدة نقص واضحة فيما يتعلق بمولدى والغموض الذى يحيط بأسرتى، إنه لم يقرر بعد إذا ما كان يتخلص منى أم لا، إلا أنه كان يقوم بعمليات جس نبض بوزارة الخارجية الفرنسية ليرى إلى أى مدى أنا مسنود هناك. وبالطبع فمنذ وفاة عمى، وتورط إشبينى المطران فى تلك الفضيحة الضخمة التى حدثت فى ماخور «ريمز»، غدا مركزى إلى حد ما أقل رسوخًا. علىّ أن أجعل هذا البهيم يحس أنه المدافع

عنى، يحس بأنى أحتاج إلى التشجيع والتقديم. أف! أولاً حفلة فاخرة بها شخصية واحدة مشهورة، أوه، لماذا التحقت بهذا العمل؟ لماذا لا تكون لدى ثروة صغيرة خاصة بى؟»

كنت أسمع كل هذا من خلال دموع «سفيفا» الزائفة، ومرة أخرى هبطنا السلم الذى به مسقط هواء وقد تشابكت أيدينا، لم أكن أفكر فى «سفيفا» ولا فى «بومبال» ولكن فى تلك الصفحة من كتاب «الأرناؤوطى» حيث يقول عن «جوستين»: «إنها تشبه هؤلاء النسوة اللواتى يفكرن على أسس بيولوجية، دون الاستعانة بالعقل. إنه لخطأ قاتل أن يسلم المرء نفسه لمثل هؤلاء النسوة، هناك تسمع صوت مضغ خفيف، كذلك الصوت الذى يصدر عن القطة عندما تصل إلى العمود الفقرى للفأر».

الأرصفة المبتلة من المطر زلقة تحت الأقدام، وتشبع الهواء بالرطوبة التى تاقت إليها الأشجار بشدة، والتماثيل والطيور المهاجرة. «جوستين» تسرح بفكرها فى مجرى آخر، تسير ببطء فى فستانها الحريرى الفاخر وعلى كتفيها دثار غامق الأطراف، وقد تدلت رأسها. وتقف أمام نافذة متجر مضاءة. وتأخذ ذراعى حتى أواجهها وتنظر فى عينىَّ وتقول فى صوت هادئ حائر: «إننى أفكر فى الرحيل. إن شيئًا ما يحدث «لنسيم». ولا أعرف كنهه حتى الآن. وفجأة طارت الدموع من عينيها وهى تقول: «إننى أحس لأول مرة أننى خائفة، ولا أدرى لماذا؟».

* * *

الجـــزء الثالـــث

كـانت رياح الخـمـاسين في ذلك الربيع الثـاني لوجـودي في «الإسكندرية»، أسوأ مما عرفتها من قبل أو من بعد. فقد تلونت سماء الصحراء قبل شروق الشمس باللون البني الذي يشبه لون ثياب خشنة منشاة، ثم أخذت تعتم في بطء وهي تنتفخ ككدمة وتحدد على الأقل ملامح السحب، غانيات عملاقة من اللون الأصفر، تكومت من الدلتا مثل كثبان من الرماد تحت بركان. المدينة أحكمت إغلاق منافذها، وكأنها تواجه ريحًا عاصفة. لفحات قليلة من الهواء ومثلها من مطر ثقيل، هي نذر الظلام الذي يمحو ضوء السماء. والآن يغزو الرمل كل شيء دون أن يُرى في ظلام الحجرات الموصدة النوافذ. ويظهر كما لو كان يفعل السحر، في الملابس المصونة منذ أمد بعيد، في الكتب والصور وملاعق الشاي، في أقفال الأبواب وتحت الأظافر. الهواء القاسي اللاهث ييبس أغشية الحلوق والأنوف، ويجعل العينين تدمعان بصورة متصلة. سحب في لون الدم الجاف تقطع الشوارع كالنتوءات، وتستقر الرمال في البحر كما يستقر مسحوق في خصلات شعر مستعار بال. أقلام الحبر غَصَّت، والشفاه جفت، وكومة بيضاء رقيقة وكأنما هي ثلج حديث التكوين تغطي إردواز النوافذ البندقية الطراز. والفلوكة التي تشبه الأطياف تعبر القناة، تبحر بها غيلان معصوبة الرءوس. ومن حين لآخر تهبط من السماء مباشرة ريح تطرقع تثير المدينة كلها فتدور حتى يخيل للمرء أن كل شيء، الأشجار والمنائر، النصب التذكارية

والناس، قد وقعوا فى قاع دوامة هائلة وأنها سترجع فى رفق فى النهاية إلى الصحراء التى نبت منها الجميع عائدين مرة أخرى إلى أرض الكثبان المجهولة التى نحتتها الأمواج.

لا أستطيع أن أنكر أن كلينا تملكه فى ذلك الوقت إرهاق روحى جعلنا يائسين طائشين، نتعجل انكشاف أمرنا. فالإثم يهرع دائمًا نحو تتمته، نحو جزائه: فهنالك فقط تكمن راحته. وسيطرت علىّ، حماقة «جوستين» التى كانت تفوق حماقتى، رغبة خفية فى التكفير، أو ربما انتاب كلينا ونحن مقيدان ذراعًا وساقًا إلى بعضنا البعض شعور مبهم بأن هزة ما يمكن أن تعيد كلينا إلى صوابه. كانت تلك الأيام مليئة بالنذر والتحذيرات التى كان يقتات عليها قلقنا.

أخبرنى «حميد» الأعور ذات يوم، أن زائرًا غامضًا أخبره أن يسهر على حماية سيده، حيث إن شخصية عالية المكانة تتهدده بخطر كبير. وكان وصفه للرجل ينطبق على «سليم»، سكرتير «نسيم»: إلا أنه ينطبق كذلك على أىّ من الـ ٥٠,٠٠٠ الذين يسكنون الإقليم. وفى تلك الأثناء كان موقف «نسيم» حيالى قد تغير، أو بالأحرى قد عمق إلى عذوبة غامرة يشوبها القلق. لقد ألقى بتحفظه السابق جانبًا. وأخذ عندما يتكلم إلىّ يستخدم عبارات تودد غير مألوفة. كان يمسكنى من كمى فى محبة. وأحيانًا بينما نتكلم كان يتورد وجهه من الخجل فجأة: أو تغرورق عيناه بالدموع فيدير رأسه ليخفيها. وكانت «جوستين» ترقب هذا باهتمام من المؤلم أن تلحظه. غير أن الذل وتأنيب الضمير الذى كنا نحسه لأننا أسأنا إليه كان يقربنا أكثر فأكثر كشريكين فى الذنب. وتكلمت «جوستين» فى بعض الأحيان عن الرحيل، وفعلت أنا بالمثل فى أحيان أخرى. غير أن أحدًا منا لم يكن فى وسعه أن

يتحرك. كنا مجبرين على انتظار النتيجة فى تسليم ونفاذ صبر، كانت فى الحقيقة تجربة مخيفة.

ولم تقلل هذه التحذيرات من حماقاتنا، بل ضاعفتها. وساد أفعالنا استهتار مخيف، وتميز سلوكنا بالطيش المفزع. لم يكن لنا حتى أن نأمل (وهنا أدركت أنى قد أضعت نفسى تمامًا) فى تجنب ما أعده لنا القدر. لم يكن يعنينا لحماقتنا سوى خوفنا ألا نتمكن من اقتسام قدرنا معًا. خوفنا أن يفرقنا عن بعضنا البعض. وأدركت من خلال هذا التلمس الواضح للاستشهاد أننا قد أظهرنا حبنا وهو فى أشد حالاته فراغًا وقصورًا. قالت «جوستين» ذات مرة: «لابد أننى أبدو لك مقززة بما أقول من خليط قبيح من الأفكار المتعارضة: كل هذا الاهتمام السقيم بالله وعجز كامل عن طاعة أبسط وأعز أمر خلقى صادر عن طبيعتى الداخلية كأن أكون مثلاً وفية لرجل واحد أحبه لدرجة العبادة. إننى أرتجف يا عزيزى إشفاقًا على نفسى. إننى أرتجف. كم أود لو كان فى استطاعتى أن أنجو من تلك الشخصية التقليدية المتعبة لليهودية المختلة الأعصاب. لو كان فى وسعى أن أنزعها عن نفسى».

خلال تلك الشهور، بينما كانت «ميليسا» تستشفى فى فلسطين (وكنت قد استدنت المال اللازم من «جوستين» حتى تتمكن «ميليسا» من السفر) أفلتنا من عدة مآزق. فمثلاً كنت ذات يوم أتحدث أنا و«جوستين» فى حجرة النوم الكبيرة بالمنزل. كنا قد عدنا من الاستحمام بالشاطئ وكنا قد أخذنا دشًا باردًا كى نزيل الملح من على أجسادنا. وجلست «جوستين» فوق السرير عارية تحت بشكير الحمام الذى لفته حولها فى رشاقة كرداء يونانى الطراز. وكان «نسيم» فى القاهرة، حيث كان مفروضًا أن يقدم حديثًا فى المذياع نيابة عن جمعية خيرية أو ما شابه ذلك، وخارج النافذة

كانت الأشجار تميل بأوراقها المتربة فى جو الصيف الرطب. بينما كان من الممكن سماع ضجيج حركة المرور الخافتة فى «شارع فؤاد».

وجاءنا صوت «نسيم» الهادئ من المذياع الصغير الأسود الموجود قرب الفراش، وقد حوله مكبر الصوت إلى صوت رجل شاخ قبل أوانه. وعاشت العبارات الخالية من أية فكرة فى الصمت الذى غزته حتى بدا الجو وكأنه قد ازدحم بالتفاهات. غير أن الصوت كان جميلاً، كان صوت رجل أحكم عزل نفسه عن أية مشاعر. وكان باب الحمام خلف ظهر «جوستين» مفتوحًا. وخلفه يوجد باب به لوح زجاجى أبيض بياض العيادات الطبية يؤدى إلى سلم حديدى يستخدم للنجاة عند الحريق. فقد كان بناء المنزل مصممًا حول بئر تتوسط المكان حتى يمكن ربط حجرات الحمام والمطابخ بشبكة من السلالم الحديدية كتلك التى تمتد فى غرفة الآلات بالسفينة. وفجأة، بينما الصوت ما زال يتكلم وبينما نصغى نحن إليه، وصلت أسماعنا خطا خفيفة شابة سريعة تصعد السلم الحديدى خارج الحمام: خطوة «نسيم» والتى لا يخطئها السمع. أو خطوة أىّ من الخمسين ألفًا الذين يقطنون الإقليم. ورأيت عندما نظرت من فوق كتف «جوستين»، رأس وكتفى رجل نحيل، يرتدى قبعة طرية من اللباد مشدودة إلى عينه، تظهر فوق زجاج الباب الأبيض. كانت تتضح معالمه مثل صورة تطبع فى وعاء التحميض. وتوقف الشبح وقد مد يده إلى مقبض الباب. وأدارت «جوستين» رأسها عندما رأت اتجاه نظرتى. ووضعت ذراعا عارية حول كتفى، بينما أخذ كلانا يرقب، فى هدوء كامل يخفق كالقلب بشعور من الإثارة الجنسية المحمومة العاجزة، الشبح المعتم الواقف هناك بين عالمين وقد تحددت معالمه كأنما على شاشة أشعة «إكس»، وعلى وجهينا ارتسم شعور بالبراءة لا شعور بالخوف.

ووقف الشبح هناك لفترة طويلة، كأنما يفكر بعمق، وربما كان ينصت إلى شيء ما. ثم هز رأسه في بطء مرة واحدة، وبعد لحظة استدار وقد لاحت عليه الحيرة ثم بدأ يذوب في بطء من فوق الزجاج. وبينما يستدير بدا وكأنه يضع شيئًا في جيب سترته الأيمن. وسمعنا خطاه تتلاشى بطيئة، كسلم من الأنغام الهابطة الرديئة، فوق سلم البئر الحديدي. ولم يتفوه أيّ منا. فقد استدرنا وبتركيز عميق إلى المذياع الصغير الأسود الذي ينساب منه صوت «نسيم»، في دماثة ورقة متصلتين. وبدا أنه من المستحيل أن يوجد في مكانين في وقت واحد. ولم ندرك حقيقة الأمر إلا بعد أن أوضح لنا المذيع أن الحديث قد سجل من قبل. لماذا لم يفتح الباب؟

الحقيقة أنه كان قد وقع في قبضة دوامة الشك التي تتبع قرارًا اتخذ للعمل على ضوئه، عند من كانت طبيعتهم مسالمة. فطوال ذلك الوقت كان هنالك شيء ينمو في داخله حبة فحبة، حتى غدا وزنه فوق ما يحتمل. كان متنبهًا إلى أن تغييرًا في طبيعته يتم في أعماقه وأن هذا التغيير ينفض عنه أخيرًا ذلك الشلل الطويل، شلل الحب العاجز الذي كان يسيطر على أفعاله. وألحت عليه كشيء طريف مخدر فكرة عمل محدد مفاجئ، عمل يحسم الأمر إن خيرًا وإن شرًا وأحس (كما أخبرني فيما بعد) أنه كمقامر يوشك أن يجازف في ضربة واحدة يائسة بالبقايا التافهة لثروة مفقودة. إلا أنه لم يكن قد استقر بعد على طبيعة هذا العمل. ما الشكل الذي يتخذه؟ وتفجرت في داخله كومة من النزوات المضطربة.

وبلغ تياران رئيسيان من تيارات هذه الرغبة مصبهما، نهايتهما، يستحثانه على العمل. فمن ناحية بلغ دوسيه المعلومات الذي جمعه له

عملاؤه عن «جوستين» حجمًا لا يمكن التغاضى عنه، وتملكته من الناحية الأخرى فكرة جديدة ومخيفة فكرة لم تطرأ على باله من قبل لقد وقعت «جوستين» في الحب أخيرًا، لقد بدا أن مزاج شخصيتها العام يتغير، وأنها قد غدت للمرة الأولي، متأملة، مفكرة، تفيض عذوبة من تلك العذوبة التى في وسع المرأة أن تمنحها للرجل الذى لا تحبه. و«نسيم» أيضًا، كما ترى، كان يتعقب خطاها من خلال صفحات كتاب «الأرناؤوطى».

«كنت أعتقد في باديء الأمر أنه يجب السماح لها بأن تقاتل خلال دغل الحائل متجهة نحوى. وعندما كانت تلح علىَّ فكرة خيانتها الموجعة كنت أذكر نفسى بأنها ليست امرأة ممن يبحثن عن اللذة، ولكنها امرأة تتصيد الألم في بحثها عن نفسها، وعنى. واعتقدت أنه لو تمكن رجل واحد من تحريرها من نفسها فإنها ستصبح فى متناول جميع الرجال، وكذلك أنا أولي الناس بها. غير أن فكرة فظيعة طرأت على بالى، عندما رأيتها تذوب مثل غطاء من الثلج: وهى أن الرجل الذى سيحطم الحائل سيحتفظ بها إلى الأبد، حيث إن الراحة التى أعطاها لها بالتحديد هي الشيء الذي كانت تبحث عنه في جنون خلال أجسادنا ومصائرنا. وللمرة الأولى سيطرت علىَّ مشاعر الغيرة التي كان يغذيها خوفي».

ولقد بدا غريبًا لى أن تصيب الغيرة «نسيم» على الدوام وحتى الآن من كل شخص ما عدا الشخص الحقيقى الذى يسطر حاضر «جوستين»، منى أنا. ورغم كومة الأدلة الغامرة إلا أنه لم يجرؤ على السماح لنفسه بالشك فى. ليس الحب هو الأعمى، ولكن الغيرة هى العمياء. لقد مضى وقت طويل قبل أن يتمكن من ترويض نفسه على

أن يثق فى كومة المستندات والأدلة التى جمعها له عملاؤه عنا، عن لقاءاتنا، وتصرفاتنا. غير أن الحقائق فرضت نفسها الآن بصورة واضحة لا يحتمل معها الخطأ. وغدا السؤال كيف السبيل إلى التخلص منى، «إننى لا أبالى بالجسد كثيراً: لقد غدوت مجرد خيال يحجب عنى الضياء. ربما كنت أراك تموت، أو تذهب بعيداً. لم أكن أدرى. كان عدم اليقين ذاته مثيراً إلى حد السكرة».

غير أنه جنبًا إلى جنب مع تلك المشاغل، كانت هنالك مشاغل أخرى، المشاكل التى انبعثت عند «الأرناؤوطى» والتى عجز عن حلها والتى كان يتابعها «نسيم» على مدى سنتين بفضول شرقى أصيل. لقد غدا الآن قريبًا من الرجل ذى العصابة السوداء على عينيه، أقرب إليه من أى منا فى أى وقت. هنا كان فى حوزته جزء آخر من المعرفة لم يكن قد قرر بعد أفضل السبل للإفادة منه. وإذا كانت «جوستين» تخلص نفسها بالفعل منه، فما الفائدة إذن من أن ينتقم لنفسه من الشخص الحقيقى لذلك الكائن الغامض؟ ومن الناحية الأخرى: ما الحل إذا كنت أنا على وشك أن أحتل المكان الذى خلا بزوال هذا الشبح؟

ولقد سألت «سليم» صراحة إذا ما كان قد زار شقتى ليحذر «حميد» الأعور. غير أنه لم يجب، أحنى رأسه وقال فى صعوبة: «إن سيدى على غير طبيعته فى تلك الأيام».

وفى تلك الأثناء اتخذت أقدارى طريقًا غير معقول ولا متوقع. فقد سمعت ذات ليلة طرقات مدوية على باب شقتى وفتحت الباب ليدخل منه ضابط مصرى من ضباط الجيش أنيق الهيئة يرتدى حذاء متألقًا وطربوشًا. ويحمل تحت إبطه منشة صخمة ذات مقبض من الأبنوس وكان «يوسف بك» يتحدث بلغة إنجليزية سليمة، تنثال من شفتيه فى

سهولة، كلمة بعد أخرى منتقاة بعناية، من وجه جاد أسود كالفحم به أسنان ممتازة صغيرة ذات سناء كحبات اللؤلؤ. كان يتمتع بالوقار المحبب لبطيخة ناطقة قادمة لتوها من «كامبريدج». وقدم له «حميد» القهوة المعتادة ومشروب كحولى حلو لزج، وأثناء تناوله للمشروبات أخبرنى أن صديقًا كبيرًا لى يحتل مركزًا عاليًا يود أن يرانى بإلحاح. وللحال اتجهت أفكارى إلى «نسيم»، غير أن هذا الصديق، كما زعم البطيخة كان ضابطًا إنجليزيًا. وأنه ليس فى وسعه أن يقول أكثر من هذا. كانت مهمته سرية. هل أذهب معه وأزور صديقى؟

كانت تملؤنى الشكوك والريب «فالإسكندرية» التى تبدو من الخارج مسالمة، لم تكن فى الحقيقة مكانًا مأمونًا للمسيحيين، ففى الأسبوع الماضى فقط، جاء «بومبال» إلى المنزل يحكى قصة نائب القنصل السويدى الذى أصيبت سيارته بعطب على طريق مطروح. كان قد ترك زوجته بمفردها بينما اتجه هو إلى أقرب تليفون ليتصل بالقنصلية ويطلب منها إرسال سيارة أخرى. وعاد ليجدها تجلس فى المقعد الخلفى بطريقة طبيعية، جسدًا بلا رأس. واستدعى البوليس وفتشت المنطقة كلها بدقة. وكان بين الذين يجرى استجوابهم بعض البدو الذين يقيمون فى مخيم قرب هذا المكان. وبينما كانوا غارقين فى إنكار أية معرفة بالحادث، تدحرجت الرأس المفقودة من فوطة إحدى النساء. كانوا يحاولون اقتلاع أسنانها الذهبية والتى كانت تعطى لابتسامتها سمة غير محببة فى الحفلات. لم تكن مثل هذه الحادثة من الندرة بالقدر الذى يجعل المرء يقدم على زيارة الأحياء القريبة من المدينة بعد أن يحل الظلام، ولذا فقد تبعت الضابط دون أى إحساس بالاطمئنان إلى سيارة حكومية جلست فى مقعدها الخلفى، خلف سائق يرتدى رداء رسميًا، ووجدت السيارة تدور بسرعة نحو أقذر أحياء المدينة. وأخذ

«يوسف بك» يتحسس شاربه الصغير الأنيق بطريقة من يتوقع شيئًا كالموسيقى عندما يشد أوتار آلته. كان من العبث سؤاله المزيد من الأسئلة: ولم أكن أود أن أكشف شيئًا من القلق الذى أعانيه. ولذا فقد استسلمت فى دخيلتى للموقف، وأشعلت سيجارة، وأخذت أراقب شريط الكورنيش الطويل وهو يتلاشى خلفنا. وتوقفت السيارة فهبطنا وقادنى الضابط سيراً على الأقدام عبر مجموعة من الأزقة والحوارى المتشعبة قرب «شارع الراهبات». فإذا كان الهدف من إحضارى هنا هو أن أفقد سيطرتى على نفسى فقد تحقق على الفور تقريبًا. كان يسير بخطا خفيفة واثقة، يدندن فى صوت خافت. وأخيراً خرجنا من الشوارع الضيقة إلى شارع فى الضواحى ملىء بالمتاجر ووقفنا أمام باب كبير نحتت عليه بعض النقوش ودفع الضابط الباب ففتحه بعد أن دق الجرس. ودخلنا إلى ساحة بها بعض أشجار النخيل العاجزة عن النمو، وقد وضع فانوسان باهتا الضوء فوق الحصى على جانبى الممر الذى يقطع تلك المسافة. وعبرنا الممر وصعدنا بضع درجات حيث كان مصباح كهربى ناصع البياض يلقى بنوره القوى على باب أبيض طويل. وطرق الباب ودخل ورفع يده بالتحية فى حركة واحدة. وتبعته إلى حجرة كبيرة أميل إلى أن تكون أنيقة ودافئة وقد زينت أرضيتها النظيفة المصقولة سجاجيد عربية جميلة. وفى أحد الأركان جلس «سكوبى» على مكتب عال مطعم يحيط نفسه بجو من الخيلاء الكاذبة، وعلى وجهه تقطيبة المعتد بنفسه تغطى ابتسامة الترحيب التى حيانى بها. وقلت «يا إلهى». وأطلق القرصان العجوز ضحكة مكتومة من ضحكات حارة «درورى لين»، وقال: «أخيراً، أيها الرجل العجوز، أخيراً». ومع ذلك فإنه لم ينهض لاستقبالى وظل جالسًا على كرسيه غير المريح ذى المسند العالى، طربوشه على رأسه، ومنشته على ركبته

يحيط نفسه بجو يترك فى النفس إحساسًا بالغموض. ولاحظت مزيدًا من النجوم على كتفه. السماء القادرة وحدها تعلم مصدر تلك الزيادة فى الرتبة والسلطة. وقال وهو يشير بيده فى حركة ضجرة تشبه حركة المنشار وتحمل شبهًا ضئيلاً للإيماءات الإمبراطورية: «اجلس أيها الرجل العجوز». وسمح للضابط بالانصراف فغادر المكان وهو عابس. وبدا لى أن «سكوبى» لا يبدو شديد الارتياح فى هذه الأبهة التى تحيط به. كان يحيط نفسه بإطار من الدفاع عن النفس، وقال وهو يخفض صوته إلى همس مسرحى: «لقد طلبت منهم القبض عليك، لسبب خاص للغاية». كان يوجد على مكتبه عدد من الملفات الخضراء، وغطاء براد شاى عديم المنظر بصورة غريبة. وجلست.

نهض «سكوبى» فى سرعة وفتح الباب. لم يكن هناك أحد بالخارج، ففتح النافذة. لم يكن هناك أحد يقف عند حافة الشباك. فوضع غطاء الشاى فوق تليفون المكتب ثم عاود الجلوس. ثم مال إلى الأمام، وبينما كان يتكلم فى حرص، أخذ يفحصنى بعينه الزجاجية بطريقة حادة تآمرية. قال: «ولا كلمة لأى إنسان، أيها الرجل العجوز. اقسم أنك لن تتفوه بكلمة واحدة». وأقسمت. «لقد جعلونى رئيسًا للشرطة السرية». وصفرت الكلمات من خلال طاقم أسنانه الصناعية بطريقة ظريفة. وأومأت برأسى وأنا فى دهشة. وسحب نفسًا عميقًا وكأن عبئًا قد أزيح عن كاهله واستمر يقول: «أيها الولد العجوز، ستقع الحرب. معلومات داخلية». وأشار بإصبعه إلى صدغه: «ستقع الحرب. والعدو يعمل ليل نهار هنا بيننا، أيها الولد العجوز»، لم يكن فى مقدورى أن أجادله فيما يقول. غير أنى كنت أتعجب من «سكوبى» الجديد الذى يجلس أمامى كصورة فى مجلة رديئة. «فى استطاعتك أن تساعدنا فى مباغتتهم والإجهاز عليهم، أيها

الرجل العجوز». واستمر فى حديثه بطريقة آمره مدمرة: «إننا نود أن نضمك إلى قوتنا». وكان لهذه الجملة وقعًا أكثر قبولاً على نفسى. وانتظرت التفاصيل. قال الرجل العجوز فى صوت له هدير وصرير: «إن أخطر العصابات جميعًا هنا، فى «الإسكندرية»، وأنت فى قلبها، إنهم جميعًا أصدقاؤك».

وفجأة رأيت فى حاجبيه المعقودين وعينيه المضطربتين، رأيت كاللمحة البديهية الخاطفة صورة «نسيم»، وهو يجلس إلى مكتبه الضخم فى الحجرة ذات الأنابيب الباردة المصنوعة من الصلب، فى انتظار مكالمة تليفونية بينما حبات العرق تتجمع فوق جبهته. كان يتوقع رسالة عن «جوستين»، وخزة أخرى من وخزات السكين. وهز «سكوبى» رأسه وقال: «ليس هو على وجه التحديد. بالطبع إنه واحد من العصابة. الزعيم رجل يدعى «بلتازار». انظر ما عثرت الرقابة عليه».

وأخرج بطاقة من أحد الملفات وناولها لى. إن خط «بلتازار» أنيق، كان من الواضح أن الكتابة بخطه، غير أنى لم أستطع أن أمنع نفسى من الابتسام عندما رأيت أن ظهر البطاقة البريدية لم يكن يحتوى إلا على تخطيط للوحة شطرنج بطريقة الخطوط المتعاقبة فى اتجاهات متضادة. والحروف اليونانية تملأ المربعات الصغيرة. وقال «سكوبى»: «إنه يتمتع بوقاحة لا حد لها حتى إنه يرسل تلك البطاقات بالبريد المفتوح». وفحصت التخطيط وحاولت أن أتذكر القليل الذى تعلمته من صديقى عن حساب التفاضل، وأضاف «سكوبى» وهو يلهث: «إنه نظام القوة التاسعة. وأنا لا أستطيع قراءة تلك البطاقة. إنهم يجتمعون بطريقة منتظمة كى يجمعوا المعلومات. إننا نعلم هذا علم اليقين». وأمسكت

بالبطاقة البريدية بخفة بين أصابعي وبدا لى أنى أسمع صوت «بلتازار» وهو يقول: «إن مهمة المفكر هو أن يقترح، أما عمل القديس فهو أن يلتزم الصمت إزاء ما يكتشف».

وعاد «سكوبى» ليتكئ فى كرسيه، يغمره شعور ظاهر بالرضا عن نفسه. كان قد نفخ نفسه كحمامة ممتلئة الحوصلة. وخلع طربوشه من فوق رأسه وتأمله فى حدب ولطف ووضعه فوق مفرش الشاى. ثم حك صلعته المشققة بأصابع ناتئة العظام واستمر يقول: «إننا فى بساطة عاجزين عن فك الشفرة، ولدينا العشرات من أمثال تلك البطاقة». وأشار إلى ملف متخم بالنسخ المتشابهة والتى تماثل تلك البطاقات: «لقد لفت كل الحجرات المختصة بحل الشفرات: حتى أساتذة الجامعة المقتدرين فى الرياضة. ولكن بلا طائل، «أيها الرجل العجوز».

ولم يثر هذا الأمر دهشتى. ووضعت البطاقة البريدية فوق كومة من مثيلاتها وعدت أتأمل «سكوبى»، الذى قال وهو مقطب الجبين: «وهنا يجيء دورك، إن شئت أن يكون لك دور، أيها الرجل العجوز. إننا نود منك أن تفك الشفرة مهما استغرق هذا الأمر من وقتك وستنال ما يرضيك تمامًا. فما قولك فى هذا؟».

ماذا فى وسعى أن أقول؟ لقد كانت الفكرة تبهج النفس، وكان على المرء ألا يتركها تفلت منه. يضاف إلى ذلك أن عملى المدرسى خلال الشهور الأخيرة قد هبط كثيراً حتى إنى كنت متأكداً من أن عقدى مع المدرسة لن يجدد عند انتهاء المدة الحالية. كنت أصل على الدوام متأخراً بسبب لقاءاتى مع «جوستين». ولم أعد أبالى بتصحيح أوراق الطلبة.

وأصبحت حاد الطبع مشاكسًا مع زملائى ورؤسائى. هنا لاحت لى الفرصة كى أعود سيد نفسى. وسمعت صوت «جوستين» يقول من

داخل رأسى «لقد غدا حبنا كخطأ مخيف ورد فى مثل شعبى»، بينما كنت أميل إلى الأمام مرة أخرى وأنا أومئ برأسى، وأطلق «سكوبى» آهة ارتياح وانبساط واستعاد شخصيةالقرصان مرة أخرى. وعهد بشئون مكتبه إلى شخص ما يدعى «مصطفى» كان من الواضح أنه يعيش فى مكان ما داخل التليفون الأسود، كان «سكوبى» ينظر على الدوام خلال حديثه إلى بوق التليفون وكأنه ينظر إلى عين آدمية. وغادرنا المبنى سويّا وحملتنا إحدى السيارات العسكرية نحو البحر. كان من الممكن مناقشة المزيد من التفاصيل عن وظيفتى حول زجاجة البراندى الصغيرة الموجودة فى قاع حامل الفطائر إلى جوار سريره.

تركنا السيارة عند الكورنيش وسرنا معًا نقطع باقى الطريق فى ضوء القمر الساطع العربيد، نرقب المدينة القديمة وهى تتلاشى ثم تعود تلتئم من جديد فيما يرسمه ضباط المساء من أشكال، مثقلة بصمت الصحراء التى تحيطها، وخضرة الدلتا التى تغوص فيها حتى النخاع، فتعطيها ما لها من قيمة. وتحدث «سكوبى» عن غير هذا وذاك. إننى أتذكر أنه كان يندب يتمه منذ سن مبكرة، لقد قتل والداه معًا فى ظروف مأساوية أمدته بمادة دسمة يمعن فيها فكره: «لقد كان والدى من رواد سباق السيارات الأول أيها الرجل العجوز. سباقات الطرق التى أقيمت فى فترة مبكرة، كان ينطلق بسرعة عشرين ميلا فى الساعة. ويمتلك سيارة «لاندو». إننى أستطيع أن أراه الآن وهو جالس خلف عجلة القيادة بشاربه الكث. الكولونيل «سكوبى»، لقد كان فارسًا. وقد جلست أمى إلى جواره، أيها الرجل العجوز. إنها لم تكن تتخلى عن جواره حتى فى سباق السيارات. كانت تقوم بوظيفة الميكانيكى. وكانت الصحافة تأخذ لهما على الدوام صورًا فى بداية السباق، وهما يجلسان مرتديين أقنعة كتلك التى يلبسها أصحاب المناحل، والله يعلم

لماذا كان الرواد الأول يرتدون مثل تلك الأقنعة الضخمة. ربما كان ذلك بسبب التراب».

ولقد أثبتت تلك الأقنعة قدرتها على القتل. إذ بينما كان والده يجتاز منحني يستدير إلى الوراء فى سباق على طريق «لندن، بريتون» القديم أمسك وشاح قناعه بالمحور الأمامى لعجلة السيارة التى كان يقودها، فجذبه وألقاه فى الطريق، بينما اتجهت رفيقته رأسًا لتصطدم بشجرة وتتهشم. «إن عزائى الوحيد أنه قد مات على النحو الذى يتمناه. فقد كانا يتقدمان غيرهما من المتسابقين بربع ميل».

لقد كنت مغرمًا على الدوام بالميتات التى تحدث بطريقة هزلية، ولذا، وجدت صعوبة كبيرة فى ضبط ضحكتى عندما كان «سكوبى» يصف تلك الكارثة وعينه الزجاجية تدور دورات شؤم ونحس. ومع ذلك فبينما كان يتكلم وأنا أنصت لما يقول، كانت نصف أفكارى تنطلق فى خط مواز مشغولة بالوظيفة الجديدة التى سأقوم بها. أقيِّمها بقدر الحرية التى ستمنحها لى. كنت سألتقى بـ«جوستين» فى ساعة متأخرة من تلك الليلة قرب المنتزة، والسيارة الكبيرة تهر كفراشة فى عتمة الطريق التى تلطفها أشجار النخيل. ماذا سيكون رأيها؟ بالطبع سيبهجها أن ترانى وقد تحررت من قيود عملى الحالى. إلا أن جزءًا من أعماقها سيئن ألمًا لفكرة أن هذه النجدة لن تخلق إلا مزيدًا من الفرص كى نزداد التصاقًا، كى نمضى فى زيفنا، كى نكشف عن أنفسنا لقضاتنا أكثر من أى وقت مضى. هنا يكمن تناقض ظاهرى آخر من تناقضات الحب، إن الشيء الذى يقربنا من بعضنا البعض، كالحركة المتعاقبة فى اتجاهات متضادة، يكون على وجه الخصوص، لو سيطرنا على الفضائل التى يصورها، هو مصدر فرقتنا إلى الأبد، أعنى يغرق نفسينا

اللتين تغذت كل منهما بشراهة على خيال الأخرى الذى يسحر الألباب.

«وفى تلك الأثناء» كما كان يقول «نسيم» فى تلك الخبرات الرقيقة المفعمة بالرزانة المبهمة التى تحل بأصوات هؤلاء الذين أحبوا فى إخلاص إلا أن حبهم كان من جانب واحد «وفى تلك الأثناء كنت أعيش فى قلب حالة من الاستفزاز تصيب المرء بالدوار ولا مخرج لى منها إلا من خلال عمل لم يكن فى وسعى أن أدرك كنهه وطبيعته. كانت تنفجر فى نفسى مشاعر هائلة من الثقة بالنفس تتبعها حالات من الاكتئاب عميقة إلى حد أنها كانت تبدو وكأنى لن أشفى منها البتة. وشعور غامض ينتابنى بأننى أعد نفسى لمبارزة، وكما يفعل الرياضى، بدأت فى أخذ دروس فى اللعب بالسيف وتعلمت كيفية إطلاق الرصاص من مسدس جيب أوتوماتيكى. ودرست تركيب وتأثير السموم من كتاب صغير خاص بعلم السموم استعرته من الدكتور «فؤاد بك».

كان قد بدأ يرسى فى أعماقه مشاعر تستعصى على التحليل وكانت تعقب الفترات التى يعيشها كالسكران فترات أخرى يحس فيها بثقل وحدته: وكان هذا الشعور ينتابه للمرة الأولى. كان يعانى ألمًا نفسيّا داخليّا، ومع ذلك فقد كان عاجزًا عن أن يجد له متنفسًا، فى الرسم أو فى العمل. إنه يسلى نفسه الآن بأن يعود دائمًا إلى باكورة حياته، إلى تلك السنين المليئة بشعور مستقر بالثراء، إلى بيت أمه الظليل وسط أشجار النخيل والزهور المكسيكية فى «أبى قير»: حيث تصعد المياه وتنزلق بين طوابى القلعة القديمة، إنه يجمع أيام طفولته المبكرة فى مشاعر واحدة مركزة نابعة من ذكرياته المرئية. إنه يتشبث بهذه

الذكريات فى هلع ووضوح كما لم يحدث له من قبل. وهناك خلف ستار الكآبة العصبية، عاشت طوال الوقت جرثومة التمزق عنيدة لا يمكن التحكم فيها، حيث إن العمل الذى فكر فيه حلاً لمشكلته لم ينته منه بعد، إنه يرقد فى أعماقه كعملية مضاجعة لم تكتمل. كان يبدو وكأن هناك من يحثه، أن يتقدم أقرب وأقرب.. ولكن إلى ماذا بالتحديد؟ لم يكن فى وسعه أن يعرف، إلا أن خوفه القديم من الجنون تقدم هنا وأمسك بتلابيبه، وأخل بتوازنه الجسدى، حتى إنه بدأ يعانى من نوبات دوار كانت تجبره على أن يتحسس ما حوله كالأعمى يبحث عن شيء يجلس عليه، مقعد أو كنبه. إنه يجلس وهو يلهث قليلاً ويحس العرق وقد بدأ يتصبب من جبينه، غير أنه كان يحس بالارتياح لأن أحدًا من العابرين لن يرى شيئًا مما يعانيه من صراع داخلى. إنه يكرر بصوت عال، كما لاحظ هو ذلك الآن أيضًا، جملاً يرفض عقله الواعى أن يستمع إليها. لقد سمعته «جوستين» ذات مرة يتحدث إلى نفسه فى واحدة من مراياه قائلاً: «حسنًا، إذن فأنت تتردى فى النورستانيا».

ومرة أخرى فيما بعد سمعه «سليم» وهو جالس إلى عجلة قيادة السيارة، بينما كان خارجًا إلى جو يغمره ضوء النجوم الزاهية وقد ارتدى ملابس المساء المتقنة التفصيل سمعه يضيف قائلاً: «أعتقد أن هذه الثعلبة اليهودية قد التهمت حياتى». وفى بعض الأحيان أيضًا كان مرعوبًا إلى حد أنه كان يسعى، إن لم يكن وراء من يقدم له يد العون، فعلى الأقل وراء ما انقطع من اتصال بالآدميين الآخرين، لقد وصف له أحد الأطباء دواء مقويًا من الفوسفور ونظامًا خاصًا بالغذاء إلا أنه رفض أن يتبع العلاج. وساقه منظر طابور من رهبان «دير الكرمل» وقد حلقت قمة رءوسهم كالقردة الإفريقية الضخمة، وهم يعبرون شارع

«النبى دانيال» إلى أن يجدد صداقته السابقة مع الأب «بول» الذى كان يبدو فى الماضى رجلا فى غاية السعادة يغلفه دينه كما يغلف الجراب الموسى. غير أن كلمات التعزية الشفوية التى كان يقدمها له الآن هذا البهيم المحظوظ، السعيد، مجدب الخيال، قد ملأت نفسه بالتقزز.

وقد ركع ذات ليلة إلى جوار سريره، وهو شيء لم يفعله منذ كان فى الثانية عشرة، وفرض الصلاة عمدًا على نفسه. لقد ظل هناك لفترة طويلة، ذاهل العقل، مربوط اللسان بلا أفكار ولا كلمات تشكل نفسها فى ذهنه. كان يتملكه شعور رادع مرعب كما لو كان صدمة عقلية، وظل هناك كذلك حتى لم يعد يحتمل المزيد، حتى أحس أنه قد بلغ حد الاختناق. فقفز إلى سريره وسحب الأغطية فوق رأسه وهو يتمتم مزقًا محطمة من لعنات وابتهالات لا إرادية لم يكن يدرى أين مصدرها فى نفسه.

ومع ذلك فإن مظهره الخارجى لم يحمل أى إشارة تنبئ عن هذه الصراعات، فقد ظل حديثه جافًا موزونًا رغم حمى الأفكار التى تكمن وراءه. وقد مدحه الطبيب لما يعكسه من ردود فعل رائعة وأكد له أن بوله خال من أى نسبة زائدة من الزلال. كما أثبت الصداع الذى يصيبه ما بين حين وآخر بأنه ضحية توعك بسيط، أو شيء آخر من تلك الأمراض المعتادة عند الأثرياء والكسالى.

لقد كان مستعدًا من ناحيته أن يعانى كل هذا طالما ظلت المعاناة تحت سيطرة وعيه وإدراكه. لم يكن يخشى غير الشعور بالوحدة الكاملة، كان يدرك عجزه عن إطلاع أىّ من أصدقائه أو الأطباء، الذين يحتمل استدعاءهم ليفحصوا تصرفاته الشاذة والتى لا يرون فيها غير أعراض اضطرابه، على تلك الحقيقة.

لقد بذل جهوداً محمومة للعودة إلى الرسم، ولكن دون جدوى. إن إحساسه بما يجرى فى أعماقه كان ينخر كالسم فى الألوان، فيجعلها فاترة ميتة. لقد كان عسيراً عليه حتى مجرد أن يعمل بالفرشاة وهناك يد خفية تشد ذراعه طوال الوقت، تمنعه، تهمس إليه، تزيح بعيدا كل قدرات الحركة، كل حريتها وانسيابيتها.

وعندما أحس أنه محاصر بهذا الغروب الذى يتهدد مشاعره، اتجه مرة أخرى، فى محاولة يائسة لاستعادة اتزانه وسكينة نفسه إلى استكمال القصر الصيفى، كما كنا ندعوه من قبيل المزاح، إنه مجموعة من الأكواخ والاصطبلات العربية فى «أبى صير». فقد عثر نسيم منذ مدة طويلة بينما كان فى رحلة على ظهور الخيل إلى «بنيغازى»، على ثنية فى الصحراء تبعد عن البحر أقل من ميل، حيث ينفجر فجأة فى قلب حزام الرمال نبع ماء صاف يتعرج قليلاً نحو الشواطئ المهجورة قبل أن تدرك كثبان الرمال وتخنقه. هنا زرع البدوى، وقد تملكه ذلك الجوع التلقائى للخضرة الذى يرقد فى أعماق كل عشاق الصحراء، نخلة وشجرة تين تشبثت جذورهما بقوة بالحجر الرملى الراقد تحت الأرض والذى تنبع منه المياه النقية. وجلسوا يستريحون وخيولهم فى ظل هاتين الشجرتين النضرتين.

وعين «نسيم» تمعن النظر عجبًا فى منظر القلعة العربية القديمة البعيدة، والندبة البيضاء الممتدة على الشاطئ الخالى حيث تتكسر الأمواج ليل نهار. لقد طوت كثبان الرمال نفسها فى الجوار فغدت على شكل واد طويل. كان خيال «نسيم» قد بدأ يصوره فى الحال عامرًا بأشجار النخيل وهى «تطقطق» وبأشجار التين الخضراء التى ستلقى، وهى المزروعة قرب المياه الجارية، ظلالاً وارفة حتى إنها

تشبه قطعة قماش مبتلة تلتف حول الرأس ترطبها. وترك تلك المنطقة تترعرع وتنضج فى خياله لمدة عام. كان كثيراً ما يتوجه إليها على حصانه يدرسها فى كل أنواع المناخ، حتى تمكن من خصائصها. لم يخبر أحدًا بها. غير أن فكرة بناء منزل صيفى يدخل السعادة على قلب «جوستين» كانت تكمن فى خلفية ذهنه، واحة مصغرة حيث يمكنها أن توفر إسطبلا لجيادها الثلاثة العربية الأصيلة وتقضى أكثر مواسم العام حرة تمارس هوايتها المفضلة: السباحة وركوب الخيل.

حفر النبع، وشقت منه قناة وتجمع الماء فى حوض رخامى يشكل مركز الساحة، التى رصفت بالحجر الرملى الخام، والتى أقيم حولها المنزل والإسطبلات. وكلما ازدادت المياه زادت الخضرة بزيادتها، وخلقت الظلال من نباتات الصبار ومن أدغال الذرة الهندية الكثيفة أشكالاً مجردة ذات أشواك. وبمرور الزمن زرع حوض من البطيخ أيضًا، فبدا كشىء نادر منفى من بلاد الفرس. وقد بنى اسطبلا واحدا موحشا على النمط العربى يدير ظهره لرياح البحر الشتوية، بينما أقيمت مجموعة من غرف الخزين وحجرات الجلوس على شكل حرف L، غرف ذات نوافذ تغطيها شبكات حديدية «ودرف» من الحديد الأسود اللون.

حجرتان أو ثلاثة من حجرات النوم التى لا تزيد فى حجمها عن حجم صومعة رهبان القرون الوسطى تفتح مباشرة فى حجرة تتوسطها حجرة لطيفة مستطيلة منخفضة السقف تستخدم كحجرة استقبال وحجرة طعام فى نفس الوقت، ولقد أقيمت فى أحد أطرافها مدفأة بيضاء كالكتلة وقد زخرفت حوافها بوحى من تصاميم الفسيفساء

العربية. وانتصبت في الطرف الآخر من الحجرة منضدة حجرية ومقاعد حجرية تذكر المرء ببعض قاعات الأكل القديمة التي ربما كان يستخدمها رهبان الصحراء. وحدت السجاجيد الفارسية الفاخرة والصناديق الضخمة المحفورة والمحلاة بماء الذهب الذي يتلوى فوق مشابكها الخطافية وجنوبها الجلدية المصقولة، من القسوة التي كانت عليها الغرفة. كان كل شيء ينطق بالبساطة المتعمدة التي تعكس أرقى أنواع البهاء والفخامة. وعلى الحائط الموحش المطلي باللون الأبيض والذي تقدم نوافذه المغطاة بالشبكات الحديدية مناظر فجائية طولية ضيقة ورائعة للشاطئ والصحراء، علقت بعض تذكارات الصيد القديمة أو الخاصة بالحياة في منطقة البحر المتوسط: رمح يحمل علمًا عربيًا مثلثًا طويلاً، رسم رمزي بوذي، بضع رماح إفريقية في المنفى، قوس كبير ما زال يستخدمها في صيد الأرانب، بيرق إشارة خاص بأحد اليخوت. لم تكن هناك أية كتب سوى نسخة قديمة من القرآن مغطاة بالعاج ولها مشابك معدنية لامعة، إلا أن عدة مجموعات من ورق اللعب كانت ترقد على حافة النوافذ، وكان من ضمنها مجموعة من أوراق اللعب القديمة، لهواة قراءة الغيب والمستقبل.

ومجموعة أخرى للعبة «العائلات السعيدة». كذلك كان يوجد في أحد الأركان «سيموفار» قديم ليشبعا إدمانهما الوحيد، ألا وهو شرب الشاي.

وسار العمل في بطء وتردد، غير أن «نسيم» في النهاية؛ وقد عجز عن الاحتفاظ بسره أكثر من ذلك، أخذ «جوستين» لتراه. وعجزت «جوستين» عن منع دموعها وهي تسير في داخله، من نافذة إلى أخرى من نوافذ الحجرات الرشيقة، إنها تلمح الآن بشكل خاطف صورة

البحر الزمردى يتدحرج فوق الرمال، إنها ترى على نحو فجائى صورة حلزونية للكثبان الرملية وهى تنزلق شرقًا نحو السماء. ثم جلست فجأة قبالة نار الأشواك وهى لا تزال فى ردائها واستمعت إلى دقات البحر الواضحة الرقيقة على الشطآن الطويلة مختلطة بصهيل وطرقات حوافر الخيل فى مرابطها الجديدة خلف الساحة. كان ذلك فى أواخر الخريف، عندما بدأ الذباب المضىء ينهش بعضه البعض فى عنف فى الظلام الرطب الذى أخذ يتجمع، وغمرها هذا المنظر بالسعادة وقد ظننا أن راحتهما قد بدأت، لتدعم حياة أخرى غير حياتهما.

وكان على «جوستين» أن تكمل الآن ما بدأه «نسيم». لقد جعلت الشرفة القائمة تحت شجرة النخيل تمتد نحو الشرق ثم سورتها حتى تصد كثبان الرمال التى لا تكف عن الانتقال، والتى تحركها الريح الشتوية نحو الأمام، فتغطى أحجار الساحة بست بوصات من الرمال. وأشجار العليق الدائمة الخضرة والتى تشكل حواجز تتكسر عليها الريح وتزود الأرض بطبقة نحاسية قاتمة من أوراق الشجر المتعفنة والتى ستغدو على مر الأيام أرضًا صلبة تمد الشجيرات الصغيرة والكبيرة بما تحتاجه فيما بعد من غذاء.

كانت حريصة أيضًا على أن ترد لزوجها اهتمامه فقدمت له هدية تتصل بالفلك الذى كان يسيطر حينذاك على مشاعره. فقد أقامت فى أحد أركان البناية المقامة على شكل حرف L مرصدًا صغيرًا يحتوى على تلسكوب يكبر الأشياء إلى ثلاثين ضعفًا. هنا كان يجلس «نسيم» فى الشتاء ليلة بعد أخرى، مرتديًا عباءته القيمة الحائلة اللون، يحملق باهتمام فى «الجوزاء»، أو يهيم فى كتب التقاويم التى تبحث فى كل شىء يخص العالم وكأنه عراف من القرون الوسطى، هنا أيضًا كان فى

استطاعة أصدقائهم أن ينظروا إلى القمر أو يغيروا زاوية المنظار فيكشف لهم فجأة عن نتف كالدخان من سحاب لؤلؤى يبدو أن المدينة كانت تطلقه على الدوام زفرات بعيدة.

وغدا كل هذا بالطبع فى حاجة إلى حارس، ولم تصب الدهشة «نسيم» أو «جوستين» عندما جاء «بنايوتيس» وأقام فى حجرة صغيرة للغاية إلى جوار الإسطبلات. إن هذا الرجل العجوز بلحيته التى تشبه المجرفة وعينيه اللتين تشبهان الخرز كان يعمل لعشرين عامًا مدرسًا ثانويًا فى دمنهور. وتلقى المراسيم الدينية وأمضى تسعة أعوام فى «دير سانت كاترين» فى صحراء سيناء. كان من المستحيل أن يعرف المرء ما الذى جاء به إلى تلك الواحة فقد قطع لسانه فى فترة ما من حياته الخالية من أية مغامرة. ولقد بدا من الإشارات التى كان يقوم بها ردًا على الأسئلة التى وجهت إليه، بأنه كان يقوم بالحج سيرًا على الأقدام إلى ضريح «سانت ميناس» الصغير والموجود فى الغرب، فوقع على الواحة فى طريقه. وعلى أى حال فقد بدا الأمر وكأن قراره بالبقاء فى الواحة لم يكن صدفة البتة، كان ملائمًا للمكان تمام الملاءمة، وهناك أقام طوال العام كحارس وبستانى فى مقابل أجر ضئيل. كان رجلاً صغير الجسم قويًا، نشيطًا كالعنكبوت، يغار بصورة مخيفة على نباتاته الخضراء التى تدين بحياتها لمثابرته ورعايته. لقد كان هو الذى روض حوض البطيخ على الحياة وهو الذى نجح أخيرًا فى إغراء كرمة عنب بأن تبدأ نموها وتسلقها قرب البوابة الوسطى. كانت ضحكته غير واضحة «كقوقوة» الدجاج، وكان من عادته أن يخفى رأسه فى حركة خجلة فى الكم البالى لردائه الكنسى القديم. كانت ثرثرته اليونانية وقد حجزها عجزه تفيض فى عينيه حيث تلمع وتتراقص لأقل ملاحظة أو سؤال.

لقد بدا وكأنه يقول: «ماذا يستطيع المرء أن يطلب من الحياة أكثر من هذه الواحة إلى جوار البحر».

حقًّا ماذا يريد المرء أكثر من هذا؟ لقد كان هذا هو السؤال الذى ظل «نسيم» يردده لنفسه بينما السيارة تئن وهى متجهة نحو الصحراء و«سليم» بملامحه التى تشبه ملامح الصقر يجلس بلا حراك إلى عجلة القيادة. كان الطريق ينحرف قبل القلعة العربية متجهًا إلى الداخل بعيدًا عن الشاطئ، وكان على المرء كى يصل إلى الواحة أن يحيد عن الطريق ويسير بحذاء كثبان رملية على صورة رقائق متيبسة كزلال البيض المضروب، لامعة تشبه الميكا فى المنجم، وكانت العجلتان الأماميتان لتلك العربة المترنحة تجدان على الدوام ما ينقذهما من طبقة الحجر الرملى الهشة والتى تشكل العمود الفقرى لكل ذلك الجبل الممتد إلى داخل البحر، كلما همتا بأن تغوصا فى الرمال. لقد كان مبهجًا أن يمخر المرء هذا البحر من المواد الهشة البيضاء كقارب شراعى يبحر أمام ريح لاحقة.

كانت تجول بخاطر «نسيم» منذ فترة مضت، وكان هذا الاقتراح فى الأصل اقتراح «بورسواردن»، فكرة أن يجازى «بنايوتيس» العجوز على تفانيه، بالهدية الوحيدة التى يمكن أن يفهمها الرجل العجوز وأن يتقبلها: كان «نسيم» يحمل فى تلك اللحظة فى حقيبته اللامعة تصريحًا من بطريرك «الإسكندرية» يسمح له بأن يبنى فى منزله كنيسة صغيرة وأن يهبها لـ«سانت أرسينيوس». ولقد تم اختيار القديس كما هى العادة بطريقة عشوائية. فقد عثرت «كليا» على أيقونة لهذا القديس منذ القرن الثامن عشر. كانت الأيقونة فى حالة جيدة وراقدة بين ركام دكان فى الموسكى «بالقاهرة».

كانت تلك هى الكنوز التى أفرغاها أمام عينى الرجل العجوز المتطلعتين القلقتين. لقد استغرقا قدرًا من الوقت حتى جعلاه يفهم ما يريدان، فقد كان يتابع العربية بفتور كما أن «نسيم» لم يكن يعرف اليونانية إلا أنه عندما رأى تصريح البطريرك ضم راحتيه معًا وطوح لحيته وهو يبتسم، وبدا وكأنه أوشك أن يتعثر تحت ثقل العواطف التى غمرته. لقد فهم الآن كل شىء. وأدرك لماذا كان «نسيم» يقضى تلك الساعات الطويلة يفحص الإسطبل الأخير الخالى ويخطط على الورق. وهز يدىّ «نسيم» بحرارة وهو يصدر أصواتًا غير واضحة تشبه قوقوة الدجاج. ومال إليه قلب «نسيم» وهو يحس شيئًا من الحسد الخبيث وقد رأى كيف فاض قلب الرجل بالسعادة لهذا العمل الذى يدل على الاهتمام به. ومن أعماق ظلام الأفكار التى ملأت رأسه أخذ يفحص رجل الكنيسة العجوز فى عناية، وكأنه بهذا التقصى الشديد يود أن يفاجىء بساطة قلب الرجل التى عادت عليه بالسعادة وراحة البال.

وفكر «نسيم» فيما بينه وبين نفسه، هنا سأبنى على الأقل بيدىَّ شيئًا ما، شيئًا يحفظ علىَّ ثباتى وانتباهى، وأخذ يفحص راحتى اليونانى العجوز الجافتين بإعجاب الحاسد، بينما كان يفكر كم من الوقت قتلت تلك الأيدى من أجل صاحبها، وكم أراحته من التفكير. قرأ فيهما سنوات من النشاط الجسدى الملىء بالعافية والذى أغلق المنافذ أمام انطلاق الفكر وجرده من التأمل. ومع ذلك.. فمن يدرى؟ تلك السنوات الطويلة التى قضاها فى التدريس: وتلك السنوات فى الدير. والآن يطبق الشتاء الطويل بوحدته على الواحة، حيث لا أنيس لأفكار المرء غير هدير البحر وانزلاق أمواجه وحفيف سعف النخيل وصوت اصطدامه ببعضه البعض.. وفكر «نسيم» بينما كان يمزج الأسمنت

والرمل الجاف بعزم وتصميم فى جرن خشبى، «هناك على الدوام وقت تتأزم فيه الروح».

إن «نسيم» لم يُترك وحيداً حتى فى هذا المكان، فقد جاءت «جوستين»، وقد بدأ ينتابها شعور جنونى بالذنب نحو الرجل الذى أحبته، ومع ذلك فإنها تحاول تحطيمه، جاءت إلى منزلها الصيفى فى الواحة ومعها ثلاثى خيلها العربية. لقد كانت رفيقة قلقة متقلبة المزاج متنمرة. وقد هرَّبت لها، تحفزنى أحزانى المرعبة التى خلفها غيابها فى نفسى، رسالة أخبرها فيها بأن تعود إلى المدينة أو تقنع «نسيم» بدعوتى إلى القصر الصيفى. وجاءنى «سليم» بالسيارة فى الوقت المناسب وقادنى فى صمت متعاطف لم يجرؤ على أن يقحم فيه أقل مظهر من مظاهر الازدراء والتحقير.

أما من ناحية «نسيم» فقد استقبلنى برقة مدروسة، والحقيقة أنه كان سعيداً وهو يرانا متلازمين مرة أخرى، وهو يعزلنا عن إطار تقارير عملائه الزائف، وأن يحكم بنفسه ما إذا كنا. . ماذا أقول؟ «نحب بعضنا البعض؟» إن الكلمة تدل على شمول تفتقده عشيقتى التى كانت تشبه إلهة قديمة فى أن سجاياها قد تكاثرت عبر حياتها ولم تتلخص فى فضيلة واحدة من فضائل القلب يمكن للمرء أن يحبها أو لا يحبها. أما من الناحية الأخرى فإن حب «التملك» قوى غاية القوة: فقد كنا بشراً لا شخصيات كرتونية من شخصيات «برونتى». غير أن اللغة الإنجليزية تفتقر إلى المعانى المتميزة والتى يمكن أن تعطينا (كما تفعل اليونانية الحديثة) كلمة تعبر عن الحب العاطفى.

وما خلا ذلك فقد كنت عاجزاً عن تهدئة مخاوف «نسيم» الداخلية: وذلك بأن أخبره أن «جوستين» تفعل معى نفس الشىء الذى يثير الهم

والذى نهجته على صفحات كتاب «الأرناؤوطى»، فقد كنت جاهلاً بما تنطوى عليه أفكاره واتجاه تلك الأفكار. إن «جوستين» تثير فى إرادتها رغبة، تتغذى سرّاً على ذاتها ولذا لا بد لها أن تذبل كالمصباح، أو تنطفئ. إننى لم أدرك هذا إلا بجزء من عقلى: غير أننى اكتشفت هناك ذلك الشىء الحقيقى الذى تفتقد إليه الرابطة التى بيننا. إنها لم تكن قائمة على أى صورة من صور الإرادة الحرة. ومع ذلك كم بدت طريقة حياتها ساحرة.. محظية تفيض فطنة وفتنة حتى إن المرء ليعجب كيف حدث وأحب من قبل وكيف قنع بما كان عليه الحبيب من صفات.

ولقد دهشت فى ذات الوقت إذ أدركت أن جزئى المرتبط بـ «ميليسا» كان يعيش وجوده المستقل، تعلق بها فى هدوء وثقة. ولكنه لا يرغب فى عودتها. وكانت الخطابات التى أرسلتها إلىَّ مرحة مليئة بالعواطف التى لا يشوهها أى ظل من التأنيب أو الرثاء لذاتها.

ورأيت فى كل ما كتبت كيف ازدادت ثقتها بنفسها. لقد وصفت المصحة حيث كانت تقيم، بطريقة لطيفة وعين مدققة، وصفت الأطباء والمرضى الآخرين كما يصف المرء نزهة قام بها. لقد بدت على الورق وقد نضجت وغدت امرأة أخرى. وجاوبت رسائلها بقدر ما استطعت غير أنه كان من العسير علىَّ أن أخفى الارتباك الذى لا حيلة لى فيه والذى تسلط على حياتى، لقد كان من المستحيل وبنفس القدر أن أشير إلى انشغال بالى بـ «جوستين»، كنا نتحرك عبر عالم مختلف من الأزهار والكتب والأفكار، عالم غريب تمام الغرابة على «ميليسا». إن الوسط الذى نعيش فيه، لا افتقارها إلى الحساسية، هو الذى أغلق أبوابه دونها. ولقد قالت «جوستين» ذات مرة «الفقر فاصل كبير، والثراء مانع كبير». إلا أن «جوستين» نالت تصريحًا بدخول العالمين،

عالم الحاجة وعالم الوفرة، ولذا فقد كانت حرة فى أن تحيا حياة طبيعية.

غير أن المرء هنا فى الواحة يعيش على الأقل فى وهم بالسعادة الفائقة التى أفلتت منه فى حياة المدينة. كنا نستيقظ مبكرين ونعمل فى الكنيسة حتى تبدأ حرارة النهار فى الاشتداد، حينما كان يعتزل «نسيم» إلى أوراق عمله فى مرصده الصغير، ونمتطى أنا و«جوستين» الجياد نقطع كثبان الرمال المتموجة كالريش إلى البحر نقضى وقتنا فى السباحة أو الحديث. وكان البحر على بعد ميل من الواحة قد أزاح كمية كبيرة من الرمال على هيئة دائرة صغيرة كونت بحيرة ضحلة المياه، قام إلى جوارها كوخ من الغاب سقفه مغطى بأوراق الشجر، وقد حشر فى صدارة واحدة من الكثبان الرملية، كوخ يستخدمه المستحم مكانًا يستظل فيه ويغير ملابسه. وقضينا فى هذا المكان معظم النهار. وكانت أخبار موت «بورسواردن» ما زالت طازجة، فتحدثنا عنه فى حرارة ورهبة، وكأنما نحاول جادين تقييم شخصيته الأرضية وتقمص بعض الأبعاد المؤثرة الموجودة فى كتاباته، والتى كانت تتراءى لأنظارنا أكثر فأكثر بينما كانت ذكرى الرجل تذبل وتتلاشى. لقد أمدنا الموت بأسس انتقادية جديدة وبأفق عقلى جديد لتقييم هذا الرجل المتعب اللامع، عديم التأثير والفاعلية، الممل فى أغلب الأحيان والذى كان علينا أن نتعامل معه. إن أحدًا لا يراه الآن إلا من خلال المرآة السحرية التى تعطى للإنسان أشكالاً مشوهة مضحكة أو من خلال طيف الذاكرة المعتم. ولقد كنت أسمع الناس تتساءل فيما بعد إذا ما كان «بورسواردن» طويلاً أم قصيرًا، إذا ما كان له شارب أم لا؟ لقد كانت تلك الذكريات البسيطة هى أشق الأشياء التى يمكن للمرء استعادتها والتأكد منها. إن بعض الذين يعرفونه جيدًا قالوا: إن عينيه كانتا

خضراوين، وقال آخرون: إنها كانت بنية. . كم كانت غريبة تلك السرعة التى تلاشت بها الصورة الإنسانية فى الصورة الأسطورية التى خلقها لنفسه فى ثلاثيته «الله يحب الفكاهة»!

فى تلك الأيام التى كان ضوء الشمس فيها يعشى الأبصار، تحدثنا عنه هنا، كأناس يتلهفون الإمساك بالذاكرة الإنسانية وتثبيتها قبل أن تغيم تمامًا فى الأسطورة النامية، كنا نتحدث عنه مؤكدين ومنكرين ومقارنين، مثل عملاء سريين يتدربون على إلقاء قصة يقصد بها التمويه والتغطية، لأنه برغم كل شيء فإن هذا الإنسان المخطئ كان ينتمى إلينا، أما ذلك الإنسان الأسطورة فإنه كان ينتمى إلى العالم. لقد عرفت الآن أيضًا أنه قال لـ «جوستين» ذات ليلة، بينما كانا يتفرجان على «ميليسا» وهى ترقص «لو أننى اعتقدت بوجود أى أمل فى نجاحى لعرضت الزواج عليها غدًا. إلا أنها جاهلة للغاية وقد شوه الفقر وسوء الطالع عقلها تشويهًا كبيرًا حتى إنها سترفض طلبى؛ فهى لن تصدقه».

غير أن «نسيم» كان يتتبعنا بمخاوفه خطوة خطوة. ووجدت ذات يوم كلمة «حذار»، وقد كتبت باللغة اليونانية بعصًا فوق الرمال فى مكان الاستحمام. وأوحت الكلمة اليونانية بأن كاتبها هو «بنايوتيس» غير أن «سليم» أيضًا كان يجيد اليونانية.

وقد تدعم هذا التحذير الموجه إلىَّ بحادثة وقعت فيما بعد ذلك بفترة قصيرة للغاية، وذلك عندما ضللت الطريق إلى مرصد «نسيم» الصغير، بحثًا عن فرخ من الورق كى أكتب عليه خطابًا لـ «ميليسا»، ونقبت فوق مكتبه من أجل ما أريد. فلاحظت أن ماسورة التليسكوب كانت موجهة إلى أسفل حتى إنها لم تعد تشير إلى السماء، ولكن عبر كثبان الرمال حيث ترقد المدينة فى أبعادها الضبابية تغلفها السحب

اللؤلؤية. لم يكن هذا بالأمر الغريب، إذ إن رؤية أعلى المآذن بينما الأجواء تتكثف وتتبدل أمرًا مسليًا. وجلست فوق الكرسى ذى الأرجل الثلاث ووضعت عينى فوق المنظار، حتى تلتئم أمامى صورة المنظر الذى كان يهتز ويرتعش ارتعاشة خفيفة. ورغم القاعدة الحجرية المتينة التى يقف عليها الحامل الثلاثى فإن قدرة العدسة العالية على التكبير والشبورة الدخانية الناشئة عن الجو بينهما قد جعلا الصورة تهتز هزات تشبه الريش مما جعل المنظر يبدو وكأنه يتنفس فى رقة وبلا انتظام. ودهشت عندما رأيت الكوخ الصغير المصنوع من الغاب، حيث كنت و«جوستين» مستلقيين كل فى ذراع الآخر نتحدث عن «بورسواردن»، يرتعش ويقفز ورغم ذلك فإنه واضح تمام الوضوح وحزمة صفراء لامعة فوق الكثبان الرملية تكشف غلاف كتاب من كتب الجيب هو «الملك لير» كنت قد أخذته معى ونسيت أن أعيده ولو لم تكن الصورة ترتعش على هذا النحو لكان فى وسعى دون شك أن أقرأ العنوان من على الغلاف. وحملقت فى تلك الصورة وأنا ألهث لفترة طويلة وغمرنى الخوف. لقد بدا الأمر لى، وكأن المرء فى غرفة مظلمة ولكنه معتاد عليها وعلى يقين بأنه لا يوجد بها أحد، وفجأة أحس بيد تمتد وتحط على كتفه. وغادرت المرصد على أطراف أصابعى وقد أخذت معى رزمة الأوراق والقلم وجلست فوق كرسى كبير مريح أتطلع إلى البحر، وأنا أحس الحيرة ماذا أقول لـ «ميليسا».

* * *

لم يكن قد تقرر شىء فى ذلك الخريف، عندما أنهينا معسكرنا وعدنا إلى المدينة لنمضى فيها فصل الشتاء، حتى مشاعر الأزمة كانت قد تضاءلت. وهناك غرقنا جميعًا فى الخل الضبابى لحياتنا اليومية والتى

سيتبلور منها المستقبل مهما كانت المأساة التى تنتظرنا. لقد استدعيت كى أبدأ وظيفتى الجديدة مع «سكوبى» وحاولت بلا جدوى أن أصل تلك الخطوط الملعونة المتتابعة فى اتجاهات متضادة والتى ظل «بلتازار» يعلمنى إياها بين أدوار الشطرنج. وأقر أننى حاولت أن أخفف من وقع هذا الأمر على ضميرى بأن أطلعت فى أول الأمر، العاملين فى مكتب «سكوبى» على الحقيقة، وهى أن «القابال» جماعة لا ضرر منها وهبت نفسها للفلسفة «الهرمزية» وأن نشاطاتها لا تمت إلى الجاسوسية بصلة. ولقد قيل لى بطريقة جافة ردًا على هذا بأننى يجب ألا أصدق هذه القصة الواضحة الزيف لتغطية حقيقتهم. وعلىَّ بدلاً من ذلك أن أحاول حل الشفرة، وطلبوا منى تقارير تفصيلية كنت أمدهم بها فى حينه، إذ كنت أكتب على الآلة الكاتبة أحاديث «بلتازار» عن «آمون» و«هرمز بريسمجستس» وأنا أحس بلذة المشاكسة، متخيلاً وأنا أفعل ذلك، موظفى الحكومة وهم منهمكون يخوضون خلال تلك المادة فى البدرومات الرطبة على بعد ألف ميل. غير أنى كنت أكافأ ماليًا، وأكافأ بسخاء، وغدوت لأول مرة قادرًا على إرسال قدر قليل من المال إلى «ميليسا» وأن أقوم بمحاولة لأسدد ما تديننى به «جوستين».

وكان ممتعًا، أيضًا أن أكتشف مَن من معارفى عضو عامل فى شبكة الجاسوسية تلك. لقد كان «منمجيان»، مثلاً، واحدًا من الشبكة، وكان دكانه مركزًا لمراجعة أعمال الجاسوسية العامة الخاصة بالمدينة. كان اختيارًا يثير الإعجاب. وكان «منمجيان» يؤدى عمله بحذر وبصيرة هائلتين، كان يصر على أن يحلق لى ذقنى دون أجر، ولقد حز فى نفسى عندما علمت فيما بعد بفترة طويلة أنه كان ينسخ فى صبر وأناة ثلاثة نسخ من الملخصات التى كان يعدها من أعمال التجسس وأنه كان يبيعها لهيئات الجاسوسية الأخرى.

وكان هناك جانب آخر ممتع فى هذا العمل، فقد كان للعضو منا سلطة الأمر بشن غارة تفتيشية على منزل أحد الأصدقاء. ولقد كان لهذا الزميل البائس عادة مشئومة وهى أن يحضر معه إلى المنزل ملفات القنصلية ليعمل بها مساء. ولقد وقعت فى أيدينا مجموعة كاملة من الأوراق بعثت البهجة فى نفس «سكوبى» فقد كانت تحتوى على مذكرات تفصيلية عن النفوذ الفرنسى فى «سوريا»، وقائمة بأسماء عملاء «فرنسا» فى المدينة، وقد لاحظت اسم «كوهين» تاجر الفراء العجوز فى واحدة من تلك القوائم.

وهزت هذه الغارة التفتيشية «بومبال» هزة عنيفة، فظل لما يقرب من شهر بعد ذلك يتلفت خلفه وهو يسير، كان مقتنعًا بأن هناك من يراقبه وروج لفكرة متهوسة وهى أن البعض قد رشا «حميد» الأعور ليقتله بالسم، ولم يعد يقرب الطعام المطبوخ بالمنزل إلا بعد أن أتذوقه أنا أولا. كان لا يزال فى انتظار ترقيته ونقله ولذا كان شديد الخوف من أن فقده الملفات قد يؤثر على كليهما. غير أننا تركنا أغلفة التبويب عن عمد فغدا فى مقدوره أن يعيدها إلى تتابعها مع مذكرة يقول فيها: إن الملفات قد حرقت «طبقًا للتعليمات».

وقد حقق أخيرًا نجاحًا غير قليل خلال حفلات «الكوكتيل» التى كان يخرجها فى عناية، والتى كان يقدم فيها من حين لآخر ضيوفًا من مجالات الحياة الفقيرة كالبغايا والفنانات. غير أن نفقات تلك الحفلات والعجز الذى كانت تثيره كان عذابًا شديد الألم. إننى أتذكره وهو يشرح لى ذات مرة، وفى صوته رنة شقاء، أصل تلك الحفلات: «إن حفلات «الكوكتيل»، كما يدل اسمها عليها، قد اخترعتها الكلاب فى

الأصل. إنها فى بساطة ارتفاع بعملية الشمشمة السفلية إلى مرتبة الحفلات الرسمية». ورغم ذلك فقد واظب على إقامة مثل تلك الحفلات، التى كوفئ عليها بأن أسبغ القنصل العام رعايته عليه، ورغم احتقار «بومبال» لهذا القنصل العام فإنه كان ينظر إليه بخوف يليق بالأطفال. لقد نجح «بومبال» فى إغراء «جوستين»، بعد كثير من الاستعطاف الذى يثير الضحك، كى تظهر فى إحدى تلك الحفلات لتعضد خططه فى أن ينال الترقية. ولقد أعطتنا هذه الحفلات فرصة لدراسة «بوردر» وحلقة الدبلوماسيين الصغيرة بـ «الإسكندرية»، وكان الانطباع الذى تركه القسم الأكبر من هؤلاء الناس هو أنهم قد طلوا بالفرشاة. كم بدت لى شخصياتهم الرسمية شاحبة ومشتتة.

كان «بوردر» نفسه وهمًا أكثر منه رجلاً. لقد ولد ليكون الشخصية التى يسخر منها رسام هزلى. كان له وجه شاحب طويل يحمل تقاطيع شخص مفسد، تزينه رأس فاخرة ذات شعر فضى تعود أن يعالجه بنفسه، إلا أنها كانت ملامح خادم تابع. إن زيف إيماءاته (واهتمامه وصداقته المبالغ فيها لأبسط المعارف) كان له وقع منفر مكننى من أن أفهم معنى الشعار الذى وضعه صديقى للسلك الفرنسى الخارجى وكذلك العبارة التى أخبرنى ذات مرة بضرورة وضعها على ضريح رئيسه (لقد كان خلاصه فى كونه وسطًا بين الجيد والردىء). لقد حدث كل هذا بالطبع منذ سنوات قبل أن يشتهر «بوردر» بمفاوضاته من فوق الأسطول الفرنسى. ومع ذلك فإننى لا أستطيع أن أصدق أن ذلك الشخص، كما عرفته، قد أصابه أى تغيير: كانت شخصيته هزيلة نحيلة كقشرة من صفحة ذهبية سمكها غاية فى الرقة، إنها قشرة التهذيب التى يكتسبها الدبلوماسيون بما يتميزون به عن غالبية الرجال.

ونجحت الحفلة إلى حد الكمال، ودعا «نسيم» الدبلوماسى العجوز إلى الغداء فطغى عليه سرور مفرط لا ادعاء فيه ولا تصنع. فقد كان معروفًا أن الملك كثيراً ما يحل ضيفًا على مائدة «نسيم» وكان العجوز قد أخذ يكتب بالفعل رسالة فى ذهنه تبدأ بالكلمات التالية. «بينما كنت أتغدى مع الملك فى الأسبوع الماضى أدرت الحديث إلى السؤال.. فقال.. وأجبته..» وأخذت شفتاه تتحركان، وعيناه تزوغان أمام المحتفلين فى واحدة من نوبات السبات التى اشتهر بها والتى كان يستيقظ منها بغتة ويفاجئ محدثيه بابتسامة اعتذار بلهاء كابتسامة سمكة البكالاه.

ومن ناحيتى فقد وجدته أمراً غريبًا أن أزور من جديد الشقة الصغيرة التى تشبه الحوض حيث أمضيت قرابة عامين من حياتى، لأتذكر أنه فى هذا المكان، وفى هذه الحجرة بالذات، التقيت بـ«ميليسا» لأول مرة. لقد أجريت فيها تغييرات كبيرة على يدى آخر محظيات «بومبال». فقد أصرت على أن تُكسى جدرانها بالأخشاب وتُطلى باللون الأبيض وتزين بحواف من ألواح مدهونة باللون اللبنى القرمزى. وأعيد تنجيد المقاعد القديمة ذات المساند، والتى كان حشوها يتساقط فى بطء فى مزق من جوانبها، أعيد تنجيدها بالدمقس الثقيل المحلى برسوم زهور الزنابق بينما الكنبات الثلاث البالية قد أزيحت تمامًا لتعطى المكان اتساعًا. لا بد أنها بيعت أو حطمت. وتذكرت فقرة من شعر الشاعر الشيخ: «فى مكان ما، لا بد وأن تلك الأشياء البالية البائسة ما زالت تنبض». كم تحقد الذاكرة، وكم تمسك فى مرارة بالمادة الخام التى تستخدمها فى عملها اليومى.

وأصبحت غرفة نوم «بومبال» الهزيلة تشبة بصورة غامضة غرف أواخر القرن الماضى وكانت نظيفة كحلية جديدة. وربما وافق «أوسكار

وايلد» على استخدامها منظراً فى خاتمة الفصل الأول لإحدى تمثيلياته. لقد عادت حجرتى كما كانت من قبل حجرة مخزن، غير أن السرير كان ما يزال قائمًا هناك إلى جوار الحائط قرب البالوعة الحديدية. واختفت الستائر الصفراء بالطبع واستبدلت بقطعة من القماش الأبيض القذر. ووضعت راحتى على الهيكل الحديدى الصدئ للسرير القديم فطعنتنى حتى الأعماق ذكرى «ميليسا» وهى تستدير بعينيها الصريحتين الصافيتين نحوى فى ضوء الحجرة الصغيرة المعتم. ولقد خجلت ودهشت من حزنى هذا. وعندما دخلت «جوستين» الغرفة خلفى ركلت الباب فأغلقته، وللحال بدأت أقبل شفتيها وشعرها وجبهتها، وأعصرها بين ذراعى حتى تكاد تلهث، وإلا فاجأتنى والدموع فى عينى. لكنها أدركت الأمر فى الحال، وبادلتنى القبلات بحمية مذهلة لا تسبغها على تصرفاتنا غير الصداقة وحدها. وتمتمت قائلة «إننى أعرف، إننى أعرف».

ثم خلصت نفسها منى فى رقة وقادتنى خارج الحجرة وأغلقت الباب خلفنا. وقالت فى صوت منخفض: «يجب أن أطلعك على شيء يخص «نسيم». استمع إلىَّ. ففى يوم الأربعاء، اليوم السابق على مغادرتنا القصر الصيفى، خرجت على ظهر الجواد فى نزهة بمفردى قرب البحر. كان هناك سرب كبير من طيور النورس فوق الشاطئ، وفجأة رأيت السيارة عن بعد تتدحرج وتحبو عبر الكثبان الرملية نحو البحر، و«سليم» جالس إلى عجلة القيادة. لم أستطع تبين ما يفعلان. كان «نسيم» جالسًا فى المقعد الخلفى. واعتقدت أن العربة لا محالة غائصة فى الرمال، ولكن كلا، لقد انطلقا نحو المياه حيث الرمال متماسكة وأخذا يسرعان على طول الشاطئ نحوى. لم أكن على الشاطئ، لكننى كنت فى تجويف يبعد قرابة خمسين ياردة من

البحر. وبينما يسرعان ليصبحا فى محاذاتى، وبينما طار سرب النورس، رأيت «نسيم» وهو يحمل فى يديه بندقيته القديمة عديدة الطلقات. ثم رفعها وأطلق النار مرة أخرى على سرب النورس، الذى كان كالسحابة حتى أفرغ مخزن البارود. وسقطت ثلاثة أو أربعة منها إلى البحر وهى ترفرف، غير أن السيارة لم تتوقف. وعبرا فى لمح البصر. لا بد أن هناك طريقًا للعودة يمتد من الشاطئ الطويل إلى الحجر الرملى وهكذا يعود مرة أخرى إلى الطريق الرئيسى، لأننى عندما عدت ممتطية جوادى بعد نصف ساعة، وجدت أن العربة قد عادت. و«نسيم» فى مرصده. كان الباب مغلقًا وقال: إنه مشغول. وسألت «سليم» عن معنى هذا المشهد غير أنه هز كتفيه فى بساطة وأشار إلى الباب الذى يجلس «نسيم» خلفه. وكان كل ما قاله: «لقد أعطانى الأوامر بذلك». غير أنك لو كنت قد رأيت، يا عزيزى، وجه «نسيم» وهو يرفع البندقية. . . » وإذ هى تفكر فى منظره رفعت أصابعها الطويلة بصورة تلقائية إلى وجنتيها وكأنها تعدل تعبير وجهها وقالت: «لقد بدا كمن أصابه الجنون».

وفى الحجرة الأخرى كانوا يتكلمون بتأدب فى أحداث العالم السياسية، وعن الحالة فى «ألمانيا». كان «نسيم» قد حط فى رشاقة إلى جوار «بوردر» على كرسيه وكان «بومبال» يبتلع تثاؤبه الذى ظل يعاوده بطريقة مزعجة للغاية فى صورة كرعات متتالية. وكان عقلى ما يزال مشغولاً بـ«ميليسا». لقد أرسلت لها مبلغًا من المال فى ذلك الأصيل، وكنت أحس بالدفء وأنا أفكر فيها تشترى لنفسها بهذا المبلغ شيئًا من الملابس الأنيقة، أو حتى تنفقه بطريقة حمقاء. كان «بومبال» يتحدث بطريقة تمثيلية إلى امرأة متقدمة فى السن تبدو كجمل تاب عن آثامه. النقود. يجب أن يتأكد المرء على الدوام من وجود مصدر يمده بها. لا بد

أن المدام تعرف المثل العربى القائل : «الغنى يشترى الغنى، أما الفقر فيشترى بالكاد قبلة أبرص!».

وقالت «جوستين» : «هيا بنا». وأدركت وأنا أنظر فى عينيها الداكنتين الدافئتين، بينما كنت أودعها، أنها تكهنت بأن رأسى مشغول تمامًا فى تلك اللحظة بـ «ميليسا»، ولقد أعطى هذا الإدراك ليدها وهى تصافحنى مزيدًا من الدفء والمشاركة الوجدانية.

وأعتقد أنه فى تلك الليلة، بينما كانت ترتدى ملابس العشاء، جاء «نسيم» إلى غرفتها، وتوجه بالحديث إلى صورتها فى المرآة التى تشبه المجرفة. قال فى حزم : « «جوستين»، لا بد لى أن أسألك ألا تظنى بى الجنون أو أى شىء آخر يماثله ولكن، هل كان «بلتازار» فى يوم من الأيام أكثر من صديق لك؟» كانت «جوستين» تضع حلية ذهبية على صورة حشرة مجنحة فى حلمة أذنها اليسرى، فنظرت إلى أعلى إليه لفترة طويلة قبل أن تجيب بنفس لهجته : «كلا، يا عزيزى».

«شكرًا».

وبحلق «نسيم» فى صورته فى المرآة لفترة طويلة بثقة وترقب ثم تنهد وتناول من جيب صديريته التى يلبسها مفتاحًا صغيرًا ذهبيًا على شكل «عنخ» رمز الحياة عند المصريين القدماء، وقال فى خجل شديد : «إننى فى بساطة لا أستطيع أن أعرف كيف وصل هذا المفتاح إلى حوزتى». ومد لها يده بالمفتاح كى تراه. لقد كان مفتاح الساعة الصغير الذى سبب فقده كثيرًا من القلق لـ «بلتازار» وحملقت فيه «جوستين» ثم فى زوجها بشىء من الانزعاج وقالت : «أين كان؟».

«فى علبة الأزرار».

واستمرت «جوستين» فى إتمام زينتها ولكن بخطا أبطأ، وهى تنظر فى دهشة إلى زوجها الذى كان من ناحيته يتمعن فى تقاطيعه بنفس التدقيق العاقل المتأنى: «يجب أن أجد وسيلة أعيده بها إليه. ربما سقط منه فى أحد الاجتماعات غير أن الشيء الغريب هو. . . » وتنهد مرة أخرى: «إننى لا أتذكر» لقد كان واضحًا لكل منهما أنه قد سرقه. واستدار «نسيم» على عقبيه وقال: «سأنتظرك فى الطابق الأسفل». وعندما أغلق الباب خلفه فى رقة فحصت «جوستين» المفتاح الصغير فى فضول.

* * *

فى هذا الوقت كان «نسيم» قد بدأ يعيش تلك الدورة من الأحلام التاريخية، والتى حلت فى عقله الآن محل أحلام صباه، وألقت المدينة بنفسها فى غمار أحلامه تلك، وكأنها قد عثرت أخيرًا على شيء إيجابى تعبر من خلاله عن رغباتها الجماعية التى كانت تنبئ عن ثقافتها. كان يسهر ليرى الأبراج والمآذن مطبوعة فوق السماء المرهقة المعفرة بتراب ناعم، يراها وكأنما قد لصقت عليها البصمات العملاقة لأقدام الذاكرة التاريخية التى تكمن وراء الذكريات الشخصية للفرد، لتكون الموجه والمرشد، والمبدع الحقيقى، حيث إن الإنسان ليس إلا امتدادًا لروح المكان.

ولقد أزعجته تلك الأحلام، لأنها لم تكن بأى حال من الأحوال أحلام الليل، لقد غطت الحقيقة واحتوتها، وأعاقت عقله اليقظ، وكأن غشاء وجدانه قد تمزق فجأة فى أماكن عدة ليسمح لها بأن تعبر وتمر.

وانتابته جنبًا إلى جنب مع تلك التراكيب الخيالية العملاقة، والتى تمثلت فى معارض صور على النمط التقليدى لفن المعمار فى القرن

السادس عشر استنبطها من قراءاته وتأمله فى ماضيه الخاص وماضى المدينة، انتابته نوبات متزايدة الحدة من شك لا يستند إلى العقل ضد «جوستين» التى لم يكن قد تعرف عليها من قبل إلا نادرًا، «جوستين» الصديقة المواسية والعاشقة المتفانية. كانت تلك النوبات لا تستمر إلا لفترة قصيرة ولكنها كانت من العنف بحيث إنه، وهو يعتبرها عن حق، الوجه الآخر للحب الذى يحسه نحوها، بدأ يخاف من الحلاقة فى الحمام الأبيض القاحل كل صباح. وكثيرًا ما لاحظ الحلاق الصغير وهو ينشر فوطته البيضاء فى صمت فوقه، وجود الدموع فى عينى زبونه.

ولكن بينما احتلت أحلام الماضى الجزء الأمامى من عقله كانت أشخاص أصدقائه ومعارفه، ، حقيقة ملموسة، تسير جيئة وذهابًا بين تلك الأحلام، بين أنقاض «الإسكندرية» التقليدية، وتحتل فى الماضى فترة زمنية تثير الحيرة وكأنها أشخاص حقيقية ذات شأن. وعكف «نسيم» فى جد واجتهاد ككاتب أمين على تسجيل كل ما رآه وما أحسه فى يومياته، مصدرًا أوامره لـ «سليم»، الذى لا يؤثر فيه شىء، بأن ينسخها له على الآلة الكاتبة.

لقد رأى «الموسوية»، مثلا، بفنانيها المتجهمين الذين أمدوا بالمال بسخاء، ينقشون لوحة تذكارية لمؤسسيها: ورأى فيما بعد أن الفيلسوف من بين المتوحدين والحكماء يتمنى فى صبر وأناة أن يغدو العالم دولة خاصة محرمة لا جدوى منها لأحد سواه، حيث إنه فى كل مرحلة من مراحل التطور يلخص كل رجل، الكون جميعه، ويجعله ملائمًا لطبيعته الداخلية: بينما يخصب كل مفكر، وتخصب كل فكرة الكون من جديد.

وتمتمت له النقوش المدونة فوق رخام المتحف عندما مر بها وكأنها

شفاه تتحرك. كان «بلتازار» و«جوستين» فى انتظاره هناك، وكان قد قام لرؤيتهما، وأذهله ضوء القمر وظلال صفوف الأعمدة وقد بللها الماء. كان فى وسعه أن يسمع صوتيهما فى الظلام، وأخذ يفكر، بينما أطلق صفيراً خافتًا كانت تميزه به «جوستين» دائمًا، «إنها لمسألة مبتذلة من الناحية الفكرية أن يقضى الإنسان وقته واثقًا أشد الوثوق فى المبادئ الأولية كما يفعل «بلتازار»». وسمع صوت الرجل الذى يكبره سنّا وهو يقول: «والأخلاق لا شيء إن كانت مجرد شكل مظهرى للسلوك الطيب».

وسار عبر الأقواس متجهًا نحوهما فى بطء. وخطط ضوء القمر والظلام الأحجار الرخامية فبدت كالحمار الوحشى. كانا يجلسان فوق غطاء تابوت رخامى، بينما كان «بورسواردن» يسير جيئة وذهابًا يصفر نغمًا من ألحان «دونيزتى» فى مكان ما فى ظلام الفناء الخارجى القاتم كالقلب المتحجر. وتحولت «جوستين» بحليتها الذهبية التى فى أذنيها، تحولت فى ناظريه إلى واحد من أحلامه فرآها و«بلتازار»، رؤى كأنها الحقيقة، وهما يرتديان بطريقة مبتذلة رداءين نحتهما ضياء القمر نحتًا عميقًا. وكان «بلتازار» يقول فى صوت عذبه التناقض الظاهرى الذى يكمن فى قلب كل دين: «بالطبع فإن التبشير بالإنجيل على نحو ما يعتبر عملاً شريرًا، هذه واحدة من سخافات المنطق الإنسانى. ليس الإنجيل على الأقل هو الذى يورطنا مع قوى الظلام ولكنه التبشير الذى يفعل ذلك. لهذا فإن «القابال» مفيد للغاية لنا. إنه لا يضع أيّا من القواعد أكثر من علم اليقظة الصحيحة».

وأفسحت «جوستين» و«بلتازار» له مكانًا فوق مقعدهما الرخامى، غير أنه هنا أيضًا وقبل أن يصل إليهما اختلطت عليه الرؤية، وتداخلت

بقوة مشاهد أخرى، دون اعتبار لترابطها، والوقت الذى يراها فيه، ودون اعتبار الزمن التاريخى والاحتمالات العامة لحدوثها.

إنه يرى فى وضوح تام الضريح المقدس الذى بناه الجنود المشاة للإلهة «أفروديت». . الحمام. . على ذلك الشاطئ المهجور الذى يغطيه الطمى. لقد كانوا جياعًا. ودفعهم طول السير إلى أقصى حدود الاحتمال، وبرز شبح الموت الذى يسكن أعماق كل جندى بصورة حادة حتى تراءى لهم فى دقة ووضوح غير محتملين. فدواب الحمل تنفق لقلة العلف، والرجال يموتون لنقص المياه. إنهم لم يجرءوا على الوقوف عند الآبار والينابيع المسمومة. والحمير البرية تتسكع حولهم بطريقة تثير الغيظ إذ إنها أبعد من مرمى سهامهم. إنها تصيبهم بالجنون لما كانوا يتوقعونه من لحمها الذى لن ينالوه طالما أن الطابور يتقدم منتشرًا عبر الحفر المتناثرة لذلك الشاطئ الشائك. كان عليهم أن يسيروا قدمًا إلى المدينة رغم النبوءات والنذر. وسار المشاة عرايا رغم إدراكهم أن هذا عمل جنونى. وقد تبعتهم أسلحتهم فى عربات كانت على الدوام متأخرة. وقد ترك الطابور خلفه الرائحة الحامضة لأجساد لم يمسسها الماء، رائحة العرق وبول الثيران: رماة المقاليع المقدونيين «يظرطون ويفسون» كالماعز.

وكان أعداؤهم يتمتعون بأناقة تبهر الأنفاس، فرسانًا فى دروعهم البيضاء التى كانت تبدو وتختفى عبر طريق مسيرتهم كالسحب. يراهم المرء عن قرب فيجدهم رجالاً يرتدون العباءات الأرجوانية وصديريات مطرزة وسراويل حريرية ضيقة. ويضعون سلاسل ذهبية حول أعناقهم السمراء، وأساور حول أذرعتهم التى تحمل النبال. كان المرء يشتهيهم كما يشتهى سربًا من النساء. أصواتهم عالية وفتية. أى تناقض كانوا

يشكلون مع رماة المقاليع، رجال الطابور المدربين الأشداء والذين لا يعرفون إلا أيام الشتاء التى تجمد صنادلهم فى أقدامهم، أو أيام الصيف التى ييبس عرقها جلد الصنادل تحت أقدامهم حتى يغدو فى صلابة الرخام. إن غنائم الذهب، وليست العاطفة، هى التى جعلتهم يلتحقون بهذه المغامرة التى يتحملونها فى صبر وأناة أولئك الذين ينالون أجرهم بكدهم. وغدت الحياة الخالية من الجنس كسير من جلد يغوص فى أعماق الجسد. كانت الشمس قد لفحتهم وحرقتهم ثم داوتهم وشفتهم وحبس الغبار أصواتهم وغدا من العسير عليهم وقد اشتدت حرارة الشمس أن يردوا خوذاتهم المزدانة بريش الشجاعة والتى خرجوا بها لغزوتهم، وإفريقيا التى تراءت لهم امتداداً لأوروبا، امتداداً للحدود ولماض معين، قد أكدت نفسها لهم كشىء مغاير لما تخيلوه عنها: ظلمة منكرة حيث يسابق نقيق الغربان الصرخات الجافة لرجال خارت منهم العزائم، والضحك بمقدار كهمهمات أطفال القردة الإفريقية.

كانوا يأسرون فى بعض الأحيان أحد الأشخاص، رجلاً وحيداً خائفًا خرج يصطاد أرنبا، وكانت تصيبهم الحيرة عندما يجدون أنه آدمى مثلهم. كانوا يجردونه من أسماله ويحملقون فى أعضائه التناسلية باهتمام من يتقن عملاً لا يفهمه. وفى بعض الأحيان كانوا ينهبون إحدى الأبرشيات أو عقارات الأثرياء من عند سفوح التلال، ويتغذون بلحم الدلفين المحفوظ فى الجرار (جنود سكارى يحتفلون فى جرن بين الثيران، يتطوحون، يرتدون أكاليل من أوراق نبات برى حاد الأطراف، ويشربون من أكواب ذهبية أو مصنوعة من قرن الحيوان وقد وقعت غنيمة فى أيديهم) كل هذا كان قبل أن يبلغوا الصحراء.

وعندما تداخلت الطرق قدموا القرابين «لهرقل» (واغتالوا الحارسين في نفس الوقت، حتى يضمنوا السلامة لأنفسهم). ولكن منذ تلك اللحظة سار كل شيء في الطريق الخاطئ. كانوا يعرفون دون أن يجهروا بأنهم لن يصلوا المدينة أبدًا، وأنهم لن يستولوا عليها. وأنت أيها الإله! لا تدع الشتاء الذى قضاه الجنود عرايا فى التلال بلا خيام، يتكرر مرة أخرى. لقد أكل الصقيع الأصابع والأنوف!. والغارات! إنه لا يزال يسمع ضمن ما تعيه ذاكرته من ذكريات، صوت وقع أقدام الحارس وهى تقرقش وتعصر الجليد طوال الشتاء. لقد كان الأعداء فى تلك المنطقة يرتدون فوق رءوسهم جلد الثعالب والهامات الكاسرة، والصيديريات الطويلة التى تغطى سيقانهم. كانوا صامتين ينتمون بصورة فريدة، كما تنتمى الخضرة حولهم، إلى تلك الوهاد الحادة والممرات التى تكونها الخطوط الفاصلة الهائلة بين وديان الأنهار التى تقطع الأنفاس.

وغدت الذاكرة، مع سير الطابور، أداة تصنع الأحلام التى تجمعها الشرور السائدة فى طائفة من الأفكار القائمة على الحرمان. لقد كان «نسيم» يعرف أن الرجل الهادئ هناك، إنما يفكر فى الوردة التى عثر عليها فى سريرها يوم الاستعراض الرياضى. وأن الآخر لا يستطيع أن ينسى الرجل ذا الأذن المقطوعة. أما طالب العلم المتأفف والذى أجبر على الخدمة العسكرية فإنه يحس أن المعارك قد أصابته ببلادة الفكر فغدا كالمبولة فى حفل سكر على الطريقة اليونانية القديمة. وذلك الرجل البدين برائحته الغريبة كرائحة الأطفال. وصاحب النكتة الذى جعل طليعة الجيش تهدر بالضحك من قفشاته. كان يفكر فى مزيل جديد للشعر من مصر، فى سرير علامته التجارية «هرقل» دليل النعومة، فى حمائم بيضاء مقصوصة الأجنحة ترفرف حول مائدة

الولائم. لقد كان يقابل طوال حياته بالضحك الصاخب وتحيات الشباشب عند أبواب المواخير. وكان هناك آخرون يحلمون بمتع أقل شيوعًا من تلك المتعة، يحلمون بأن يعفروا رءوسهم بالأسبيداج، أو بالتلاميذ وقد ساروا فى الفجر عرايا فى طابور كل اثنين متجاورين متجهين إلى مدرسة معلم القيثارة عبر الثلج المتساقط الكثيف كالدقيق. واحتفل العوام فى الريف بـ«ديونيس» حاملين صورة جلدية ضخمة لعضو التذكير رمز التناسل وهم يزمجرون، ولكنهم ما إن اطلعوا على الطقوس حتى أخذوا ملح التقدمة وصورة الرمز فى صمت مرتجف. وتكاثرت أحلامهم فى أعماق «نسيم»، الذى ما إن سمعهم حتى فتح طريق الذاكرة أمام وجدانه ووعيه فى مهابة وعظمة كما يفتتح المرء شارعًا رئيسيًا.

لقد كان غريبًا أن يتجه إلى جوار «جوستين» فى ضوء القمر الخريفى الأسمر النحاسى عبر ذلك المد الوبيل من الذكريات. وأحس بأن كيانه المادى يزيح أحلامه بما له من وزن ثقيل. وتحرك «بلتازار» ليفسح له مكانًا وهو لا يزال مستمرّا فى الحديث إلى زوجته بصوت منخفض. (لقد شربوا الخمر فى تؤدة ولم يتناثر منها إلا القليل على أرديتهم. لقد أخبرهم قادتهم أنهم لن ينجزوا المهمة أبدًا، لن يعثروا على المدينة أبدًا) وتذكر «نسيم» فى وضوح، كيف كانت تجلس «جوستين» متربعة فوق السرير، بعد أن يضاجعها، وتبدأ فى ترتيب رزمة أوراق اللعب القديمة التى كانت تحتفظ بها دائمًا على الرف بين الكتب، وكأنها تحصى ما تبقى لهما من حظ سعيد بعد تلك المرة الأخيرة والتى غاصا فيها فى ذلك النهر التحتى الثلجى من الوجد والهوى والذى لم تستطع «جوستين» أن تكبته أو ترويه. (لقد قال «بلتازار» ذات مرة: «إن

العقول التى تمزقها رغباتها الجنسية، لن تجد الراحة حتى يقنعها كبر السن والقوى المنهكة بأن الصمت والهدوء ليسا عدوين لها»).

هل كان كل ما انتاب حياتهما من تنافر مقياسًا للقلق الذى ورثاه عن المدينة أو العصر، فغالبًا ما كان «نسيم» يقول: «أوه يا إلهى، لماذا لا نغادر تلك المدينة يا «جوستين»، ونبحث عن جو أقل تشبعًا بهذا الإحساس بالضياع والفشل؟» وحلت بخاطره كلمات الشاعر الشيخ(ф) وضغطت عليه كما يضغط العازف مسند القدم فى «البيانو» وأخذت تفور وترتد حول الأمل الواهى الذى نبعت الفكرة من مرقده القاتم.

وقال لنفسه فى هدوء، وهو يتحسس جبينه ليرى إذا ما كانت الحمى قد أصابته: «إن مشكلتى أن المرأة التى أحببتها قد منحتنى شعورًا كاملاً بالرضا دون أن ينال هذا الشعور البتة من سعادتها هى». وأخذ يستعيد فى فكره كل الأوهام التى أخذت تؤكد حقيقتها بدلائل مادية. أعنى أنه قد ضرب «جوستين» حتى آلمه ذراعه وتحطمت العصا بين يديه. لقد كان كل هذا بالطبع حلمًا. ومع ذلك فإنه وجد عندما استيقظ أن ذراعه يؤلمه وأنه متورم. ماذا يصدق المرء عندما تسخر الحقيقة بما يستعرضه الخيال؟

وفى نفس الوقت، بالطبع، أدرك «نسيم» إدراكًا تامًا أن معاناته، وفى الحقيقة كل علته إنما هى بذاتها شكل حاد من أشكال تضخم الذات. وجاءت كل تعاليم «القابال» كريح لاحقة تنفخ فى احتقاره لذاته. كان فى وسعه أن يسمع صوت «أفلاطون» يتكلم، كأصداء بعيدة فى ذاكرة المدينة، يتكلم عن السير نحو نور جديد، نحو مدينة من الضياء جديدة. لا عن الهرب بعيدًا من ظروف دنيوية غير محتملة. «ومع ذلك فإنها رحلة لا يمكن إنجازها سيرًا على الأقدام. انظر إلى

أعماق نفسك، انسحب إلى أعماق نفسك وانظر» غير أن هذا العمل كان هو العمل الوحيد، الذى أدرك الآن أنه سيعجز دونه إلى أبد الآبدين.

إنه لأمر يثير دهشتى، أن أتذكر وأنا أسجل تلك الصفحات، كم كانت الدلائل الظاهرة على سطح حياته، والتى تعكس ذلك التغير الداخلى ضئيلة للغاية، حتى لهؤلاء الذين كانوا يعرفونه معرفة وثيقة. كانت هناك أشياء قليلة يمكن أن يضع المرء إصبعه عليها، مجرد إحساس بأن الأمور ليست كالمعتاد، إنها كما يُعزف لحن معروف بطريقة بها بعض النشاز. لقد بدأ فى الحقيقة خلال تلك الفترة فى إقامة الولائم بإسراف لم تعرفه المدينة من قبل حتى بين أوساط أغنى الأسر وأثراها. لم يعد البيت الكبير يخلو الآن من الضيوف. واحتلت جناح المطبخ الكبير، حيث غالبًا ما كنا نسلق لأنفسنا بيضة أو نغلى كوبًا من اللبن بعد عودتنا من حفلة موسيقية أو مسرحية، والذى كان حينئذ متربًا ومهجوراً، أورطة دائمة من الطباخين، الذين يشبهون الجراحين والممثلين بطراطيرهم البيضاء فى لون الدقيق. وكان عدد من العبيد السود يقطعون الحجرات العلوية، والسلم الطويل، والقاعات والصالونات حيث يتردد أنين الساعات فى أبهة، كبجع يقوم بمهام خطيرة. وكانت ملابسهم التيلية البيضاء التى تفوح منها رائحة مكواة القدم نظيفة خالية من البقع، وقد تحزم كل منهم بزنار قرمزى ثبت فى وسطه مشبكًا ذهبيًا على شكل سلحفاة، هى الرمز الذى اتخذه «نسيم» لنفسه. كانت الطرابيش التقليدية القرمزية التى تشبه أصص الورد تعلو عيونهم الناعمة كعيون خنزير البحر، وأيديهم التى تشبه أيدى الغوريلا موضوعة فى قفازات بيضاء. كانوا صامتين صمت الموت ذاته.

ويمكن القول: إن «نسيم» إن لم يكن قد تفوق كثيراً في بذخه وإسرافه على الشخصيات المصرية الكبيرة فمن المحتمل أنه كان يفكر في أن يبذهم في هذا المضمار. كان البيت على الدوام مليئًا بالحياة، إما بالرباعي الموسيقي الرصين الذين يشبه نبات السرخس، وإما بأصوات الساكسفون العميقة والتي تشكو لليل كما يشكو زوج تخونه زوجته.

وفتحت خلوات وأركان مفاجئة في حوائط حجرات الاستقبال الجميلة الطويلة لزيادة قدرتها الكبيرة بالفعل على استيعاب الجلوس. وفي بعض الأحيان كان يجلس إلى عشاء فاخر لا معنى له أكثر من مائتي أو ثلاثمائة ضيف، يرقبون مضيفهم وقد غرق في تأمل وردة ترقد أمامه في طبق فارغ. ومع ذلك فإن هذا التصرف لم يكن الشيء الوحيد الذي يلفت الأنظار فيما ينتابه من ذهول. فقد كان يبتسم ابتسامة مفاجئة لحديث تافه يدور إلى جواره، يبتسم كما يبتسم امرؤ يزيح كوبًا مقلوبًا، ليكتشف نوعًا من المخلوقات الحشرية النادرة لا يعرف اسمه العلمي، كان الكوب يخفيه أسفله.

ما الذي يمكن إضافته إلى ما سبق؟ كان من العسير أن يلحظ المرء أي مظهر من مظاهر الإسراف البسيط في ملبسه كشخص. كانت تبدو ثروته على الدوام وكأنها تتناقض بطريقة شاذة مع ذوقه في ارتداء «بناطيل» من الفانلة وسترات من التويد. ولقد بدا الآن في حلته «الشارك سكين» الناعمة كالثلج والزنار القرمزي كما كان يجب أن يبدو على الدوام، أغنى رجال الأعمال بالمدينة وأكثرهم وسامة، هؤلاء اللقطاء الحقيقيون. وأحس الناس أنه قد احتل مكانه أخيراً. فهكذا يجب أن يعيش شخص له مقامه وثروته. واشتم رجال السلك الدبلوماسي وحدهم من هذا البذخ الحديث، رائحة خطة تكمن وراءها

دوافع خفية، ربما كانت مؤامرة لأسر الملك. وبدأوا بأدبهم المدروس يكثرون من التردد على مرسمه. كان في استطاعة المرء أن يحس بالفضول القلق خلف سمات وجوههم المزوقة الخاملة، والرغبة في معرفة دوافع «نسيم» ونواياه. ففي تلك الأيام كان الملك ضيفًا كثير التردد على المنزل الكبير.

في تلك الأثناء لم يعكس كل هذا أي تحسن على الوضع الأساسي. وبدا الأمر وكأن العمل الذي انتواه «نسيم» ينمو في بطء لا نهائي. مثل «الستالاكتيت»، مثل الترسيبات التي تتكون مدلاة من سقوف الكهوف، أي أنه كان هناك وقت يملأ فراغ المسافة بين التدبير والتنفيذ، الصواريخ تشق طريقًا من الشرر عبر السماء التي تشبه القطيفة، وتخترق الليل أبعد وأبعد حيث أرقد أنا و«جوستين» كل منا يمسك الآخر بين أحضانه، وفي عقله كان المرء يرى في حياة النافورات الساكنة خيالات الوجوه الآدمية، وقد أشعلتها النجوم الذهبية والقرمزية أثناء ارتفاعها وهي تئز في السماء كالبجع العطشان. وفي الظلام وضعت يدها الدافئة على ذراعي، وكان في وسعي أن أرقب سماء الخريف وقد راحت في رجفات من الضياء الملون في هدوء كهدوء شخص انحسرت عنه وتناثرت آلام عالم الإنسان التي لا تستحق شيئًا. كالألم عندما يظل مدة طويلة، ثم ينتشر كالطوفان من عضو محدد ليغمر منطقة كاملة من الجسد أو العقل. ولم تفعل الأخاديد الجميلة التي خلفتها الصواريخ وراءها فوق صفحة السماء أي شيء بنا غير أن تملأنا بإحساس الانبهار الذي ينسجم مع الطبيعة الكاملة لعالم الحب الذي كان على وشك أن يهجرنا.

كانت تلك الليلة على وجه الخصوص مليئة بوميض البرق الصيفي

النادر. وما إن انتهى هذا العرض حتى جاءت من الشرق، من الصحراء، قشرة رقيقة من الرعد تشبه فى شكلها قشرة قرحة فوق الصمت الشجى. وسقط مطر خفيف، فتى ومنعش، وللحال امتلأ الظلام بأشباح تسرع عائدة لتحتمى بالمنازل المضاءة، ورفعت الملابس فوق مفصل القدم وعلت الأصوات فى لهو صاخب. وتركت المصابيح للحظة قصيرة آثار أجسادها العارية فوق المواد الشفافة التى تحيط بها. أما نحن فقد اتجهنا فى صمت إلى داخل إحدى المظلات التى تقع خلف السور الذى تغطيه النباتات الحلوة الرائحة، ورقدنا فوق دكة حجرية منحوتة على شكل بجعة. وتدفق الجمع الثرثار الضاحك ماراً بمدخل المظلة متجهًا نحو الضوء، ورقدنا فى أرجوحة من الظلام نحس وخزات المطر اللطيفة فوق وجوهنا. وأضاء رجال يرتدون سترات العشاء آخر المصابيح الكهربية فى جسارة. ورأيت من خلال شعرها آخر المذنبات الباهتة وهى تنزلق إلى أعلى فى الظلام. وتذوقت، مع متعتى بالألوان التى توهجت فى رأسى، ضغط لسانها الدافئ البرىء على لسانى، وذراعاها على ذراعى. وعجزنا عن الكلام، من فرط سعادتنا، كنا ننظر باستمرار إلى بعضنا البعض بعيون مليئة بدموع متحجرة.

ومن المنزل وصلت إلى أسماعنا أصوات «طقطقة» سدادات زجاجات الشمبانيا وضحكات البشر.

«إننا الآن لا نقضى ليلة واحدة بمفردنا».

«ماذا يحدث «لنسيم»؟».

«لم أعد أعرف شيئًا. فعندما يود أحد أن يخفى شيئًا ما فإنه يتحول إلى ممثل. ويفرض هذا على كل من يحيطون به أن يمثلوا بنفس قدرته».

لقد كانت الحقيقة أن نفس الرجل يسير على سطح حياتهما المشتركة ـ نفس الرجل المجامل، الرقيق، الدقيق. ولكن كل شيء كان قد تغير بصورة مخيفة، لم يعد له وجود في حياتهما. «لقد هجر كل منا الآخر». قالتها في همسة صغيرة لاهثة وهي تضغط نفسها أكثر قربًا مني مما صعد بمشاعرنا إلى قمتها ورنت قبلاتنا التي كانت خلاصة كل ما شاركناه سويًا. فأمسكنا بها في قلق للحظة بين أيدينا، قبل أن تغيض في الظلام المحيط بنا وتذهب عنا بلا عودة. ومع ذلك فقد بدت وكأنها تقول لنفسها في كل معانقة: «ربما كان من خلال هذا الشيء بالذات والذي يؤلم أشد الألم والذي لا أرغب في أن ينتهي أبدًا، ربما من خلاله سأجد طريقي إلى «نسيم» مرة أخرى». وامتلأت نفسي فجأة بكآبة تفوق طاقتي واحتمالي.

وانتابتني فيما بعد، بينما كنت أسير في الحي الوطني بضجته الشديدة وأنواره النفاذة ورائحة الملابس الداخلية، انتابتني الحيرة كما كانت تنتابني على الدوام. إلى أي مصير تقودنا الأيام. وكأنما أردت أن أختبر صدق تلك العواطف التي يمكن أن يقوم عليها الحب والقلق إلى حد كبير، فملت إلى كشك يغمره الضياء وتزينه قطعة من إعلان سينمائي، نصف وجه كبير لعاشق في أحد الأفلام، صورة لا معنى لها تشبه بطن حوت مقلوب بعد موته، وجلست على الكرسي المخصص للزبائن، كما يفعل الإنسان في دكان الحلاق منتظرًا دوره. كانت تتدلى على الباب الداخلي ستارة قذرة وكانت تأتي من خلفها أصوات خافتة مثل تلك الأصوات التي تصدر عن اجتماع مخلوقات لا يعرفها العلم. ولم يثر ما يحدث سخطي، ولكنه في الحقيقة أثار فضولي كما تستثير العلوم الطبيعية فضول هؤلاء الذين كفوا عن ادعاء الأحاسيس المهذبة. كنت في ذلك الوقت سكران مرهقًا. سكران بـ«جوستين» قدر سكري «بالبول روجيه».

كان هناك طربوش موضوع على كرسى مجاور لى، فوضعته على رأسى دون أن أدرى. كان دافئًا ولزجًا بعض الشىء من داخله، والتصق الشريط الجلدى السميك المبطن للطربوش بجبهتى. وقلت لنفسى وأنا أنظر فى مرآة لصقت شقوقها بأطراف الأوراق الصمغية التى تحيط بورق البريد: «أريد أن أعرف ماذا يعنى هذا الأمر حقّا». كنت أقصد بالطبع كل تلك الحيرة الهائلة للجنس ذاته، أقصد عملية الإيلاج التى يمكن أن تقود الإنسان إلى الشعور باليأس والقنوط من أجل مخلوقة لها نهدان وهلال كما تصورها لغة الشرق العامية الزاهية. وارتفع فى الداخل صوت أنين لعوب وصرير، صوت آدمى ملتهب يضاف إلى صوت هزات سرير قديم تغطيه الأخشاب. وأغلب الظن أن هذه العملية التى تحدث هى بعينها العملية التى كنا نمارسها أنا و«جوستين» مع كل سكان هذا العالم المشترك الذى ننتمى إليه؛ وكيف يمكن أن تختلف؟ وإلى أى مدى حملتنا مشاعرنا بعيدًا عن حقيقة العملية الحيوانية البسيطة المجردة نفسها؟ وإلى أى مدى كان العقل الغدار مسئولاً، بقائمة الأشياء التى لا حد لها واللازمة للقلب كى يتعقل؟ كنت أود إجابة عن سؤال لا جواب له. كنت متلهفًا للوصول إلى يقين فى هذا الأمر، حتى لقد بدا لى أننى لو فاجأت العملية فى حالتها الطبيعية، دافعها المال لا الحب، ومع ذلك فهذا الأمر لا يؤثر عليها، فقد أتعرف على حقيقة مشاعرى ورغباتى. ورفعت الستائر فقد كنت أتعجل إنقاذ نفسى من السؤال، وخطوت فى خفة إلى داخل الحجرة الصغيرة للغاية والتى كانت مضاءة بمصباح نفطى كان يطن ويترنح وقد خفضت شعلته.

كانت تحتل السرير كتلة من اللحم غير واضحة المعالم تتحرك فى أكثر من وضع فى ذات الوقت، تهتز بطريقة غامضة ككومة من النمل.

ولقد استغرق الأمر منى بعض الوقت حتى استطعت أن أتبين فخذى رجل متقدم فى السن شاحبة ومليئة بالشعر، من فخذى شريكته، البيضاوين بميل للون الأخضر واللذان يتمتعان باستدارة نسائية، لها رأس كرأس حية «البواء» العاصرة، رأس يتوجه شعر أسود خشن يثير الضيق يتبع حركتها وقد تدلى فوق أطراف الحشية القذرة. ولا بد أن ظهورى المفاجئ قد أوحى لهما بكبسة بوليسية إذ تبع ظهورى شهقة ثم صمت مطبق. وبدا الأمر وكأن جبل النمل قد أصبح خاليًا من الحياة. وأنَّ الرجل ونظر فى اتجاهى بسرعة وفى ذعر، ثم دفن رأسه بين نهدى المرأة الضخمين وكأنه يهرب بذلك من افتضاح أمره. كان من المستحيل أن أوضح لهما أننى لا أتحرى شيئًا على وجه الخصوص غير تلك العملية التى يمارسانها سويًا. وتقدمت نحو السرير فى حزم وفى اعتذار، وأمسكت قضبان السرير الصدئة بيدى وحملقت إلى أسفل بطريقة أسبغ عليها بالضرورة جو البحث العلمى. ولكنى لم أكن أحملق فيهما فقد كنت أعى وجودهما بصعوبة كنت أحملق فى نفسى و«جوستين»، فى نفسى و«ميليسا». وتحولت المرأة تنظر إلىَّ بعينين مرتبكتين سوداوين سواد الفحم وقالت شيئًا باللغة العربية.

ورقدا هناك كضحيتين من ضحايا حادثة رهيبة، منهمكين فيما يؤديان بطريقة حمقاء خالية من الإتقان، وكأنهما بهذا النمط المفكك من الممارسة أول رجل وامرأة فى تاريخ الجنس البشرى يستنبطان هذه الوسيلة الخاصة للاتصال الجنسى. وبدا وضعهما المضحك والذى لا انسجام فيه وكأنه نتاجٌ بعض المحاولات البدائية التى يمكن أن تتطور، بعد قرون من التجربة إلى قدرات جسدية على قدر عال من التجانس كأوضاع الباليه. غير أنى أدركت رغم ذلك أن هذا الوضع من العلاقة الجنسية والذى يحمل طابع المأساة إلى الأبد ويثير الضحك قد ثبت بلا تغيير ولا تطوير.

من هذا الوضع انطلقت كل مظاهر الحب التى استخدمها الشعراء ومجانين الرجال ليزينوا بها فلسفتهم عن أشكال السمو والتفوق المؤدبة. من هذا المكان ابتدأ المرض والجنون نموهما، وإلى هنا أيضًا يعود ذلك القرف والغم الذى يكسو وجوه من تزوجوا منذ عهد بعيد. وقد قيد كل منهم إلى ظهر الآخر، حتى يمكن القول: إنهم كالكلاب وقد عجزت عن الانفصال بعد السفاد.

وفاجأتنى جلجلة الضحكة الناعمة المتكسرة التى صدرت عنى، غير أنها أكدت لهما ماهيتى. ورفع الرجل وجهه بضع بوصات وتنصت بانتباه كأنما يؤكد لنفسه أنه لا يمكن أن تصدر مثل هذه الضحكة عن رجل من رجال البوليس. واطمأنت المرأة لوجودى فابتسمت، وصاحت وهى تلوح بيدها البيضاء البشرة وتشير نحو الستارة: «انتظر لحظة واحدة، لن يستغرق الأمر وقتًا طويلاً». وأتى الرجل، وكأنما قد أحس التوبيخ فى لهجتها، ببعض الحركات التشنجية، كأنه مشلول يحاول السير، تدفعه إلى ذلك أنقى مشاعر المجاملة لا دواعى اللذة، وكشف التعبير المرتسم على وجهه عن أدب فائق، كالأدب الذى يتحلى به شخص فى ترام مزدحم عندما ينهض كى يعطى مكانه لأحد مشوهى الحرب. وصدر عن المرأة صوت «كقباع» الخنزير وتقلصت أطراف أصابعها.

وخطوت إلى الشارع مرة أخرى وأنا أضحك وقد تركتهما خلفى هناك فى حالة من الوفاق غير المتقن لأقوم بجولة فى الحى الذى لا يزال يطن بحياة الرجال والنساء تلك الحياة المتميزة الساخرة. كان المطر قد توقف والأرض الرطبة تخرج رائحة الطمى والأجساد والياسمين الذابل، رائحة حلوة تثير فى النفس الشجن. وأخذت أسير فى بطء

شديد، وقد انتابنى ذهول عميق، وأخذت أصف لنفسى فى كلمات كل هذا الحى من أحياء «الإسكندرية» فقد كنت أدرك أن النسيان سيطويه فى القريب وأن أحداً لن يعود لزيارته غير هؤلاء الذين استولت المدينة المحمومة على ذكرياتهم، عالقة بعقول عجائز الرجال كما تعلق آثار العطر بالأكمام، «الإسكندرية»، عاصمة الذكرى. كان الشارع الضيق مرصوفًا بالآجر الذى تفوح رائحته، كان المطر قد جعله هشّا غير أنه لم يكن مبتلاً. وقد اصطفت أكشاك العاهرات الملونة على طول الشارع، كن يعرضن أجسادهن المثيرة الرخامية بطريقة محتشمة أمام منازلهن التى تشبه منازل الدمى، وكأن كلا منهن تجلس أمام ضريح مقدس. كن يجلسن على قارعة الطريق على كراسى ذات ثلاث أرجل يرتدين شباشب ملونة وكأنهن عرافات. وكانت غرابة الإضاءة تضفى على المشهد كله ألوانًا رومانتيكية نابضة، فبدلاً من أن يضاء الشارع بالضوء الكهربائى من أعلى أضىء الشارع كله بمجموعة من مصابيح الكاربيد النفاذة وقد وضعت على الأرض. كانت تلقى إلى أعلى زوايا وأسقف منازل الدمى المائلة، على أنوف وعيون سكانها، على الظلام المستسلم الناعم كالفرو، بظلال ظامئة بنفسجية مشحونة بالبهجة. وسرت فى بطء بين تلك الزهرات الآدمية الشاذة. أفكر فى أن المدينة كالإنسان تجمع ميولها وشهواتها ومخاوفها. إنها تنمو حتى تبلغ النضج وتقدم أنبياءها، ثم تنحدر إلى التبلد أو الشيخوخة أو الوحدة وهى أسوأ من كليهما. والأحياء لا يزلن يجلسن على قارعة الطريق، لا يدرين أن أمهن المدينة تموت، يجلسن كالتماثيل المنصوبة يسندن الظلام، وآلام المستقبل ترقد فوق جفونهن، ترقب فى يقظة، الباحثين عن الخلود عبر كل تنبؤات الزمن.

هناك كشك مدهون مزخرف بأزهار السوسن، وقد رسمت بعناية

وبطريقة صحيحة باللون الأزرق الغامق على أرضية فى لون الخوخ. وعلى بابه جلست صبية زنجية ضخمة يميل لونها إلى الزرقة، ربما لم تكن تتعدى الثامنة عشرة من عمرها، ترتدى قميص نوم أحمر من الفانلة يشبه بصورة مبهمة ملابس الإرسالية. وقد وضعت على رأسها الأسود بشعرها الذى يشبه جزة الغنم تاجًا من زهور النرجس يخطف الأبصار. وجمعت يديها فى تواضع فى حجرها، فبدا كفوطة مليئة بالأصابع المقددة. كانت تشبه أرنبًا كالملاك يجلس عند مدخل جحره. وجلست عند الباب المجاور لها امرأة هشة كورقة الشجر، وبعدها أخرى تشبه مركبا كيمائيًا غسلته الأمونيا ودخان السجائر. وفى كل مكان فوق تلك الجدران المبنية المترنحة رأيت تعويذة المدينة الرئيسية، نقش كف ممدودة الأصابع تسعى إلى رد الأهوال التى احتشدت فى الظلام خارج المدينة المضاءة. لم تكن تصدر عنهن وأنا أسير الآن بينهن صرخات البشر الساعين خلف المال، ولكن نداءات كمناغاة اليمام، وملأت أصواتهن الهادئة الشارع بسكون كسكون الأديرة. إنهن لا يعرضن الجنس فى تلك العزلة الفظيعة، التى يعشنها بين الشعلات الصفراء، ولكنهن يقدمن، باعتبارهن بنات أصيلات لـ«الإسكندرية»، النسيان العميق الذى يمنحه المخاض والميلاد، وهو مزيج من متع جسدية يحصل عليها الإنسان دون أن يحس بالنفور أو الاشمئزاز.

واهتزت منازل الدمى وتمايلت للحظة عندما اقتحمت رياح البحر المكان تهجم على قطع الملابس النسائية وتضغط الحواجز غير المثبتة. وكان الباب الخلفى لأحد المنازل لا يستره غطاء ولذا كان فى استطاعة الناظر عبر الباب أن يلمح فناء به شجرة نخيل عاجز عن النمو. وقد جلست ثلاث فتيات يرتدين ملابس فضفاضة ممزقة على كراسى حول نار تصعد ألسنتها من جردل ملىء بنشارة الخشب المشتعلة. كن يتحدثن

بأصوات خفيضة وقد مددن أطراف أصابعهن إلى النار الهزيلة. وبدون مستغرقات نائيات وكأنهن كن يجلسن حول نار مخيم فى مناطق «الاستبس».

(كان فى وسعى أن أرى فى خلفية عقلى شطآن الثلج الضخمة، أكوام الثلج حيث ترقد زجاجات الشمبانيا فى منزل «نسيم»، تلمع بلون أخضر يميل إلى الزرقة كسمكة عجوز من أسماك «الشبوط» فى بركة ماء عادية. وشممت أكمامى كأنما أسترجع ذاكرتى بحثًا عن آثار عطر «جوستين»).

وأخيراً ملت إلى مقهى خال حيث تناولت فنجانًا من القهوة قدمه إلىَّ خادم صعيدى، كان حَوَل عينيه الغريب يبدو وكأنه يضاعف كل شيء يحملق فيه. وتكومت امرأة عجوز للغاية على صندوق كبير فى ركن المقهى البعيد، كانت تجلس ساكنة حتى أنى لم أرها فى بادئ الأمر، وقد أخذت تدخن النرجيلة وتطلق من حين لآخر كركرة ناعمة كصوت هديل اليمام. وهنا استعرضت فى مخيلتى القصة كاملة من أولها إلى آخرها، مبتدئًا بتلك الأيام التى لم أكن أعرف فيها «ميليسا» ومنتهيًا إلى القريب العاجل فى مكان ما حيث سأموت ميتة تافهة، ميتة من حشر نفسه فيما لا يعنيه، فى مدينة لا أنتمى إليها. قلت: إنى استعرضت القصة فى مخيلتى، غير أن الغريب حقّا هو أننى لم أفكر فيها كتاريخ شخصى له طابع فردى بقدر ما فكرت فيها كجزء من النسيج التاريخى لهذا المكان. لقد صورت الأمر لنفسى على اعتبار أنه جزء لا ينفصل عن سلوك المدينة، يتطابق تمام التطابق مع كل ما سبقه من قبل، وبكل ما سيلحقه من بعد. كان الوسط المحيط بى قد خدر خيالى بدهاء حتى إنه لم يعد قادراً على الاستجابة لأى تقييم شخصى أو

فردى. لقد فقدت القدرة حتى على الشعور بما يثيره الخوف من رجفة. وإنى لأشعر على وجه الخصوص بالأسف الشديد من أجل هذا الخليط الذى أصفه فى مخطوط مذكراتى والتى يمكن أن أتركها من بعدى. لقد كنت أكره على الدوام الأعمال الناقصة والشذرات وقررت ضرورة إتلافها على الأقل قبل أن أخطو أية خطوة أخرى. ونهضت على قدمىَّ، وصدمنى عندئذ خاطر مفاجئ هو أن الرجل الذى رأيته فى الكشك كان «منمجيان». كيف حدث أن أخطأت هذا الظهر المشوه؟ وسيطرت علىَّ هذه الفكرة وأنا أعود أعبر الحى، متجهًا إلى حيث الشوارع العمومية أكثر اتساعًا ناحية البحر. وسرت خلال هذا السراب من الأزقة الضيقة المتقاطعة كما يجوس المرء أرض معركة ابتلعت كل أصدقاء شبابه، ورغم ذلك، لم يكن فى مقدورى إلا أن أحس البهجة لكل ما أشمه أو أسمعه، أحس بهجة من نجا وعاش. وهنا فى أحد الأركان وقف لاعب يبتلع النيران وقد استدار بوجهه نحو السماء يبخ من فمه عمودًا من اللهب يتحول عند أطرافه إلى دخان أسود متطاير وقد فتح فى السماء ثقبًا. كان يأخذ من حين لآخر جرعة كبيرة من زجاجة بها بترول قبل أن يلقى برأسه إلى الوراء مرة أخرى ويطلق شعلات النار إلى ارتفاع ستة أقدام. وترامت فى كل الأركان خيالات بنفسجية، أحاطت بها تجربة إنسانية، وحشية ورقيقة الأحاسيس فى ذات الوقت. واعتبرت إحساسى بأنى لم أعد أمتلئ بشعور الرثاء على حالى ولكنى أمتلئ برغبة فى أن تدعونى المدينة واحدًا منها، أن تسجلنى بين ذكرياتها التافهة أو المأساوية، إن شاءت، اعتبرت ذلك مقياسًا لنضجى.

وما إن وصلت إلى شقتى الصغيرة حتى نبشت كراسات التمارين الرمادية التى كتبت فيها مذكراتى بلا عناية وبنفس القدر من طبيعتى لم أعد أفكر فى إتلافها على الإطلاق. جلست هناك فى ضوء المصباح

وأضفت إليها أشياء جديدة بينما «بومبال» يتحدث عن الحياة وهو جالس على المقعد المريح ذى المساند.

ما إن عدت إلى حجرتى حتى جلست صامتًا، أصغى إلى نغم عطرها النفاذ الذى أعتقد أنه مركب من اللحم والفضلات والنباتات، وقد تداخلت كلها فى كيانها الذى يشبه الحرير الكثيف. إنه نوع غريب من الحب لأنى لا أحس بأنى أمتلكها، ولا أرغب حقّا فى امتلاكها، إن الأمر يبدو وكأننا لم نلتق إلا فى امتلاك كل منا لذاته، وغدونا شريكين لفترة مشتركة من فترات نمونا. إننا فى الحقيقة نهين الحب ذاته لأننا قد أثبتنا أن أواصر الصداقة أقوى من الحب. إن تلك المذكرات، إذا قدر لها أن تقرأ، لا تعنى أكثر من تعليق ودى شديد الحرص عن عالم ولدت فيه لأقضى أشد اللحظات وحدة لحظات المضاجعة، مع «جوستين». إننى لا أستطيع الاقتراب من الحقيقة أكثر من ذلك.

منذ فترة قريبة، عندما غدا من العسير رؤيتها لسبب أو آخر، وجدت نفسى فى اشتياق شديد إليها حتى إنى قطعت الطريق كله إلى «بيترانتونى» لأحاول شراء زجاجة من زجاجات العطر الذى تستعمله. ولكن بلا جدوى، فقد بللت الفتاة المهذبة والتى تعمل مساعدة للبائعة راحتى بكل أنواع العطور التى لديها واعتقدت مرة أو مرتين أنى أشم عطرها. ولكن عبثًا. كان هناك شيء مفتقد على الدوام، أعتقد أنه الجسد الذى يوضع العطر فوقه. كان الشيء المفتقد هو ما يعتمل فى داخل الجسد ذاته. وعندما فقدت الأمل ذكرت اسم «جوستين» وللحال استدارت الفتاة إلى أول زجاجة عطر كنا قد جربناها، وسألت وقد بدا عليها أنه قد أسيء إلى تخصصها: «لماذا لم تقل هذا منذ البداية؟» كانت لهجتها تعنى أن كل امرئ يعرف العطر الذى تستخدمه

«جوستين» ما عداى. ومع ذلك لم أستطع التعرف عليه. ودهشت إذ اكتشفت أن عطر «جاميه ده لافى» لم يكن من بين العطور الغالية أو المستوردة.

(عندما أخذت الزجاجة الصغيرة التى عثروا عليها فى جيب صيديرية «كوهين» إلى منزلى، كان طيب «ميليسا» ما زال حبيسًا هناك. كان من الممكن اكتشافه).

كان «بومبال» يقرأ بصوت عال تلك العبارة الطويلة الفظيعة من كتاب «عادات» والتى يطلق عليها اسم « الدمية تتكلم». كانت «جوستين» تقول: إنى لم أعرف البتة الانطلاق والانعتاق فى كل تلك الصدامات التى وقعت عن طريق المصادفة، بينى وبين ذكر الحيوان، مهما كانت التجارب التى أخضعت لها جسدى. إننى أرى دائمًا فى المرآة صورة الجنون يصرخ وقد بلغ الشيخوخة: «لقد فاتنى حبى لذاتى. حبى أنا. كرامتى. حبى لذاتى. لم أتألم البتة، لم أحظ أبدًا بمتعة بسيطة ولذيذة».

ولم يتوقف «بومبال» إلا ليقول: «لو كان هذا الكلام حقّا، فقد اتخذت أنت من مرضها وسيلة لحبها». ووقعت علىَّ تلك الملاحظة كما يقع طرف فأس يمسك بها شخص يتمتع بقوة هائلة وخارقة على جذع شجرة.

وغمر «نسيم» شعور سحرى بالارتياح، عندما حل موعد الصيد السنوى الكبير فى بحيرة «مريوط». لقد أدرك أخيرًا أن ما كان عليه أن يقرر عمله سيتقرر فى هذا الوقت وليس فى أى وقت آخر. كان يبدو كرجل قاوم بنجاح مرضًا طويلاً. هل كان حكمه خاطئًا حقّا إلى هذا الحد رغم أنه لم يكن يعى هذا الحكم؟ لقد ظل خلال سبع سنوات من

الزواج يردد كل يوم. «إننى فى غاية السعادة»، كلمات مشئومة كضربات ساعة جد عجوز يزحف الصمت عليها بلا توقف. والآن لم يعد فى وسعه أن يقول تلك الكلمات مرة أخرى. إن حياتهما المشتركة تشبه سلكًا مدفونًا تحت الرمال، قطع بطريقة غامضة فى نقطة يستحيل اكتشافها، فألقى بهما فى ظلام دامس غير مألوف.

إن الجنون لم يأخذ بالطبع فى اعتباره الظروف المحيطة بنا. لقد بدا وكأنه قد ركز نفسه كلية فوق حالة قائمة بذاتها، وليس فوق حالات الأشخاص الذين تعذبوا عذابًا يفوق حدود الصبر والاحتمال، لقد شاركنا جميعًا على نحو حقيقى فى هذا الجنون، رغم أن «نسيم» وحده، كشخص، هو الذى أخرجه إلى حيز الوجود، مجسداً إياه كمثل حى. لقد استمرت المرحلة السابقة على الصيد الكبير فى مريوط ما يقرب من شهر، لقد كانت بالتأكيد أكثر من ذلك قليلاً إلا أن أحدًا ممن كانوا لا يعرفون أمره لم يلحظ أى شىء. ورغم ذلك ضاعفت أوهامه نفسها حتى إن ما سجله من ذكريات يعطى المرء إحساسًا كإحساس الذى يرقب تكاثر البكتيريا تحت المجهر، تكاثر الخلايا الصحيحة بصورة غزيرة كما يحدث فى السرطان، وقد جنت الخلايا ونفضت عن نفسها قدرتها على قمع ذاتها.

كانت سلسلة الرسائل السرية الغامضة التى تحملها إليه أسماء الشوارع التى يمر بها تكشف عن رموز مؤكدة لا يمكن دحضها تصدر قوة خارقة للطبيعة تنذر بكل قوة بعقاب غير مرئى، غير أنه لم يكن يعرف إذا ما كان هذا العقاب موجهًا إليه أم إلى آخرين؟ كذلك رؤيته لمقالة «بلتازار» وقد رقدت ذابلة الأوراق فى واجهة إحدى المكتبات، ومروره فى نفس اليوم بقبر أبيه فى مدفنة اليهود، وقد حفرت على

حجر القبر تلك الأسماء التى يتميز بها اليهود الأوروبيون والتى تعكس كل الخلل العقلى الذى يعانونه فى المنفى.

ثم تأتى مشكلة الأصوات التى يسمعها فى الغرفة المجاورة صوت نفس ثقيل. صوت «بيانات» ثلاث يُضرب عليها فجأة وفى ذات الوقت. كان «نسيم» يرى أن هذه الأشياء ليست أوهامًا ولكنها حلقات فى سلسلة خفية لا يراها، ولكنها لا تبدو منطقية ومقنعة إلا للعقل الذى تخطى حدود «السببية». وغدا التظاهر بالعقل فى إطار مقاييس السلوك العادية أصعب وأصعب. كان يمر بحالة من الدمار التى وصفها «سويدنبرج».

واشتعلت نيران الفحم متخذة أشكالاً غريبة. كان فى مقدوره أن يثبت هذا الأمر بإشعال النيران مرة أخرى ليتحقق من اكتشافاته، مناظر ووجوه مفزعة. كما كانت الوحمة التى على رسغ «جوستين» تثير الضيق فى نفسه. كان خلال فترات الأكل يكبح رغبة تراود نفسه فى أن يلمسها، يكبح نفسه بصورة حادة حتى إنه كان يشحب ويكاد أن يغمى عليه.

وذات أصيل أخذت ملاءة مجعدة تتنفس واستمرت كذلك لمدة تقرب من نصف ساعة، متخذة هيئة الجسد الذى كانت تغطيه. كما استيقظ ذات ليلة على دوى أجنحة ضخمة فرأى مخلوقًا يشبه الوطواط له رأس «كمان» وقد استقر على حافة السرير.

ثم ما تقوم به قوى الخير من أعمال مضادة، رسالة حملتها إليه خنفساء ملونة حطت فوق كراسة يومياته التى كان يكتب فيها، معزوفة «بان» للموسيقى «ويبر» تعزف كل يوم ما بين الثالثة والرابعة على «بيان» فى المنزل الملاصق لمنزله. وأحس أن عقله قد غدا ساحة صراع

لقوى الخير والشر وأن مهمته هى أن يشد كل عصب من أعصابه ليتعرف عليها، إلا أن هذا لم يكن أمرًا سهلاً. كان عالم الشواذ قد بدأ يمارس حيَله عليه حتى إن أحاسيسه بدأت تتهم الحقيقة ذاتها بالتناقض والتباين. كان معرضًا لخطر انهيار عقلى.

وأخذت صديريته «تتكتك» ذات مرة وهى معلقة على ظهر أحد الكراسى، وكأنما تسكنها مستعمرة من نبضات قلب غير قلبه. غير أنها توقفت عند فحصها ورفضت أن تستمر فيما تقوم به من أجل خاطر «سليم» الذى استدعاه «نسيم» إلى الحجرة. ورأى ذات يوم الحروف الأولى من اسمه منقوشة بالذهب فوق إحدى السحب وقد انعكست صورتها فى واجهة إحدى المحلات فى شارع «سانت سابا». وبدا أن هذا الأمر برهان على صحة كل شىء.

ورأى «نسيم» فى نفس الأسبوع شخصًا غريبًا يجلس فى مقهى «الأقطار» فى نفس الركن المحجوز دائمًا لـ «بلتازار». كان يرتشف العرقى، نفس العرقى الذى كان «نسيم» مرجحا أن يطلبه. كان هذا الشخص يحمل شبها قويا له، وإن كان مشوها وقد رآه وهو يستدير ينظر إلى المرآة وقد انفرجت شفتاه عن ابتسامة تكشف أسنانه البيضاء. ولم ينظر «نسيم» بل أسرع إلى الباب يغادر المكان.

وأحس عندما سار يقطع «شارع فؤاد» بطوله أن الرصيف كله قد تحول تحت قدميه إلى إسفنج، وخيل إليه قبل أن يختفى هذا الوهم أنه يغوص فيه حتى وسطه. واستيقظ عصر هذا اليوم فى الثانية والنصف من نوم محموم ثم ارتدى ملابسه واتخذ سمته إلى «باسترودى» ومقهى «دوردالى» ليؤكد إحساسًا لم يستطع الخلاص منه بأنهما خاليان.

وكانا بالفعل كذلك، فملأه ذلك بشعور من الارتياح الظافر، غير أن

هذا الشعور لم يعمر طويلاً، فقد أحس فجأة وهو عائد إلى حجرته وكأن قلبه يُطرد من جسده عن طريق الحركات الآلية القصيرة لمضخة هوائية. ووصل به الأمر إلى حد أنه بدأ يكره ويخاف تلك الحجرة. كان يقف مصغيًا لمدة طويلة حتى يواتيه الصوت من جديد، صوت انزلاق الأسلاك وهى تمد فوق أرضية الحجرة، ضجة حيوان صغير، صرخاته والبعض يكتم أنفاسه بينما كان يلفه ليضعه فى كيس. ثم سمع فى وضوح صوت مشابك الحقائب وهى تغلق وتطقطق وصوت تنفس شخص ما كان يقف خلف الباب المجاور يتنصت لأقل الأصوات. وخلع «نسيم» حذاءه ودخل على أطراف أصابعه إلى النافذة ليحاول رؤية ما فى الحجرة المجاورة لقد خيل إليه أن قاتله، رجل كبير السن، ضخم الجثة حاد التقاطيع، له عينان حمراوان غائرتان كعينى الدب. كان عاجزًا عن إثبات ذلك. ثم ما رآه وأثار الفزع فى نفسه، عندما استيقظ مبكرًا فى اليوم الذى يجب أن توجه فيه الدعوات للصيد الكبير، فرأى، من نافذة حجرة نومه رجلان يرتديان الملابس العربية وقد بدت الريبة عليهما وهما يربطان حبلاً إلى شىء كالرافعة موجودًا على سطح المنزل. وأشارا إليه وتحدثا معًا فى صوت منخفض. ثم بدآ ينزلان إلى قارعة الطريق شيئًا ثقيلاً ملفوفًا فى معطف من الفرو.

وأخذت يداه ترتعشان وهو يملأ مربعات الدعوات الكبيرة البيضاء بخطه المنساب الجميل، منتقيًا أسماء مدعويه من قائمة ضخمة مكتوبة على الآلة الكاتبة كان «سليم» قد وضعها على المكتب. ومع ذلك فقد ابتسم عندما تذكر المساحة الكبيرة التى تخصصها الصحافة المحلية كل عام بمناسبة هذا الحدث المشهود، العيد الكبير فى مريوط. وأحس وقد وجد أن لديه الكثير مما يشغله بأن عليه ألا يترك أى شىء للصدفة. ورغم أن «سليم» كان يحوم حوله راغبًا فى مساعدته إلا أنه زم شفتيه

وأصر على أن يقوم هو بنفسه بكتابة كل الدعوات. وكانت الدعوة الموجهة إلىَّ ترقد فوق رف المدفأة تحملق فىَّ وقد حملت كل دلائل الكارثة. ونظرت إليها وقد شتت النيكوتين والخمر انتباهى، وأدركت أن هنا وبطريقة لا يمكن التكهن بها يوجد الحل الذى نتحرك جميعًا نحوه. (عندما يغادر العلم المكان تحتل الأعصاب مكانه. «عادات»).

قالت «جوستين» فى حدة، «سترفض الدعوة بالتأكيد. لن تذهب إلى هناك؟» وأدركت أنها كانت تتابع نظراتى.

ووقفت فى ضوء الصباح الباكر الذى يغلفه الضباب، تصغى بأذنها إلى شبح «حميد» بأنفاسه الثقيلة خلف الباب. «لن تغرى بك القدر. أجبنى هل ستفعل ذلك؟».

وانزلقت من قميصها وحذائها واستلقت فى رقة فوق السرير إلى جوارى، وكأنها تبغى بذلك أن تتأكد من تسليمى برأيها، كان شعرها وفمها دافئين وخانتها حركات جسدها القلقة وهى تنثنى علىَّ وكأنها تتوجع، تشكو من جراح لا تندمل. وبدا لى حينئذ، وليس هناك ما يدعو للزهو فيما أكرهت نفسى عليه، بدا لى حينئذ أننى لن أستطيع أن أحرم «نسيم»، فترة أطول، من المتعة التى يبحث عنها من الانتقام منى، أو فى الحقيقة التى ستنتج عن هذا الانتقام. وكان يوجد تحت كل هذا أيضًا، شعور بالارتياح جعلنى أكاد أحس بالبهجة حتى رأيت التعبير الحزين الجاد يكسو وجه رفيقتى النائمة فى أحضانى. كانت ترقد إلى جوارى تنظر إلى بهاتين العينين الرائعتين المعبرتين السوداوين وكأنها تطل من نافذة عالية فى ذاكرتها. كنت أدرك أنها تطل فى عينى «ميليسا»، فى العينين القلقتين الصريحتين للمرأة التى كانت تقترب منا أكثر فأكثر مع كل يوم يزداد فيه الخطر علينا. ومع ذلك فمن غير

«ميليسا» سيصيبه أشد الإيلام نتيجة ما يدبره «نسيم»؟ وعدت إلى الوراء أفكر من خلال سلسلة قبلات «جوستين» الملتهبة المتلاحقة. عدت بثبات إلى الوراء إلى ذاكرتى وراحتى فوق معصمى، كبحار يهبط على سلسلة المرساة إلى أشد الأعماق ظلامًا فى مرفأ كبير راكد للذاكرة.

إن كلاً منا يختار من بين جميع أنواع الفشل الذى عاناه ذلك الذى يعرض احترامه لنفسه إلى أقل أنواع الهوان. ذلك الذى يدنى شأنه بأقل قدر. لقد فشلت فى الفن، والدين، والتعامل مع الناس. فشلت فى الفن (وقد واتتنى الفكرة فجأة فى هذه اللحظة) لأننى لم أكن أؤمن بالشخصية الإنسانية المطلقة الحرية. (يكتب «بورسواردن»: «هل يثبت الناس على حالهم بصورة دائمة، أم أنهم يتغيرون مرة إثر أخرى فى سرعة فائقة حتى إنهم يعكسون شعوراً وهميّا باتصال ملامحهم كالارتعاشة المؤقتة، لشريط سينمائى صامت قديم»؟) كانت تنقصنى الثقة الحقيقية بالناس حتى أستطيع أن أصورهم بنجاح.

وفى الدين؟ حسنًا، إننى لم أجد أن أى دين من الأديان التى تستحق الاهتمام يحتوى على أقل ذرة من السكينة، أو أنه فى وسعه أن ينجو من الاتهام. لقد بدا لى مسايرة لـ «بلتازار» أن كل الكنائس وكل الطوائف ليست فى أفضل الأحوال غير معاهد تثقيف ذاتى ضد الخوف. غير أن فشلى الأخير، وأسوأ فشل عانيته (ودفعت شفتى فى شعر «جوستين» الفاحم الملىء بالحياة) هو فشلى مع الناس. وقد كان ذلك نتاج انفصال روحى أخذ يزداد بالتدريج، انفصال نهائى عن التملك بينما أطلق لى العنان كى أتعاطف مع الناس. وغدوت شيئًا فشيئًا وعلى نحو لا يمكن تفسيره أشد عجزاً عن ممارسة الحب. ومع

ذلك أفضل فى البذل والتضحية، وهما أجمل ما فى الحب. وأدركت وقد تملكنى الرعب أن هذا هو مصدر سيطرتى الآن على «جوستين».

لقد كان محكومًا عليها، كامرأة من طبيعتها حب التملك أن تحاول السيطرة على ذلك الجزء من نفسى الذى كان على الدوام بعيد المنال. إنه ملاذى الأخير المؤلم، إنه مقدرتى على أن أضحك وأصادق. ولقد جعلها مثل هذا الحب يائسة على نحو ما. لأنى لم أكن أعتمد عليها. ولأن الرغبة فى السيطرة إذا ما أصابها الحرمان يمكنها أن تجعل المرء خاضعًا خضوعًا تامًّا لما تمليه عليه نوازعه.

إنه لمن الصعوبة بمكان أن نحلل تلك العلاقات التى تكمن تحت سطح أفعالنا مباشرة. فالحب ليس إلا نوعًا من اللغة التى يتحدث بها الجسد، والجنس ليس إلا اصطلاحًا وتسمية خاصة.

ولكى أوضح هذه العلاقة الحزينة التى سببت لى الألم الكثير أكثر من ذلك، فإننى قد رأيت أن الألم ذاته كان الغذاء الوحيد للذاكرة. فالبهجة تنهى نفسها، وكان كل ما خلفته لى هو رصيد من الصحة الدائمة، وعزلة تهب الحياة. كنت مثل بطارية جافة، غير ملتزم بشىء. كنت حرًّا فى أن أجوب عالم الرجال والنساء كحارس أمين على ما للحب من حقوق حقيقية، ليس من أجل العاطفة، ولا بحكم العادة (وكلاهما أهل لها فقط) ولكنه الهجوم المقدس ممن له الخلود بين بشر مصيرهم إلى فناء، من «أفروديت» فى كامل لباس حربها.

ومع أنى كنت محاصرًا على هذا النحو غير أنى رغم ذلك كنت محددًا، أعرف نفسى بالصفة التى تتميز بها والتى آلمتنى (بالطبع) أكثر من غيرها ألا وهى نكرانى لذاتى. إن هذا وليس شخصيتى هو ما أحبته «جوستين» فىَّ، فالنساء لصوص رغبة جنسية وهذا الكنز من العزلة

والانفصام هو ما أرادت «جوستين» أن تسرقه منى، إنه الجوهرة النامية فى رأس الضفدع. لقد رأيت بصمات هذه العزلة مدونة عبر صفحة حياتى بكل ما فيها من عشوائية وتنافر واضطراب.

لم تكن قيمتى فى أى عمل أنجزته أو أى شىء أمتلكه، لقد أحبتنى «جوستين» لأنى كنت أعنى بالنسبة لها شيئًا لا يمكن النيل منه. إنسان قد تشكل بالفعل ولا يمكن تحطيمه. كان يطاردها شعور بأننى حتى وأنا أحبها لا أرغب فى شىء غير أن أموت. ولقد وجدت «جوستين» أن هذا الأمر لا يطاق ولا يحتمل.

و«ميليسا»؟ بالطبع كانت تفتقر إلى إدراك «جوستين» لحالتى. لم تكن تعرف غير أن قوتى هى سندها فى أشد حالات ضعفها، فى تعاملها مع العالم. كانت تلتقط وكأنها قد عثرت على شىء ثمين، كل دليل وإشارة على ضعفى الإنسانى، عاداتى القائمة على الفوضى، عجزى فى تصريف الأمور المالية، إلى غير ذلك. كانت تحب نقاط ضعفى حيث يمكنها أن تحس أنها ذات نفع لى. وأزاحت «جوستين» كل هذا جانبا، فهى أمور لا تستحق اهتمامها، فقد اكتشف نوعا آخر من القوة. لم أكن أثير اهتمامها فى هذه الخصوصية التى عجزت عن إهدائها إليها، وعجزت هى عن سرقتها منى. هذا ما يقصد بالتملك، أن يكون كلا المحبين فى حرب عاطفية يهدف كل منهما الوصول من خلالها إلى مميزات الآخر. أن يناضل كلاهما للوصول إلى ما تحتويه شخصية الآخر من كنوز. ولكن كيف يمكن لمثل هذه الحرب أن تكون أى شىء غير أن تكون حربا مدمرة وبلا أمل؟

ومع ذلك فإن الدوافع الإنسانية متداخلة ومتشابكة! لقد كانت «ميليسا» بنفسها هى التى ساقت «نسيم» من ملاذه فى عالم الأوهام إلى

تصرف عملى كان يدرك أننا جميعا سنأسف له أسفًا مرًا، إنه موتنا. لقد كانت «ميليسا» وقد سيطرت عليها ذات ليلة أسباب شقائها وتعاستها، هى التى اقتربت من المنضدة التى كان يجلس عليها، وأمامه كأس شمبانيا فارغة، يرقب الكباريه وهو مشغول البال. اقتربت تكسوها حمرة الخجل وهى ترتعش بأهدابها الصناعية، وقالت فجأة ودون أدنى تفكير تلك الكلمات الست: «إن زوجتك لم تعد مخلصة لك».

جملة ظلت تنتفض فى عقله منذ ذلك الحين كما تنتفض سكين ألقى بها لتغرز فى شىء ما. لقد انتفخت ملفاته حقًا منذ فترة طويلة بالتقارير عن تلك الحقيقة البشعة، ولكنها كانت أشبه بتفاصيل صحفية عن كارثة وقعت منذ زمن بعيد فى بلدة لم يزرها من قبل. إنه يجد نفسه الآن فجأة وجهًا لوجه مع شاهد عيان، ضحية، مع إنسانة نجت من المعركة...... وبعث دوى هذه العبارة الواحدة كل قوى مشاعره. وهبت فجأة كل التقارير المدونة على الورق تصرخ فى وجهه.

كانت الحجرة التى ترتدى فيها «ميليسا» ملابسها كريهة الرائحة مكعبة المنظر مليئة بالأنابيب الملتوية التى تصل دورات المياه بالمجارى. كان لديها قطعة واحدة حادة من مرآة مشروخة ورف صغير مغطى بالورق الأبيض الذى توضع فوقه كعكات الأفراح. هنا كانت تضع خليط المساحيق وأقلام الزينة والتى كانت تسىء استخدامها بصورة مخيفة.

فى هذه المرآة ظهرت صورة «سليم» وهى ترتعش. ألسنة اللهب الراقصة كشبح من العالم السفلى. تكلم بلهجة قاطعة مقلدًا لهجة سيده، وأحست «ميليسا» فى ذلك الصوت بالقلق الذى يحسه

السكرتير نحو الآدمى الوحيد الذى يعبده عبادة حقيقية والذى كان يستجيب لما يعانيه من قلق كما يستجيب جهاز الاختبار.

وأحست «ميليسا» بالخوف الآن. فقد كانت تعرف أن الإهانة الموجهة إلى كبير من الكبراء، يمكن بمعايير المدينة، أن تؤدى إلى عقابها بسرعة وفظاعة. وأصابها الذعر لما فعلت وأخذت تقاوم رغبة ملحة فى البكاء انتابتها وهى تلتقط رموشها الصناعية بأصابع مرتعشة. لم يكن أمامها من وسيلة ترفض بها الدعوة. فارتدت أفضل ثيابها البالية وحملت ما تعانيه من إجهاد كصرة ثقيلة وتبعت «سليم» إلى السيارة الضخمة التى كانت تقف فى الظلام الداكن. وساعدها فى أن تركب إلى جوار «نسيم». وسارت العربة بطيئة فى ذلك المساء المبهم الداكن من أمسيات «الإسكندرية» التى لم تعد لفرط ذعرها تتعرف عليها. ورأوا البحر وقد تحول إلى ياقوت أزرق ثم استدارت السيارة إلى داخل المدينة تجتاز الأحياء القذرة المكتظة متجهين نحو «مريوط» وأكوام خبث المعادن التى تشبه القطران عند «المكس»، حيث أزاحت كشافات السيارة الأمامية بضوئها الشديد طبقات الظلام طبقة وراء طبقة، كاشفة عن مشاهد محدودة من الحياة المصرية الصميمة، سكير يغنى، شخص يركب بغلاً ويهرب من «هيرودوت» ومعه طفلان كشخصية من شخصيات الإنجيل، حمال يفرز أكياسه، إنها تمر فى سرعة وخفة من يوزع ورق اللعب.

وتابعت «ميليسا» تلك المناظر المألوفة بعاطفة جياشة فوراءها كانت ترقد الصحراء بما فيها من فراغ يطن كما تطن محارة البحر. ولم يتكلم رفيقها طوال هذا الوقت ولم تجرؤ هى على أن تغامر إلى حد النظر فى اتجاهه.

والآن وقد بدأت تظهر خطوط الكثبان الرملية القاطعة اللامعة

كالصلب فى ضوء القمر، أوقف «نسيم» السيارة وأخذ يتحسس جيبه بحثًا عن دفتر شيكاته وهو يقول فى صوت مرتعش، وقد فاضت عيناه بالدموع: «كم تطلبين ثمنًا لصمتك» واستدارت نحوه، فرأت لأول مرة الرقة والأسى المرتسمين على ذلك الوجه الأسمر، وأحست أن خجلاً طاغيًا قد حل محل ما انتابها من خوف، ورأت فى تعبير وجهه الرغبة فى صنع الخير والتى لا يمكن أن تجعل منه عدوًا لأمثالها. فوضعت يدًا تحمل شعورها بالهيبة فوق ذراعه وقالت: «إننى أحس بالخجل الشديد، أرجوك أن تسامحنى. لم أكن أدرى ما كنت أقول». وطغى عليها ما كانت تعانيه من إرهاق حتى إن عواطفها التى كادت تجهش بالبكاء تحولت الآن إلى تثاؤب. وأخذا ينظران إلى بعضهما البعض بروح جديدة وقد أدرك كل منهما براءة الآخر. وقد بدا عليهما للحظة أنهما قد أحبا بعضهما البعض، بعد هذا الارتياح الخالص الذى أحسا به.

وعادت العربة تسير، واستعادت سرعتها مرة أخرى كما استعاد «نسيم» و«ميليسا» صمتهما، وسرعان ما كانا يقطعان الصحراء فى سرعة نحو بريق النجوم اللامع. وأفق صبغته الأمواج المزمجرة المرتطمة بالشاطئ بالسواد. ووجد «نسيم» نفسه وإلى جواره تلك المخلوقة الغريبة النعسانة، يفكر مرة وأخرى:

«الحمد لله أننى لم أكن عبقريًا، فالعبقرى لا يأتمن أحدًا على أسراره».

ومكنته النظرات التى كان يتلصص بها عليها من أن يدرسها، وأن يدرسنى من خلالها. ولا شك أن جمالها قد أقلقه وجرده من أسلحته، كما فعل بى من قبل، لأنه وصفه فيما بعد بأنه جمال يملأ المرء بشعور رهيب، جمال وجد ليغدو هدفًا لقوى التدمير. وأصابته رجفة عندما

تذكر فكاهة كتبها «بورسواردن» وقد ظهرت فيها شخصيتها لأنه كان قد لقيها كما لقيها «نسيم»، في نفس الكبارية المبتذل، غير أنها في تلك الأمسية كانت تجلس في صف من الراقصات المضيفات اللواتي يبعن بطاقات الرقص. وأخذها «بورسواردن» الذي كان سكران سكراً شديداً إلى الطابق الأرضي، وبعد فترة من الصمت خاطبها بطريقته الحزينة الآمرة، متسائلاً: «كيف تحمين نفسك في مواجهة الوحدة؟» وتطلعت إليه «ميليسا» بعين مفعمة بكل ما تحمله تجربتها من صدق وأجابته في رقة: «سيدي، إنني الوحدة ذاتها». وكان لهذه العبارة أثرها العميق في نفس «بورسواردن» حتى إنه ظل يذكرها ويرددها لأصدقائه فيما بعد، مضيفاً إليها، «وفكرت فجأة بيني وبين نفسي، هناك توجد امرأة يمكن أن يتدله المرء في حبها». غير أنه لم يغامر بزيارتها مرة أخرى، فقد كان يسير سيراً حسناً في الكتاب الذي يؤلفه، كان يعرف أن اشتعال تلك العاطفة إنما هو خدعة يمارسها عليه أضعف ما في طبيعته. كان يكتب عن الحب في ذلك الوقت لا يريد أن تشوش الأفكار التي كونها عن هذا الموضوع. (وقد جعل إحدى شخصيات كتابه تصرخ قائلة «ليس في مقدوري أن أقع في الحب، لأنني أنتمي إلى تلك الجمعية السرية القديمة، جمعية المهرجين». وتحدث في مكان آخر عن زواجه فكتب «لقد وجدت أنني في الوقت الذي كنت أسيء فيه إلى غيري كنت أسيء فيه أيضاً إلى نفسي أما الآن وأنا بمفردي فليس لديَّ غير نفسي أسيء إليها. يا فرحتي!»).

كانت «جوستين» لا تزال تلح عليَّ، ترقب وجهي وأنا أصنف تلك المشاهد الخارقة في عقلي. وكررت في صوت أجش: «سوف تنتحل عذراً ما، لن تذهب إلى هناك». لقد ألح «سليم» على هذه النقطة بصورة خاصة، وندت عنه شهقة جافة وهو يغادر الحجرة. وبدا لي أنه

من المستحيل أن أعثر على مخرج من هذه الورطة. فقلت لها «كيف يمكنني أن أرفض»؟

«كيف يمكنك أن ترفض»؟

وانطلقت السيارة بـ «نسيم» و«ميليسا» عبر ليل الصحراء الدافئ الهادئ وقد غمرها شعور مفاجئ بالتعاطف كل نحو الآخر، ورغم ذلك، ظلا صامتين. وأبطل «سليم» آلة السيارة عبر المنحدر الأخير قبل «برج العرب» وترك السيارة تنزلق بعيداً عن الطريق وقال لها: «تعالى إننى أود أن أريك قصر «جوستين» الصيفى».

وسارا على الطريق نحو البيت الصغير وقد تشابكت أيديهما. كان الحارس نائمًا غير أن المفتاح كان معه، وفاحت من الحجرات رائحة الرطوبة والأماكن الخالية من السكان، غير أنها كانت مليئة بالضوء المنعكس عن الكثبان الرملية البيضاء. ولم يمض وقت طويل حتى كان قد أشعل نارا من الشوك فى المدفأة الكبيرة، وأخرج عباءته القديمة من الدولاب وارتداها ثم جلس أمام النار وقال: «والآن أخبرينى يا «ميليسا»، من الذى أرسلك لتعذيبى؟» لقد قال ذلك على سبيل الدعابة ولكنه نسى أن يضحك، وغمر الخجل «ميليسا» فغدا لونها قانيًا وأخذت تعض شفتها. ولفترة طويلة جلسا هناك يستمتعان بضوء النار والشعور بأنهما يتقاسمان شيئًا مشتركا، يتقاسمان يأسهما.

أطفأت «جوستين» سيجارتها ونهضت فى بطء من الفراش. ثم أخذت تسير فى بطء فوق السجادة جيئة وذهابًا. لقد تغلب عليها الخوف وكان فى وسعى أن أرى أنها قد بذلت جهداً حتى تتغلب على حاجتها للانفجار على طريقتها الخاصة. قالت تحدث المرآة: «لقد فعلت أشياء كثيرة فى حياتى، ربما كانت أشياء شريرة، ولكنى لم أقم

بهـا وأنا غـافلة، أو دون هدف. لقـد أخـذت الأعـمـال دائمًـا كـأنـهـا رسالات، رغبات يحملها الماضى للمستقبل، رغبات تدعو المرء كى يتعرف على ذاته. هل كنت على خطأ؟ هل كنت على خطأ؟». لم تكن توجه الخطاب إلىّ الآن ولكنها كانت توجهه إلى «نسيم». إنه لأمر أكثر سهولة أن تتوجه المرأة إلى عشيقها بالأسئلة التى تنوى إلقاءها على زوجها، ثم استمرت بعد لحظة: «أما بالنسبة للموتى، فلقد اعتقدت دائمًا أن الموتى هم الذين يعتبروننا نحن أمواتًا. لقد لحقوا هم بالأحياء بعد تلك الجولة القصيرة فى وجود وهمى». وأخذ «حميد» يتقلب الآن، فاستدارت فى ذعر إلى ملابسها. وقالت فى حزن «إذن فأنت ترى ضرورة ذهابك، وكذلك أنا. إنك لعلى صواب، يجب أن تذهب». وأضافت وقد استدارت إلى المرآة لتكمل زينتها «شعرة بيضاء أخرى». وأخذت تتأمل ذلك الوجه الشرير المزين بأحدث الأساليب.

وأخذت أرقبها وهى واقفة هكذا وقد التف حولها شعاع رفيع من أشعة الشمس كان يخترق زجاج النافذة. لم أستطع أن أمنع نفسى من التفكير مرة أخرى فى أنه لا يوجد شىء يمكنه أن يتحكم فى بصيرتها أو بغير تلك البصيرة التى نمت وتطورت من طبيعة تغذت على تأمل النفس وفحصها، لا تعليم ولا مصادر عقلية لتقاتل رغبات قلب عاصف. كانت موهبتها كتلك الموهبة التى يعثر المرء عليها بين الحين والحين عند قارئات المستقبل الجاهلات.

لقد كان كل ما يمت إلى الفكر فى «جوستين» مقتبسًا، حتى ملاحظتها عن الموتى كانت مقتبسة من كتاب «عادات»، لقد انتقت من الكتب كل ما يمكن أن يكون هامًا وذا دلالة، لا عن طريق القراءة ولكن عن طريق الاستماع إلى أحاديث «بلتازار» و«الأرناؤوطى»

و«بورسواردن» التى لا نظير لها فى هذه الموضوعات. كانت تلخيصًا متحركًا للكتاب والمفكرين الذين أحبتهم أو أعجبت بهم، ولكن هل هناك ما تستطيع أية امرأة ذكية أن تتفوق به عليها؟

وأخذ «نسيم» الآن راحتى «ميليسا» بين راحتيه (فرقدتا هناك هادئتين ساكنتين كالرقائق) وأخذ يوجه إليها الأسئلة عنى فى لهفة يمكن أن توحى بأنى محور اهتمامه العاطفى وليست «جوستين». إن المرء يحب دائمًا الشخص الذى اختارته حبيبته حبيبًا لها. إننى لا أبخل بأى شىء حتى أتمكن من معرفة ما قالته له. وقد نالت بنقائها وحذرها غير المنتظر من عواطفه. إن كان ما أعرفه هو أنها اختتمت حديثها بطريقة غبية وهى تقول: «وحتى الآن فإنهما غير سعيدين: إنهما يتشاجران مشاجرات مخيفة: لقد أخبرنى «حميد» بذلك عندما التقيت به آخر مرة». وبالتأكيد فإن «ميليسا» كانت على قدر من الخبرة يجعلها تدرك أن تلك المشاجرات التى تسمع عنها إنما هى لعب حبنا. لكننى أعتقد أنها لم تر فى ذلك غير أنانية «جوستين»، غير الافتقار الرهيب للاهتمام بالآخرين والذى كانت تتصف به حبيبتى المستبدة. كانت تفتقر إلى السماحة افتقاراً تامّا، وبذا افتقدت الأساس الوحيد الذى يمكن أن تقيم عليه «ميليسا» فكرة طيبة عنها. لم تكن فى الحقيقة إنسانية النزعة، وهذا شأن كل من يتملكه حبه لذاته. ماذا يمكن أن أجده مميزًا لها؟ لقد ساءلت نفسى هذا السؤال للمرة الألف. ومع ذلك فإن «نسيم» عندما بدأ فى اكتشاف «ميليسا» وحبها كامتداد لـ «جوستين»، قد حدد بدقة الحالة التى تعيشها الإنسانية، وكانت «ميليسا» تبحث فيه عن ميزات تتصور أننى قد عثرت عليها فى زوجته. لقد كنا نحن الأربعة نكمل بعضنا البعض دون أن ندرى، كنا قد ارتبطنا معًا بطريقة معقدة. («نحن الذين ارتحلنا كثيراً وأحببنا

كثيراً: نحن الذين، لن أقول عانينا لأننا قد حققنا اكتفاءنا الذاتى على الدوام من خلال المعاناة، ولكننى أقول إننا وحدنا نعرف قدر اختلاط العواطف الرقيقة، ونفهم الصلة الوثيقة بين الحب والصداقة». («عادات»).

إنهما يتبادلان الحديث الآن كما لو كانا أخًا وأختًا يواجهان مصيراً محتومًا، إن كلاً منهما يجد فى الآخر شعور الارتياح الذى يحل بهؤلاء الذين يجدون شخصًا يشاركهم عبء همومهم التى لم يعترفوا بها لأحد. وأخذ يتحرك فى دخيلة كل منهما فى خلال كل هذا التعاطف ظل غير متوقع مجرد طيف من الشهوة، إنه ربيب الاعتراف والخلاص. كان ينذر، على نحو ما؛ بعلاقة الحب التى كانت ستنشأ فيما بينهما، والتى كان قبحها أقل بكثير من قبح علاقتنا نحن، أنا و«جوستين». إن الحب يغدو أكثر صدقًا إذا كان مصدره التعاطف لا الشهوة، لأنه لا يترك حينئذ أى جراح. كان الفجر قد أشرق عندما نهضا من حديثهما، وقد تصلبت وتقلصت عضلاتهما لأن النار كانت قد انطفأت منذ وقت طويل، وسارا إلى السيارة عبر الرمال الرطبة، يتأملان ضياء الفجر بلونه القرمزى الباهت. لقد عثرت «ميليسا» على صديق وحام يرعاها، أما عن «نسيم» فقد تبدل حاله، إن الشعور بتعاطف جديد قد مكنه، بصورة سحرية، من أن يستعيد نفسه مرة أخرى، أى يغدو رجلا فى وسعه أن يقدم على عمل ما (فى وسعه أن يقتل عشيق زوجته إن أراد!).

وأخذا يرقبان، بينما كانت السيارة تنطلق بهما على الشاطئ المحلى الرائق المياه، خيوط الشمس الممتدة من أفق إلى أفق عبر البحر المتوسط الداكن الذى لا تقيده حدود والذى تلمس أطرافه «قرطاجنة» المقدسة فى نفس الوقت الذى تلمس فيه «سلاميس» فى «قبرص».

وأبطأ «نسيم»، مرة أخرى عند انحدار الطريق وسط الكثبان الرملية نحو الشاطئ، واقترح بطريقة لا إرادية أن يسبحا. لقد انتابته فجأة، وقد تغير عن ذى قبل، رغبة فى أن تراه «ميليسا» عاريًا، فى أن تطرى جمال جسده الذى حجب طويلاً، كبذلة جيدة التفصيل منسية فى دولاب الخزين.

وخاضا فى المياه الباردة وهما عاريان يضحكان وقد أمسك كل منهما بيد الآخر، يحسان ضوء الشمس الرقيق يتوهج على ظهريهما. كان هذا الصباح يشبه أول صباح صاحب ميلاد العالم. ونضت «ميليسا» عن نفسها وهى تخلع ملابسها آخر ما بقى من أثقال الجسد، وغدت الراقصة التى كانتها على حقيقتها، فقد كان العرى يمنحها دائمًا قدرتها على الانطلاق والاتزان، وهى مهارات كانت تفتقد إليها فى الكباريه.

ورقدا معًا لفترة طويلة فى صمت تام، يبحثان عبر مشاعرهما الحالكة عن طريق للمستقبل. وأدرك أنه قد نال استجابتها المباشرة وأنها قد غدت محظيته فى كل شىء.

وعادا سويًا إلى المدينة، يحسان السعادة والحرج فى نفس الوقت، فقد شعر كلاهما بنوع من الفراغ كامن فى أعماق سعادتهما. ومع ذلك فقد تمهلا حيث كان كل منهما مترددًا فى تسليم الآخر إلى نوع الحياة التى كانت فى انتظارهما، وأبطأت السيارة كذلك، وطال صمتها بين ما كان يتبادلانه من تودد وتحبب.

وأخيرًا تذكر «نسيم» مقهى متهدمًا فى المكس حيث يمكن أن يجد المرء بيضًا مسلوقًا وقهوة، ومع أن الوقت كان مبكرًا إلا أن صاحب المقهى اليونانى النعسان كان مستيقظًا وأعد لهما المقاعد تحت شجرة تين يابسة فى فناء خلفى ملىء بالدجاج و«زبلها» القليل. وارتفعت حولهما

المصانع والأرصفة المقامة من الحديد المضلع ولم يكن للبحر وجود إلا فى الرطوبة اللزجة ورائحة الحديد المحمى والقطران النفاذة.

وأخيراً أنزلها عند قمة أحد الشوارع التى ذكرت له اسمها وودعها بطريقة تحمل فى مظهرها طابع الجفاف، لعله كان يخشى أن يراه معها واحد من موظفيه. (إن هذا التعليق الأخير إنما هو حدس من جانبى إذ إن كلمتى «جفاف» و«تحمل فى مظهرها» التى جاءت فى يومياته، تبدو إلى حد ما أنها فى غير مكانها) وعادت ضجة المدينة القاسية تتدخل، تشدهما إلى مشاعرهما وهمومهما الماضية. أما من ناحيتها فقد تركته وهى تتثاءب يداعب النوم جفنيها وقد استعادت طبيعتها كما كانت، لتميل إلى الكنيسة اليونانية الصغيرة وتشعل شمعة للقديس. ورسمت الصليب على نفسها من اليسار إلى اليمين كعادة الأرثوذكس، وأزاحت إلى الوراء خصلة من شعرها وهى تنحنى على الأيقونة، تتذوق، فى طعم النحاس الأصفر، وهى تقبلها، كل السلوى والعزاء الذى كانت تحسه وهى تمارس عادة منسية من عادات صباها. واستدارت فى إعياء لتجد «نسيم» يقف أمامها. كان شاحبًا شحوب الموتى يحملق فيها بفضول يلتهب رقة ولطفًا. وللحال أدركت كل شىء. وتعانقا وقد حلق فوقهما نوع من الحزن، لم يتبادلا القبل. إلا أن كلا منهما كان يضغط جسده إلى جسد الآخر، وفجأة أخذ «نسيم» يرتعش من الإعياء، وبدأت أسنانه تصطك. وسحبته «ميليسا» إلى كرسى أحد الشمامسة حيث جلس ذاهلا بضع لحظات، يجاهد كى يتكلم، يمر بيده على جبهته كشخص يفيق من الغرق. لم يكن يفعل هذا لأن لديه ما يقوله لها ولكن شعوره بأنه قد فقد النطق جعله يخشى أن يكون ما يعانيه الآن نوبة من نوبات المرض. وقال فى صوت كالنقيق: «لقد تأخر الوقت كثيراً، فالساعة الآن قد أشرفت على السادسة والنصف». ونهض وهو يضغط راحتها إلى وجنته الخشنة: وكرجل

عجوز أخذ يتحسس طريقه إلى الخارج عبر الأبواب الضخمة إلى ضياء الشمس، وقد تركها جالسة هناك تتابعه بنظراتها.

لم يبد ضياء الفجر الباكر لـ «نسيم» جميلا فى أى يوم من الأيام كما بدا الآن. ولاحت له المدينة متلألئة كحجر من الأحجار النفيسة. ورنت أصوات التليفونات الحادة التى كانت تملأ الأبنية الحجرية الضخمة حيث يعيش رجال الأعمال، رنت فى أذنيه وكأنها أصوات طيور آلية ضخمة ولودة كانت تتلألأ فى شباب خالد فرعونى. وكانت أشجار الحديقة قد اغتسلت بمطر الفجر النادر. كانت تغطيها حبات الماء اللامعة كالماس. وبدت كقطط كبيرة ناعمة تزين نفسها.

وسبح به المصعد إلى الطابق الخامس، وحاول عدة محاولات مرتبكة حتى يبدو لائق المظهر (تحسس الشعر الأسود الخشن على خده وأعاد إحكام ربطة عنقه) وتأمل «نسيم» صورته فى المرآة الرخيصة متسائلاً، وقد أثار المدى الجديد للمشاعر والمعتقدات التى منحتها له تلك المشاهد الوجيزة حيرته. غير أن المعنى الذى انتفض عن تلك الكلمات الست التى أسكنتها «ميليسا» فى أعماقه، كان يكمن تحت كل شىء، ينبض بالألم كسن أو إصبع أصابه التلف. وأدرك «نسيم» وهو داخل أن «جوستين» قد ماتت بالنسبة إليه، تحولت من صورة تعيش فى عقله إلى نقش، إلى قلادة يستطيع المرء أن يضعها على قلبه أبد الدهر. إنه لأمر قاس على النفس أن يترك المرء حياته القديمة إلى حياة جديدة، فكل امرأة حياة جديدة، متماسكة، متكاملة ولا نظير لها. لقد غدت فجأة شخصية باهتة. لم يعد يرغب فى امتلاكها أكثر من ذلك، بل غدا يرغب فى أن يحرر نفسه منها، من امرأة قد تحولت إلى حالة معينة.

دق الجرس ينادى «سليم»، ثم أخذ يملى عليه، بعد ما جاء، بعضًا

من الخطابات الكئيبة الخاصة بالأعمال، كان يملى بطريقة هادئة أثارت دهشة «سليم» حتى إن يده ارتعشت وهو يكتبها بالاختزال بطريقته الحريصة الدقيقة. وبدا «نسيم» مخيفًا لـ «سليم» فى تلك اللحظة كما لم يبد من قبل، كان جالسًا إلى مكتبه الضخم المصقول وقد وضع أمامه حشدًا لامعًا من التليفونات.

ولم يلتق «نسيم» بـ «ميليسا» بعد ذلك الحدث، إلا أنه كتب لها خطابات طويلة مزقها وألقى بها فى دورة المياه. لقد بدا أنه من الضرورى له، لسبب وهمى، أن يفسر ويبرر لها تصرفات «جوستين»، ولذا ابتدأ كل خطاب من تلك الخطابات بمقدمة يعرض فيها ماضى «جوستين» وماضيه. كان يحس أنه بدون تلك الديباجة، يستحيل عليه تمام الاستحالة أن يتحدث عن الطريقة التى دخلت بها «ميليسا» حياته وسلبته لبه. كان بالطبع، يدافع عن زوجته، لا فى مواجهة «ميليسا» التى لم تنطق بأى نقد ضدها (ما عدا تلك العبارة) ولكن فى مواجهة كل الشكوك الجديدة التى برزت بشكل حاد أمامه بعد تجربته مع «ميليسا»، تمامًا كما ألقت تجربتى مع «جوستين» الضوء على علاقتى بـ «ميليسا» وأعادت تقييمها بالنسبة إلىَّ، كذلك كان «نسيم» يرى وهو ينظر فى عينى «ميليسا»! الرماديتين «جوستين» جديدة لا يتطرق الشك إليها تولد هناك فى أعماقها.

وشعر الآن بالانزعاج، فقد أحس المدى الذى يمكن أن يصل إليه فى كراهيته لها. وأدرك الآن أن الكراهية ما هى إلا حب لم يتحقق. وأحس الحسد عندما تذكر الطريقة، ذات الاتجاه الواحد التى يفكر بها «بورسواردن» الذى كتب على الصفحة الأولى لكتابه الذى أعطاه لـ «بلتازار» تلك الكلمات الساحرة.

«بورسواردن» والحياة.

لا تنس أن: الطعام للأكل

والفن للفن

والنساء للـ. . . .

انتهى.

ر. ا. ب.

عندما التقيا فى المرة التالية، تحت ظروف مختلفة تمام الاختلاف. . . . لكنى لا أملك الشجاعة لأكمل العبارة التى بدأتها.

لقد ارتَدْت أعماق «ميليسا» بعقلى وقلبى إلى أبعاد كافية ولن أحتمل استعادة تذكر ما عثر عليه «نسيم» فيها، صفحات غطتها الجمل المشطوبة والتعديلات. صفحات مزقتها من يومياته وأعدمتها. الغيرة الجنسية هى أشد عواطف الحيوانات غرابة، وفى وسعها أن تأوى فى أى مكان، حتى فى الذاكرة. إننى أدير وجهى بعيدًا عن فكرة قبلات «نسيم» الخجلة، بعيداً عن قبلات «ميليسا» التى لم تختر فى «نسيم» إلا أقرب الشفاه إلى شفتى.

وانتقيت بطاقة من رزمة جديدة من البطاقات الكرتونية التى كنت قد أقنعت أحد عمال الطباعة المحليين بأن يضع عليها اسمى وعنوانى بعد أن ألححت عليه كثيراً وبطريقة مخجلة، ثم تناولت قلمى وكتبت.

السيد. . يقبل بسرور.

دعوة السيد. . الكريمة لصيد.

البط فى بحيرة «مريوط».

وبدا لى الآن أنه فى وسع المرء أن يتعلم بعض الحقائق الهامة عن السلوك الإنسانى.

* * *

وأخيراً انتهى الخريف إلى ركب الشتاء الواضح المعالم. وأمواج البحر العالية تجلد حاجز الصخور البيضاء على طول الكورنيش. والطيور المهاجرة تتكاثر على طول الآماد الضحلة لمياه «مريوط»، التى تتراوح بين اللون الذهبى والرمادى، لون الشتاء.

وتلتئم الجماعات مع الغسق عند بيت «نسيم»، مجموعات هائلة من السيارات وأجمات الصيد. من هنا يبدأ ملء وتفريغ السلال المصنوعة من الصفصاف المجدول وأكياس البنادق، ويصحب ذلك تقديم الكوكتيلات والسندوتشات. وتعد بذلات الصيد. ويقارن الحاضرون بين أنواع البنادق والخرطوش، حديث لا ينفصل عن حياة الصياد، إنه يبدأ الآن متشعبًا، تافهًا، حكيمًا. وينتهى الغسق الخالى من القمر بلونه المائل للصفرة، وتأخذ أشعة الشمس فى الانحسار ببطء إلى أعلى نحو سماء المساء بلونها البنفسجى الفاتح الشفاف. إنه طقس رائق ككوب الماء، يبعث فى النفس النشاط.

ونسير أنا و«جوستين» فى نسيج همومنا التى تشبه بيت العنكبوت، كأناس قد افترقوا بالفعل عن بعضهم البعض. إنها ترتدى البذلة المخملية المعتادة، السترة بجيوبها الطويلة المائلة وقبعة كقبعات التلميذات، من القطيفة الناعمة وقد شدت على رأسها حتى حاجبيها وأحذية جلدية طويلة تصل إلى ما فوق الركبة. لم نعد ننظر إلى بعضنا البعض مباشرة، ولكننا تبادلنا حديثًا أجوف لا علاقة له بأمورنا الشخصية. كنت أعانى من صداع يشق الرأس. وألحت علىَّ لآخذ

بندقيتها الزائدة عن حاجتها، بندقية خفيفة جميلة عيار ١٢ من صناعة «بوردى»، بندقية نموذجية لمن كانت عينه ويده ينقصها المران مثل عينى ويدى.

هناك ضحك وتصفيق حيث تسحب القرعة لتكوين المجموعات المختلفة. علينا أن نحتل مواقع متفرقة عن بعضها البعض بصورة كبيرة حول البحيرة، وكان على هؤلاء الذين أصابتهم القرعة فى المواقع الغربية، أن يقوموا بجولة طويلة على طريق احتياطى عبر «المكس» والمناطق الصحراوية. وسحب قادة المجموعات على التوالى، قصاصات الورق من القبعة، وقد كتب على كل قصاصة منها اسم واحد من الضيوف. كان «نسيم» قد سحب بالفعل ورقة عليها اسم «كابوديستريا» الذى كان يرتدى سترة جلدية قصيرة أنيقة أسورة أكمامها من القطيفة، وبنطلونًا قصيرًا من الجبردين البنى المائل للصفرة وجوربًا منقوشًا بالمربعات. كان يرتدى قبعة قديمة من الصوف الخشن، بها ريشة ديك برى، وقد تزين بأحزمة مليئة بالخرطوش كانت تتدلى من فوق كتفه. ثم سحب اسم «رالى» والجنرال اليونانى العجوز، بجيوب عينيه الرمادية المنتفخة وبنطلونه القصير الملىء بالرقع، ثم «باليس» القائم بالأعمال الفرنسى والذى يرتدى سترة من جلد الخراف، وأخيرًا أنا.

وانضمت «جوستين» و«بومبال» إلى مجموعة اللورد «إرول». لقد اتضح الآن أننا يجب أن ننفصل. وفجأة ولأول مرة أحس بخوف حقيقى بينما أراقب بريق عينى «نسيم» الذى لا معنى له. ونحتل أماكننا المختلفة فى أجمات الصيد. ويعالج «نسيم» أشرطة جراب بندقية ثقيل مصنوع من جلد الخنزير. كانت يداه ترتعشان. وبانتهاء كل الإعدادات

تبدأ السيارات بزئير آلاتها، وعند تلك الإشارة تندفع مجموعة من الخدم تركض من المنزل الكبير بأكواب الشمبانيا ليقدموا لنا كأس الانطلاق. ولقد مكنت هذه الضجة «جوستين» من أن تجىء إلى سيارتنا بحجة أنها تناولنى حزمة من الخرطوش الذى لا يصدر عنه دخان. وأن تضغط ذراعى بحنان وأن تركز علىّ لمدة نصف دقيقة هاتان العينان السوداوان المعبرتان، واللتان تلمعان الآن بتعبير يكاد المرء يخطئ فهمه على أنه دليل الارتياح. وجاهدت أن أجعل شفتى تبتسمان.

وتحركنا نسير فى مثابرة و«نسيم» يجلس إلى عجلة القيادة لنلحق بآخر أشعة الشمس الغاربة بينما نغادر المدينة لننطلق على طول الكثبان الرملية المنخفضة نحو «أبو قير». كان الجميع يتمتعون بمعنويات عالية، فـ «رالى» لا يكف عن الثرثرة، و«كابوديستريا» يعمل على تسليتنا بسرد نوادر والده الأسطورى المجنون (لقد كان أول عمل أقدم عليه عندما أصابه الجنون أن رفع دعوى ضد ولديه يتهمهما فيها بأنهما قد ولدا عن عمد وسابق قصد من جانبهما بطريقة غير شرعية) كان يرفع إصبعه من وقت لآخر ليلمس الضمادة القطنية التى كانت تمسك بها عصابة سوداء كى تحتفظ بها فى موضعها. كيف حدث أنى لم أتعرف فى «كابوديستريا» على الرجل الذى صنع كل تعاسات «جوستين»، الرجل ذى العصابة السوداء؟ وأخرج «باليس» قبعة قديمة مصنوعة من جلد الغزال، لها حافتان عريضتان كالأذنين مما جعله يبدو كأرنب فرنسى فى حالة تفكير عميق. ومن وقت لآخر كانت تلتقى عيناى بعينى «نسيم» فى مرآة العربة فيبتسم.

كانت العتمة قد خيمت عندما وصلنا إلى شواطئ البحيرة

والطائرة المائية القديمة تهمهم وتزأر فى انتظارنا. كانت ممتلئة بأكوام من الشراك والخدع. وجمع «نسيم» لنفسه زوجًا من بنادق صيد البط الطويلة وركائز ثلاثية القوائم قبل أن يلحق بنا فى القارب القليل العمق، المسطح القاع، لننطلق عبر البركة الموحشة بغابها المتشابك إلى المأوى الخرب الذى سنقضى فيه الليلة. واختفت كل الآفاق بشكل فجائى بينما نشق القنوات المعتمة بمركبنا الشديد الضوضاء، نزعج زوار البركة من الطيور بزئير آلاتنا، والغاب يعلو فوق رءوسنا. وهنا وهناك ترتفع قمم نبات الحلفا من الجزر رغم إخفاء الماء لها. وينفتح أمامنا مرة أو مرتين ممر مائى طويل ضيق، ونلمح زوبعة من الطيور، البط البرى يجرجر أغشية أرجله عبر سطح الماء الساكن. وبالقرب منا هنا وقفت الطيور الشرهة فى متناول يدنا تتطلع إلينا فى فضول ومناقيرها الطويلة، التى استعبدتها شهيتها المفتوحة، مليئة بالحلفا. وحولنا الآن، بعيدًا عن الأنظار تتهيأ مستعمرات البركة المكتظة لقضاء الليل. وعندما توقفت آلات الطائرة المائية، امتلأ الصمت فجأة بأنين وطنين البط.

وتهب ريح خفيفة نشطة تغضن سطح الماء حول الكوخ الخشبى الصغير الذى ينتظرنا فى شرفته حملة البنادق والذين يقومون بحشوها. وهبط الظلام فجأة، وأصوات البحارة خشنة زاهية مرحة. وحملة البنادق مجموعة وحشية الطباع يركضون من جزيرة إلى أخرى بنداءاتهم الحادة، وقد شمروا جلابيبهم وشدوها حول وسطهم، غير مبالين بالبرد. إنهم يبدون سود البشرة ضخام الأجساد وكأنهم قد نحتوا من الظلام. إنهم يشدوننا واحدًا بعد الآخر إلى الشرفة ثم ينطلقون فى القوارب القليلة العمق المسطحة القاع لينصبوا كل عدتهم من الشراك والخدع بينما نتجه نحن إلى الحجرة الداخلية حيث تضىء

بالفعل مصابيح بترولية. وتأتى من ناحية المطبخ الصغير رائحة الطعام التى تبعث الطمأنينة فى نفوسنا والتى نستنشقها فى استحسان، بينما نتخلص من بنادقنا وأحزمة الخرطوش، ونركل أحذيتنا بعد خلعها. وينغمس الرياضيون الآن فى لعب الطاولة أو الحديث عن الصيد، ذلك الحديث الذى يستغرق الرجال ويدخل البهجة على نفوسهم أكثر من أى حديث آخر فى الدنيا. و«رالى» يحك دهن الخنزير فى حذائه القديم الملىء بالرقع. إن الطبيخ المسبك رائع والنبيذ الأحمر قد جعل مزاج الجميع فى حالة طيبة.

وعلى أى حال، فى التاسعة، يستعد غالبية الحاضرين للنوم، ونسيم منهمك فى الظلام فى الخارج يلقى بآخر تعليماته لحملة البنادق ويضبط المنبه القديم الصدئ ليدق فى الثالثة. و«كابوديستريا» وحده لا يبدو عليه أى ميل للنوم. إنه يجلس وكأنما قد غرق فى تأملاته، يرشف نبيذه ويدخن سيجاره المفتوح الطرفين. ونتحدث لفترة من الزمن فى مسائل تافهة، وعلى حين غرة يندفع «كابوديستريا» فى نقد كتاب «بورسواردن» الثالث والذى ظهر فى المكتبات منذ فترة وجيزة. إنه يقول: «إن ما يدهشنى هو أنه يقدم مجموعة من القضايا الروحية وكأنها أشياء عادية، إنه يصورها من خلال شخصياته. إننى أفكر فى شخصية «بار» الرجل الشهوانى. إنه يشبهنى إلى حد كبير. إن تبريره لحياة الإنسان الشهوانى لشىء جيد إلى درجة خيالية، كتلك الفقرة التى يقول فيها: «إن الناس لا يرون فينا غير المظهر الخارجى لحمى الشهوة الحقيرة التى تتحكم فى أفعالنا، ولكن يفوتهم ما يكمن تحت هذا المظهر من رغبة عارمة للجمال. إن المرء يلتقى فى بعض الأحيان بوجه من الوجوه التى يتمنى أن يلتهم ملامحه قطعة فقطعة. حتى مضاجعة الجسد الراقد تحت المرء لا تنهى ما بنفسه أو تمنحه الراحة. ما الذى

يجب عمله مع أناس مثلنا؟». ويتنهد ثم يبدأ فجأة فى الحديث عن «الإسكندرية» فى الأيام الخالية. إنه يتحدث بطريقة جديدة فيها الرقة والإذعان، عن تلك الأيام التى مضت منذ زمن بعيد والتى يرى نفسه يتحرك خلالها كحدث وشاب، بكل هدوء ودون أى عناء. «لم أصل البتة إلى أعماق والدى. كانت نظرته للأمور نظرة لاذعة. ومع ذلك فربما كانت تخفى تلك السخرية نفسًا جريحة. إن الرجل الذى يستطيع أن يقول أشياء سديدة إلى حد أنها تشغل انتباه وذاكرة الآخرين، ليس رجلاً عاديًا، كان يتحدث ذات مرة عن الزواج فقال، «إنهم يقننون اليأس فى الزواج». وقال: «كل قبلة إنما هى إخضاع صد سابق». ولقد صدمنى أن نظرته التى تتلاءم مع الحياة قد تخللها الجنون، وكل ما بقى لى هو ذكرى بعض الأحداث والأقوال المأثورة. والتى أرغب فى أن أترك ورائى قدر ما أستطيع منها».

وأرقد مستيقظًا فى السرير الخشبى الضيق بعض الوقت أفكر فيما كان يقول: الظلام والصمت يلفان المكان خلا صوت «نسيم» السريع فى الخارج وهو فى الشرفة يتحدث إلى حملة البنادق. إننى لا أستطيع أن ألتقط الكلمات. ويجلس «كابوديستريا» فى الظلام مدة من الزمن قصيرة لينهى سيجاره قبل أن يتسلّق ببطء إلى السرير الواقع تحت النافذة. ونام الآخرون بالفعل، الأمر الذى يمكن الحكم عليه من شخير «رالى» الثقيل. وحل الاستسلام محل خوفى مرة أخرى. إننى أفكر الآن وأنا على حافة النوم فى «جوستين» مرة أخرى، أفكر للحظة قبل أن أدع ذكراها تنزلق إلى عالم النسيان الذى لا تسكنه اليوم إلا أصوات بعيدة ناعسة وتأوهات مياه البركة الكبيرة المندفعة. وأستيقظ من لمسة يد «نسيم» الرقيقة وهو يهز كتفى، لأجد الظلام حالكًا كالقطران، لقد خذلنا المنبه فلم يدق. غير أن الحجرة مليئة بأشباح

تتمطى وتتثاءب وتهبط من أسرتها. وكان حملة البنادق قد تكوروا وهم نيام فى الشرفة فى الخارج ككلاب الحراسة. إنهم يشغلون أنفسهم الآن بإشعال مصابيح الزيت، والتى سيضىء وهجها الغريب إفطارنا المتقطع، والمكون من القهوة والسندوتشات. وأهبط درجة المرسى وأغسل وجهى فى مياه البحيرة الثلجية. الظلام المطبق يحيط بنا. والجميع يتكلمون بأصوات خفيضة، وكأنما أثقل عبء الظلام عليهم. دفعات من الريح تبعث الرعشة فى المأوى الصغير المبنى فوق المياه على قوائم خشبية هزيلة.

ويعطى كل منا قارب مسطح القاع وشخص يحمل له البندقية. ويقول «نسيم»: ستأخذ «فرج» معك. إنه أكثر حملة البنادق دربة، كما أنه أكثر من يمكن الاعتماد عليهم. وأشكره. وجه بربرى أسود مكتئب لا يبتسم، تحت عمامة بيضاء متسخة. إنه يتناول حاجياتى ويستدير فى صمت إلى القارب المظلم. وأتسلق القارب وأنا أهمس مودعًا، ثم أجلس. ويدفع «فرج» بالمدرة لتتأرجح بطريقة مرنة، ويسير بنا القارب فى القناة. وفجأة نبحر عبر قلب جوهرة سوداء. المياه زاخرة بالنجوم، هناك «أوريون»، و«العيوق» يرمى بشراراته المتألقة. وظللنا نزحف فى صمت لفترة طويلة فوق صفحة من النجوم تزينها الجواهر، لم يكن هناك من صوت غير صوت المدرة وهى تنغرز فى الطين، ثم صوتها وهى تسحب منه. ثم نستدير فجأة إلى قناة أوسع لنسمع صوت سلسلة من التموجات وهى تدق مقدمة القارب، بينما تصل إلينا نفحات لها طعم الملح من هواء البحر الذى لا يمكن رؤية شاطئه.

تباشير الفجر تلوح بالفعل فى الجو، بينما نعبر ظلام هذا العالم

الضـائع. والآن ترتجف القنوات الموصلة إلى المياه الفسيحة، بأقل النقوش التى تكونها الجزر، ونبتة الحسك، والحلفا والغاب. ويأتى الآن نقيق جماعات البط وصوت النورس الحاد الرفيع عند شاطئ البحر من جميع النواحى. ويزمجر «فرج» كالخنزير ويدير القارب نحو جزيرة قريبة. وتمسك يدى وهى تتحسس فى الظلام، بالحافة الثلجية لأقرب برميل، وأبذل جهداً حتى أتسلقه. كانت الأماكن التى سنحتمى بها مكونة من مجرد زوج من البراميل التى هى ألواح خشبية جافة مربوطة معًا وقد غطتها فروع أغصان الغاب، لتحجبها عن الأنظار. ويمسك «فرج» القارب بثبات بينما أخلصه من عدتى. ولم يعد هناك ما يفعله المرء الآن غير أن يجلس وينتظر الفجر الذى يشرق فى بطء فى مكان ما، الفجر الذى يولد من هذا الظلام الأسود الأخرس.

الجو الآن قارس البرد حتى إن معطفى الثقيل لم يعد يدفئنى بما فيه الكفاية. وقد أخبرت «فرج» بأنى سأقوم بنفسى بحشو بندقيتى، فأنا لا أرغب فى أن تكون بندقيتى الإضافية والخرطوش الموجود فى البرميل المجاور، فى متناول يده، ويجب أن أعترف بأننى كنت أحس الخجل وأنا أفعل ذلك، غير أن هذا التصرف قد جعل أعصابى هادئة. ويومئ بوجه خال من التعبير، ويقف بعيداً بالقارب فى دغل الغاب القريب، وقد بدا متنكراً مثل خيال المآتة. إننا ننتظر الآن وقد ولينا وجهينا ننظر إلى أبعد آفاق البحيرة، وبدا كأن قرونًا تمر.

وفجأة يشد أنظارى عند نهاية قبة السماء الهائلة فاصل شاحب مرتعش يبدو كحاجز من الأزهار الصفراء ينمو بالتدريج إلى شعاع يسقط فى بطء عبر كتل السحاب الداكنة عند الشرق، ويزداد

الزعيق وحركة الماء فى مستعمرات الطيور حولنا ونحن لا نراها. ويشرق الفجر علينا فى بطء وألم، كباب نصف مفتوح، يدفع الظلام إلى الخلف فى قوة. وتمر دقيقة وينزلق فى لين سلم من الأقحوان الأصفر الناعم من السماء ليلمس آفاقنا وليزود عقولنا وبصائرنا بأبعاد عن المكان كانت تنقصها. وتثاءب «فرج» بقوة وأخذ يحك جسمه. وتشتعل الزهور الحمراء بلون الذهب الساخن. وتتحول السحب إلى اللون الأخضر والأصفر. لقد بدأت البحيرة تنفض عنها نعاسها. وأرى خيالات البط السوداء عبر ناظرى نحو الشرق. ويتمتم «فرج»: «لقد حان الوقت». إلا أن عقرب الدقائق فى ساعة معصمى يوضح أنه ما زال لدينا خمسة دقائق لنغادر المكان. وأحسست بعظامى وكأنها قد نقعت فى الظلام. وأحس بالتوتر والقصور يجاهدان كى يسيطرا على عقلى الناعس. هناك اتفاق ألا يبدأ الصيد قبل الرابعة والنصف. وأحشو بندقيتى فى بطء، وأضع حزام الخرطوش إلى جوارى وفى متناول يدى، عبر المكان الذى أحتمى فيه. ويقول «فرج» بصورة أكثر استعجالا: «لقد حان الوقت». وفى الجوار يوجد صوت طيور مختفية تطير فى سرعة أو تغطس فى الماء. ويقرفص فى وسط البحيرة زوج من دجاج الماء، وكأنه غارق فى التأمل والتفكير. وأكاد أقول شيئًا عندما تنطلق المجموعة الأولى من البنادق فى الجنوب، مثل طقطقة كرات الكريكيت الصادرة من بعيد.

والآن بدأت تمر الطيور المنفردة، واحد، اثنان، وثلاثة. ويزداد الضوء ويتسع، متحولا من اللون الأحمر إلى الأخضر. وتتحرك السحب لتكشف عن فجوات هائلة فى السماء. إنها تقشر الصباح كما تقشر الفاكهة. وترتفع نحو السماء على بعد مائتى ياردة أربعة

تشكيلات منفصلة من البط، كل منها على صورة رأس السهم. وتعبر من فوقى فى نظام بديع وهى تميل بزاوية، وأفتح عليها نيرانى من بندقية اختيرت خصيصًا للمسافات البعيدة. إلا أن البط كالمعتاد، أسرع وأبعد مما يبدو. وتمر الدقائق «تتكتك» فى القلب، وتنطلق النيران من بنادق أكثر قربًا، إن البحيرة الآن فى حالة عامة من النشاط. ويفد البط الآن فى مجموعات تتزايد بصورة لا بأس بها. ثلاثة، خمسة، تسعة: إنها تطير على ارتفاع قليل وفى سرعة. وحفيف يصدر عن أجنحتها وهى تشق السماء بريشها وقد مدت أعناقها. ومرة أخرى تنطلق إلى أعلى فى وسط السماء تشكيلات البط البرى، وقد تجمعت ينعكس عليها الضياء مثل الطائرات، تشق طريقها فى طيران سهل بطىء. البنادق تزحم الهواء برصاصها وتسطو على أسراب البط البرى الطائرة، نحو البحر الطليق فى خط متعرج. ويأتى الأوز البرى بعد ذلك فى تتابعات أعلى وأبعد من أن تنال، وصرخاته النائحة ترن فى وضوح عبر مياه مريوط وقد غمرتها الشمس الآن.

لم يعد هناك وقت للتفكير، فالأنواع المختلفة من بط المياه العذبة والبط البرى تصفر فوقى وكأنها السهام المنطلقة، وأبدأ إطلاق النار فى بطء وبطريقة منهجية. الأهداف وفيرة، إلا أن المرء غالبًا ما يجد صعوبة فى اختيار واحد منها خلال الجزء من الثانية الذى تكون فيه أمام مرمى البندقية. ووجدت نفسى أطلق النار فى سرعة مرة أو مرتين على إحدى التشكيلات. فإن أصيب طائر فى الصميم فإنه يترنح ويدور على نفسه، ويتوقف للحظة ثم يغطس فى رشاقة كمنديل يسقط من يد سيدة. ويلتئم نبات الغاب على أجسام البط البنية، إلا أن «فرج» الذى لا يتعب ولا يكل يتجه نحوها كالمجنون ليسترد الطيور. إنه يقفز فى بعض الأحيان إلى الماء «بجلبيته!» وقد شدها إلى حجابه الحاجز.

وتتوهج ملامحه بالانفعال. وهو يطلق ما بين الفينة والأخرى شهقة حادة.

إنهـا تفـد الآن من كل مكان، من كل زاوية يمكن تصـورها وبكل درجات السرعة. وتعوى البنادق وتختلط فى الأسماع بينما تسوق الطيور إلى الأمام وإلى الخلف عبر البحيرة. بعض الأسراب قد أرهقتها الحرب بشكل واضح، رغم رشاقتها وخفة حركتها، بعد الخسائر الفادحة التى أصابتها، والبعض الآخر من الطيور المنفردة قد جن جنونها رعبًا وفزعًا. وتحط بطة صغيرة غبية للحظة إلى جوار المكان الذى أختبئ فيه، إنها تكاد تكون فى متناول يد «فرج»، قبل أن ترى فجأة الخطر المحدق بها وتقفز منزلقة كالرغوة. وفى تواضع لم أكن شديد السوء رغم أنه من الصعب فى ذلك الهيجان، أن يسيطر المرء على نفسه ليطلق الرصاص بتأن وروية. الشمس ترتفع الآن بصورة لا بأس بها ورطوبة الليل قد تبددت. سأغرق بعد ساعة، وأنا بتلك الملابس الثقيلة، فى عرقى مرة أخرى. الشمس تلمع فوق مياه «مريوط» المتموجة حيث لا تزال الطيور تطير. إن المكامن التى يختبئ فيها الصيادون ممتلئة الآن بأجساد الضحايا المخضلة، الدم القانى يجرى من المناقير المحطمة، والريش الرائع، قد جعله الموت كئيبًا.

وأطيل أمد الذخيرة الباقية معى على قدر استطاعتى، غير أنى أطلق آخر خرطوش فى الثامنة والربع، و«فرج» لا يزال يعمل فى همة، يلاحق البط المترنح بين الغاب، لا يسيطر عليه غير اهتمامه باستعادة ما وقع منها. وأشعلت سيجارة، وأحسست لأول مرة وقد نفضت عن كاهلى شبح النذر والتطير، بأنى حر فى أن أتنفس، فى أن ألم شتات عقلى مرة أخرى. إنه لأمر غريب، كيف يحد منظر الموت من انطلاقة العقل،

كدرفة الشباك المصنوعة من الصلب، تفصل المستقبل الذى يتغذى بمفرده على الآمال والرغبات. وأتحسس الشعر النامى على ذقنى غير الحليقة وأفكر باشتياق فى حمام ساخن، وإفطار دافئ. و«فرج» لا يزال يستكشف بلا كلل جزر الحلفا. وتراخت البنادق وصمتت بالفعل فى أركان البحيرة. وفكرت فى «جوستين» باكتئاب موجع، إنها موجودة فى مكان ما هناك عبر المياه التى تغمرها الشمس. لم أكن أخاف كثيراً على سلامتها، لأنها كانت قد أخذت معها خادمى «حميد»، كحامل لبندقيتها.

وأحسست فجأة بالمرح، وبأنى لا أحمل همّا عندما ناديت على «فرج» حتى يكف عن بحثه ويعود بالقارب. وينصاع للنداء على مضض. وأخيراً نغادر المكان، ونعود أدراجنا نعبر البحيرة. خلال نتوءات وممرات الغاب نحو الكوخ.

ويقول «فرج»: «ثمانية أزواج ليست بالصيد الوفير»، إنه يفكر فى زكائب محترفى الصيد التى علينا أن نواجهها عندما يعود «رالى» و«كابوديستريا». وأقول: «إنها صيد جيد للغاية بالنسبة إلىّ، إننى صياد ردىء لم يحدث أن أجدت الصيد كما أجدته اليوم». ودخلنا القنوات المائية الكثيفة النباتات والتى تتاخم البحيرة كمجارى مياه صغيرة.

وأرى فى النهاية قارباً آخر ينعكس عليه الضوء يتجه نحونا، ويتضح فيه بالتدريج منظر «نسيم» المألوف. إنه يرتدى قلنسوته القديمة المصنوعة من الفرو قد ثنى أطرافها التى تغطى أذنيه وعقدها فوق رأسه، وألوح له غير أنه لا يستجيب لى. إنه لا يجلس فى مقدمة القارب، يهيم بعيداً بأفكاره وقد شبك راحتيه فوق ركبتيه. وأزعق: « «نسيم»،

كيف كانت أحوالك؟ لقد اصطدت ثمانية أزواج، وفقدت واحداً».

والآن يكاد القاربان أن يتوازيا، فقد كنا نتجه نحو مدخل آخر مجرى للمياه يقودنا إلى الكوخ. وينتظر «نسيم» حتى تصبح المسافة بيننا بضع ياردات قبل أن يقول في هدوء غريب! «هل سمعت؟ لقد وقعت حادثة. «كابوديستريا»... » وفجأة ينكمش قلبي داخل جسدي. وأقول متلعثما، «كابوديستريا؟». ولا يزال يكسو وجه «نسيم» ذلك الهدوء الشيطاني الغريب. هدوء امرئ يستريح بعد أن بذل جهداً كبيراً. ويقول: «لقد مات»، وأسمع صوت الزئير المفاجئ لآلات الطائرة المائية وهي تبدأ خلف جدار الغاب. ويومئ برأسه نحو الصوت، ويضيف بنفس الصوت الهادئ: «إنهم يأخذونه إلى «الإسكندرية» مرة أخرى. وتقفز إلى رأسي ألف تفاهة، ألف سؤال عادي، غير أني لا أستطيع أن أقول شيئًا لفترة طويلة من الزمن.

ويتجمع الآخرون في الشرفة وقد بدا عليهم الانزعاج، يكاد يغمرهم الخجل، إنه يشبهون مجموعة من التلاميذ الحمقى، انتهت إحدى ألعابهم بموت واحد منهم. ولا تزال الضجة الصادرة من الطائرة المائية والمخيمة على المكان تكسو الهواء. وفي وسع المرء أن يسمع على بعد يساوي نصف المسافة زعيق وضجيج آلات السيارات وهي تستعد للانطلاق. وترقد أجساد البط المكومة والتي لا بد وأن تكون مادة طبيعية للتعليقات الخبيثة، كشيء سخيف في غير مكانه. ويبدو أن الموت قضية بشعة، لم نكن معدين إلا لتقبل نصيب معين منه عندما دخلنا البحيرة المظلمة نحمل أسلحتنا. إن موت «كابوديستريا» يعلق في الهواء الراكد كرائحة كريهة... كنكتة سخيفة.

لقد أرسل «رالي» لإحضاره، فوجد الجسد ممدًا، وقد اتجه الوجه

إلى أسفل فى مياه البحيرة الضحلة، وعصابة عينه السوداء تطفو إلى جواره. كان من الواضح أنها حادثة وقعت بالصدفة. كان حامل بندقية «كابوديستريا» رجلاً متقدمًا فى السن، نحيلا كطائر بحرى شره، إنه يجلس الآن فى الشرفة منكبّا فوق أكلة فول. إنه لا يستطيع أن يقدم عرضًا متماسكًا للواقعة. إنه من الصعيد يحمل وجهه تعبير شخص مرهق يوشك على الجنون كالتعبير الذى يرتسم على سمات رهبان الصحراء.

إن «رالى» فى حالة عصبية شديدة وهو يشرب جرعات كبيرة من البراندى، إنه يعيد سرد القصة للمرة السابعة، لا لشىء إلا ليتكلم حتى يهدئ أعصابه. ورغم أن الجسد لم يمض عليه وقت طويل فى الماء، إلا أن جلده كان يشبه جلد راحتى امرأة غسالة. وانزلقت أسنانه الصناعية من فمه عندما حملوه ليضعوه فى الطائرة المائية، وتحطمت على الأرض فأخافتهم جميعًا. ويبدو أن هذه الحادثة قد تركت أثرًا عميقًا فى نفسه. وأحس أنا فجأة بالإرهاق وهو ينال منى وأحس بركبتى وقد أخذتا فى الارتعاش. وأتناول كوزًا من القهوة الساخنة، وأركل حذائى بعيدًا، وأزحف أنا والقهوة إلى أقرب سرير. «رالى» ما زال يتكلم فى إصرار يصم الآذان، وراحته الطليقة تشق الهواء فى أشكال معبرة. والآخرون يرقبونه فى كآبة وفضول لا يعنى شيئًا محددًا، كان كل منهم غارقًا فى أفكاره الخاصة. وحامل بندقية «كابوديستريا» لا يزال يأكل فى صخب كحيوان يكاد يموت جوعا، ويرمش فى ضوء الشمس. الآن يظهر للعيان قارب به ثلاثة من رجال البوليس وقد جلسوا فى حذر داخله. و«نسيم» يرقب منظرهم الهزلى بجأش ثابت، حتى إنه بدت عليه لمحة سريعة من الرضا، وكأنه كان يبتسم لنفسه. وترتفع طقطقة الأحذية

وقعقعة أعقاب البنادق فوق السلالم الخشبية، إنهم يصعدون إلى أعلى ليأخذوا أقوالنا فى مذكراتهم. إنهم يجلبون معهم جوّاً من الشك خطيراً يحوم فوق رءوسنا جميعًا. ويضع أحدهم القيد فى حرص فى يدىّ حامل بندقية «كابوديستريا» قبل أن يقودوه إلى القارب. ويمد الخادم معصميه للقيد الحديدى بطريقة رقيقة خالية من الفهم والإدراك، نفس الانطباعات التى يراها المرء على وجوه القردة العجوز عندما يطلب منها أن تؤدى عملا إنسانيّا تعلمت أداءه دون أن تفهم مغزاه.

كانت قد بلغت الواحدة قبل أن ينتهى رجال البوليس من عملهم. لابد أن باقى المجموعات قد عادت الآن من البحيرة إلى المدينة حيث تنتظرهم أنباء موت «كابوديستريا». غير أن هذا لن يكون كل شىء.

ونهيم واحدا بعد الآخر بعدتنا نحو الشاطئ. السيارات فى انتظارنا، وتبدأ الآن مرحلة طويلة من المساومات مع حملة البنادق والبحارة الذين يجب أن ندفع لهم أجورهم، وتفرغ البنادق، وتوزع الأكياس، وأرى خادمى «حميد» فى كل هذه الفوضى وهو يتقدم على استحياء خلال الزحام وقد أغلق عينه السليمة اتقاءً لضوء الشمس. وأعتقد أنه يبحث عنى ولكن كلا، إنه يتجه إلى «نسيم» ويناوله مظروفًا أزرق صغيراً. إننى أود أن أصف هذه الواقعة بدقة. «نسيم» يتناول الخطاب بيسراه وهو شارد بينما تمتد يمناه داخل السيارة ليضع صندوق الخرطوش فى علبة قفازه. ويفحص العنوان دون ترو مرة، ثم يفحصه مرة أخرى بانتباه ملحوظ. ثم يأخذ نفسًا عميقًا وعيناه على وجه «حميد»، ويفتح الخطاب ليقرأ ما هو مكتوب على نصف صفحة من ورق الخطابات. إنه يطالعه فى دقيقة ثم يضع الخطاب مرة أخرى فى المظروف. وينظر حواليه وقد ارتسم فجأة على وجهه تعبير متغير،

وكأنه قد أحس بالغثيان فجأة، إنه ينظر حواليه بحثًا عن مكان يتقيأ فيه، ويشق طريقه خلال الزحام ليضع رأسه على زاوية حائط طينى ويطلق إجهاشة قصيرة لاهثة، كتلك التى يطلقها شخص جرى حتى تقطعت أنفاسه. ثم يستدير إلى العربة، وقد سيطر على نفسه تمامًا وجفف دموعه، ليكمل حزم حاجياته. وتمر هذه الحادثة القصيرة دون أن يلحظها باقى الضيوف على الإطلاق.

وترتفع الآن غمامات من التراب، فقد بدأت السيارات انطلاقها نحو المدينة، وتزعق وتلوح لنا زمرة البحارة الخشنة الطباع، يودعوننا بابتسامات تبدو وكأنها منحوتة من بطيخ مرصع بالذهب والعاج. ويفتح «حميد» باب السيارة ويتسلق كالقرد. وأقول: «ما الأمر؟» ويقول وهو يمد راحتيه الصغيرتين نحوى فى اعتذار وتوسل، وكأنه يعنى، «لا تلم حامل الأخبار السيئة» ويقول فى صوت خفيض يحاول مواساتى: «سيدى، لقد رحلت السيدة، وهناك خطاب فى المنزل من أجلك».

وأحس وكأن المدينة كلها قد تحطمت حول أذنى، وأسير فى بطء إلى الشقة، على غير هدى، كالناجين من زلزال وهم يسيرون فى شوارع مدينتهم، مندهشين عندما يجدون أن كل ما كان مألوفًا لديهم قد تغير. شارع «بيرو»، شارع «فرنسا»، جامع «التربانة» (دولاب تفوح منه رائحة التفاح)، شارع «سيدى أبى العباس» (المياه المثلجة والقهوة)، «الأنفوشى»، «رأس التين»، «كنج مريوط» (حيث كنا نجمع الأزهار البرية، وأنا مقتنع أن ليس فى مقدورها أن تبادلنى الحب)، تمثال «محمد على» ممتطيًا جوادًا فى الميدان. تمثال نصفى صغير مضحك للجنرال «أيرل» الذى قتل فى «السودان» عام ١٨٨٥ . . . .

أمسية زاخرة بعصافير الجنة . . . . المقابر فى «كوم الشقافة»، الظلام والتربة الرطبة، لقد أرعبنا الظلام . . . «شارع فؤاد» باعتباره الطريق القديم الذى تظلله الأشجار، والذى كان يطلق عليه ذات يوم شارع «روزيت» . . . . «هتشينسون» وقد أخل بكل النظام المائى الخاص بالمدينة عندما هدم السدود المقامة على البحر . . . . المشهد الموجود فى كتاب «عادات» حيث يحاول أن يقرأ لها الكتاب الذى يكتبه عنها . «إنها تجلس فى كرسيها المصنوع من الأغصان المجدولة وقد وضعت راحتيها فى حجرها، كأنها ستتخذ وضعًا تصور منه، غير أن نظرة فزع كانت تزداد باطراد على وجهها . وأخيراً لم يعد فى وسعى أن أحتمل أكثر من هذا، فألقى بالمخطوط إلى المدفأة، وأنا أصيح، (ما قيمة تلك الصفحات النابعة من قبل مطعون حتى أعماقه النابضة، ما دمت لا تفهمين منها شيئًا؟) إننى أستطيع أن أرى بعين خيالى «نسيم» وهو يقطع السلم الكبير فى سرعة إلى حجرتها ليجد «سليم» فى حالة من الذهول يتأمل الدواليب الفارغة ومنضدة الزينة وقد أزيح كل ما فوقها كأنما أطاح بها مخلب نمر . وتزعق صفارات السفن فى ميناء «الإسكندرية» وتنوح، وتمضع وتجرش محركات السفن مياه الحاجز الداخلى الخضراء التى يكسوها الزيت . وتدير اليخوت سواريها نحو السماء وهى تتثنى وتميل فى كسل، وتنفخ دون جهد كأنها نبضات الأرض ذاتها وهى تنقبض وتتمدد . هناك فى مكان ما فى قلب التجربة نظام وانسجام يمكن أن نضع أيدينا عليه إذا انتبهنا بما فيه الكفاية، وأحببنا بما فيه الكفاية، أو تذرعنا بالصبر بما فيه الكفاية .

هل سيكون هنالك متسع من الوقت لذلك؟

* * *

الجـــزء الرابـــع

كان اختفاء «جوستين» أمراً جديداً يجب احتماله. لقد غير كل النمط الذى قامت عليه علاقاتنا. لقد بدا الأمر وكأنها قد أزاحت حجراً هو واسطة العقد الذى يمسك ببناء أحد الأقواس. ويمكن القول: إنها قد تركتنا أنا و«نسيم» بين الأنقاض نواجه مهمة إصلاح علاقة هى التى أوجدتها وقد صارت خواء لغيابها، يتردد فيها أصداء إثم أحسست أنه سيخيم دائمًا من الآن فصاعداً على عواطفى.

كان ألمه واضحًا لكل إنسان. وبدا ذلك الوجه المعبر مسلوخًا عليلاً ـ شاحبًا شحوب تمثال شهيد فى كنيسة. وعندما رأيته على تلك الحالة تذكرت بصورة حادة مشاعرى الخاصة خلال آخر لقاء لى مع «ميليسا» قبل أن تغادر المدينة إلى المصحة فى «أورشليم» حيث مضى عليها حتى الآن ما يقرب من عام كامل. الصفاء والرقة اللتان تحدثت بهما عندما قالت: «لقد انتهى الأمر كله.... وربما إلى غير رجعة.... على الأقل هذا الفراق». وغدا صوتها ناعمًا دامعًا يطمس أطراف الكلمات. كانت فى ذلك الوقت صريعة المرض. فقد انفتحت إصابتها من جديد. «يكون لدينا الوقت لنراجع ما فى نفوسنا.... ليتنى كنت «جوستين».... إننى أعرف أنك تفكر فيها عندما تضاجعنى.... لا تنكر ذلك... إننى أعرف يا حبيبى.... إننى أحس بالغيرة حتى مما يطوف بخيالك... إنه لأمر فظيع أن يلوم الإنسان نفسه فوق ما

يعانيه من شقاء وعذاب . . وعلى كل حال لا تهتم». ودعكت أنفها وهى تنتفض وحاولت أن تبتسم، «إننى فى حاجة ملحة إلى الراحة». . . .

لقد وقع «نسيم» الآن فى حبى. ووضعت راحتى فوق فمها الحزين واختلجت سيارة التاكسى فى عنف، وكأنها شخص ما يعيش على أعصابه. كان كل شىء حولنا يسير، نساء الإسكندرية، وقد غادرن دورهن أنيقات، وكأنهن أطياف صقلت صقلاً جيداً. كان السائق يرقبنا فى المرآة كجاسوس. ربما كان يفكر فى أن عواطف البيض شاذة مثيرة فاجرة، كان يراقبنا كما يراقب المرء قططًا تتعاشر.

«لن أنساك أبد الدهر».

«ولا أنا، اكتبى إلىّ».

«سأعود فى أى وقت إن أردت عودتى».

«لا يخالجك الشك فى ذلك. اشف، يا «ميليسا» من مرضك. يجب أن تشفى. سأكون فى انتظار عودتك. سنبدأ دورة جديدة من الحياة. إن كل شىء لا يزال فى أعماقى كما كان. إننى أحس به».

إن الكلمات التى يتبادلها العشاق فى مثل تلك الأوقات تكون محملة بمشاعر مشوهة. إن صمتهم وحده هو الذى يلتزم الدقة المتناهية التى تشدهم إلى الحقيقة. كنا صامتين، يمسك كل منا بيد الآخر. فعانقتنى وأشارت للسائق أن ينطلق.

يكتب «الأرناؤوطى»: «وبرحيلها اتخذت المدينة حياله مظهراً، يثير غرابة الضعف فى نفسه. فحيثما تقع ذكراه عنها على ركن مألوف لديهما، فإنها تستعيد وجودها فى سرعة وحيوية، مسلطة تلك العينين

واليدين الشبحيتين على الشوارع والميادين. وقفزت أحاديث قديمة تبادلاها تلطمه وسط الموائد المصقولة فى المقاهى التى جلسا فيها ذات مرة من قبل، ينظر كل منهما فى عينى الآخر كنمرين. كانت تتراءى له فى بعض الأحيان وهى تسير أمامه فى الظلام ببضع خطوات. كانت تقف لتصلح رباط صندلها فيلحق بها وقد أسرعت دقات قلبه، ليجد أنها واحدة غيرها. وبدت له فى الأبواب وقد أوشكت أن تفتح لتسمح لها بالدخول. فكان يجلس يرقبها فى عناد. وفى أحيان أخرى كان يتملكه فجأة اعتقاد لا يقاوم بأنها على وشك أن تصل فى قطار معين، فيسرع إلى المحطة ويخوض بين جمهرة المسافرين كما يخوض المرء نهرًا. أو ربما جلس فى غرفة الانتظار المكتومة فى المطار بعد منتصف الليل يرقب الراحلين والقادمين، كأنما ستفاجئه بعودتها. وسيطرت بهذه الطريقة على خياله، وعلمته إلى أى مدى كان إدراكه ضعيفًا. وحمل معه ثقل إحساسه برحيلها حيثما ذهب كما يحمل المرء طفلاً ميتًا لا يستطيع التخلى عنه».

ولقد هبت فى الليلة التى أعقبت رحيل «جوستين» عاصفة رعدية بالغة الحدة. كنت قد همت لساعات تحت المطر، نهبا ليس فقط لمشاعر عجزت عن التحكم فيها ولكن أيضًا لتبكيت ضميرى لما جال بخاطرى من مشاعر لا بد وأن يعانيها الآن «نسيم». وفى صراحة، فإننى لم أجرؤ على العودة إلى شقتى الخالية، حتى لا يغرينى نفس الطريق الذى كان «بورسواردن» قد سلكه فى غاية اليسر والسهولة، مع قليل من العمد وسبق الإصرار. وبينما أقطع «شارع فؤاد» للمرة السابعة، بلا معطف، ولا قبعة، فى ذلك المطر المدرار الذى يلف كل شىء، تصادف أن لمحت الضوء فى نافذة «كليا» العالية، فاندفعت إلى أعلى أدق الجرس. وأنَّ الباب الخارجى وهو يفتح، فخطوت من الشارع

المظلم بأمطاره الهادرة كالميازيب ورشاش فتحات البالوعات وقد فاضت منها المياه.

وفتحت لى الباب، وبنظرة واحدة أدركت حالتى. وسمحت لى بالدخول، لأخلع ملابسى المبتلة وأرتدى جلبابًا أزرق. ونعمت بنار المدفأة الكهربية الصغيرة وأخذت تعد لى القهوة الساخنة.

كانت ترتدى بيجامتها، وقد مشطت شعرها الذهبى استعدادًا للنوم، ونسخة من كتاب «بالعكس»موجودة على الأرض وغلافها إلى أسفل إلى جوار المنفضة حيث توجد بها سيجارة تحترق. وظل البرق يومض عند النافذة بصورة متقطعة، يضىء وجهها الرصين بومضاته التى تماثل ومضات الماغنسيوم، وتدحرج الرعد وتلوى فى السماوات الحالكة خارج النافذة. كان من الممكن إلى حد ما أن أتخلص من مخاوفى من ذلك الهدوء بالحديث عن «جوستين». وبدا لى أنها تعرف كل شىء ـ لم يكن فى الاستطاعة إخفاء شىء عن فضول سكان «الإسكندرية». ويمكن القول: إنها كانت تعرف كل شىء عن «جوستين».

قالت «كليا» فى قلب كل هذا: «لابد أنك قد خمنت أن «جوستين» كانت هى المرأة التى أخبرتك ذات مرة أننى قد أحببتها حبًا جمًا».

لقد كلفها هذا القول جهدًا كبيرًا. كانت تقف إلى جوار الباب وقد ارتدت بيجامتها ذات الخطوط الزرقاء، وقد أمسكت قدح القهوة فى إحدى يديها. وأغلقت عينيها وهى تتكلم، وكأنها تتوقع ضربة على أم رأسها. وسالت فى بطء دمعتان من عينيها المغلقتين وانحدرتا حول أنفها. وبدت كوعل صغير انكسر مفصل قدمه. وأخيرًا قالت فى صوت هامس: «آه، دعنا لا نتحدث عنها مرة أخرى، إنها لن تعود أبدًا».

ولقد حاولت فيما بعد أن أغادر المكان إلا أن العاصفة كانت على أشدها وملابسى مبتلة إلى درجة لا يمكن تصورها. وقالت «كليا»: «فى وسعك أن تبقى هنا معى». ثم أضافت فى رقة جعلتنى أحس بغصة فى حلقى «ولكن أرجوك - لا أدرى كيف أقولها - أرجوك لا تضاجعنى».

ورقدنا سويّا فى ذلك السرير الضيق نتحدث عن «جوستين» بينما العاصفة تدوى فى الخارج، والأمطار المندفعة من عند شاطئ البحر تحك زجاج نوافذ الشقة. كانت ترقد الآن هادئة فى نوع من الاستسلام الذى كان يفصح عن نفسه بطريقة مؤثرة. وأخبرتنى الكثير عما فى «جوستين» والذى لم يكن يعرفه سواها، تحدثت عنها فى حيرة ورقة كما يتحدث عامة الناس عن ملكة محبوبة غير أنها تثير الحنق والغضب.

وعندما تحدثت معها عن مجازفات «أرناؤوطى» فى عالم التحليل النفسى قالت وهى تحس أن الأمر مسل: «إنها لم تكن بالفعل ماهرة، كما تعلم، إلا أنها كانت تمتلك فكر حيوان برى وقع فى مأزق. إننى لست متأكدة من أنها قد فهمت بالفعل موضوع تلك الفحوص. رغم أنها كانت تراوغ الأطباء إلا أنها كانت صريحة للغاية مع أصدقائها.

مثلا كل تلك المكاتبات حول كلمات «واشنطن. د. ك» والتى تدارسوها كثيرًا، هل تتذكر؟ لقد سألتها ذات ليلة بينما كنا نرقد هنا سويّا أن تشرح لى ما ترتبط به تلك العبارة. بالطبع كانت تثق فى عقلى بشكل مطلق. فأجابت دون أن تقع فى خطأ (كان من الواضح أنها قد درست هذا الأمر بالفعل رغم أنها لم تخبر «أرناؤوطى» بذلك). توجد مدينة قرب «واشنطن» تدعى «الإسكندرية». وكان أبى دائم الحديث

عن الذهاب إلى هناك لزيارة بعض الأقارب البعيدين. وكانت لهم ابنة تدعى «جوستين» فى مثل عمرى بالضبط.

ولقد جنت «جوستين» تلك وعزلت. كان قد اغتصبها أحد الرجال. وعندئذ سألتها عن معنى د. ك. فقالت «داكابو كابوديستريا».

إننى لا أدرى كم استغرق ذلك الحديث أو كيف انتهى بنا إلى النوم؟ غير أننا استيقظنا صباح اليوم التالى متعانقين لنجد أن العاصفة قد كفت. والمدينة نظيفة وكأنها قد مسحت بالإسفنج. وتناولت إفطاراً سريعًا واتخذت طريقى نحو دكان «منمجيان»، لأحلق ذقنى، عبر شوارع قد غسل المطر ألوانها الأصلية حتى إنها كانت تتوهج بالدفء والجمال فى ذلك الطقس الناعم. كنت لا أزال أحتفظ بخطاب «جوستين» فى جيبى غير أننى لم أجرؤ على قراءته مرة ثانية وإلا تحطمت راحة البال التى منحتنى إياها «كليا». غير أن العبارة الافتتاحية ظلت تدوى فى رأسى فى إصرار عنيد نابض: «إذا قدر لك أن تعود حيّا من البحيرة فستجد هذا الخطاب فى انتظارك».

وفى الشقة فى غرفة الاستقبال على رف المدفأة كان هناك خطاب آخر يعرض على عقداً لمدة عامين كمدرس فى مدرسة كاثوليكية فى الصعيد. وأجلس للحال دون أدنى تفكير وأكتب مسودة موافقتى. إن هذا الأمر سيغير كل شىء مرة أخرى، سيحررنى من شوارع المدينة التى أخذت تلاحقنى أخيراً حتى إنى أحلم بأنى أسير بلا نهاية جيئة وذهابًا، وأبحث عن «ميليسا» بين الشعلات المحتضرة فى الحى العربى.

وبإرسال خطاب القبول هذا بالبريد تبدأ مرحلة جديدة من مراحل حياتى. إنه يحدد ميعاد انفصالى عن المدينة التى وقعت لى فيها أحداث

كثيرة، ذات أهمية خطيرة، أحداث من الكثرة بمكان حتى إنها جعلتنى أسرع نحو الشيخوخة. ومع ذلك فإن الحياة ستحمل نبضها ساعات وأيامًا لفترة محدودة من الزمن. ستتوهج نفس الشوارع والميادين فى خيالى كما يتوهج الفراعنة فى التاريخ. حجرات بذاتها ضاجعت فيها عشيقتى، موائد، مقاه بذاتها حيث سحرنى ضغط الأنامل فوق معصمى، وذلك الإحساس بإيقاعات «الإسكندرية» والذى ينتقل عبر الشوارع الحارة إلى أعلى، إلى الأجساد التى لا تستطيع أن تترجمها إلا إلى قبلات جائعة، أو عبارات تودد وتحبب فى أصوات مبحوحة من الدهشة والحيرة. إن هذه الفواصل، فى حياة تلميذ الحب مُرة، غير أنها ضرورية لنموه ونضجه. إنها تساعد المرء كى يجرد نفسه بصورة ذهنية من كل شيء عدا الرغبة العارمة فى مزيد من الحياة.

والآن يعانى الوضع الراهن للأمور أيضًا عملية تغيير غامضة، فقد بدأت عمليات رحيل أخرى. «نسيم» ذاهب إلى «كينيا» فى إجازة. نال «بومبال» الترقية ونقل إلى وظيفة بالمحكمة العليا بـ«روما» حيث سيكون دون شك أسعد حالا. وبدأت سلسلة من حفلات الوداع التى تحقق أهداف كل منا، إلا أنها كانت حفلات ثقيلة الظل لغياب الشخص الوحيد الذى لم يعد يذكره أحد ـ «جوستين». من الواضح أيضًا أن حربًا عالمية تزحف علينا فى بطء عبر مضايق التاريخ ـ تضاعف مطالبنا إزاء بعضنا البعض وإزاء الحياة. وتعلق رائحة الدم الحلوة إلى حد الغثيان فى الجو المعتم وتعمل على خلق إحساس بالإثارة والغرام والاستهتار. وهى نغمة كنا نفتقدها حتى الآن.

إن الثريات التى فى المنزل الكبير والتى بدأت أكره قبحها تتوهج فوق الجمع الذى التأم شمله ليودع صديقى. إن الجميع هناك، الوجوه

والتواريخ التى عرفتها معرفة جيدة، «سفيفا» ترتدى الأسود، و«كليا» ترتدى رداء ذهبيًا، «جاستون»، «كلير»، و«جابى». وألاحظ أن اللون الرمادى قد بدأ يأخذ طريقه بصورة طفيفة إلى شعر «نسيم» خلال الأسابيع الأخيرة. «بتوليميو» و«فؤاد» يتشاجران بكل الحيوية التى يتمتع بها العشاق القدامى. وترتفع حولى الحيوية السكندرية الأصلية وتهدأ إلى مناقشات هشة حقيقة كالزجاج المشغول. هنا نساء الإسكندرية بكل خبثهن المهذب يودعن الرجل الذى أسرهن بالسماح لهن بمصادقته. أما عن «بومبال» ذاته فقد غدا منذ نال الترقية أتخن مما كان، وأكثر ثقة فى نفسه. وأصبح لمنظر وجهه الجانبى شبهًا معينًا بـ«نيرون». إنه يفضى إلىّ بقلقه علىّ فى صوت خفيض، إننا لم نلتق منذ بضعة أسابيع اللقاء الواجب، لم يسمع هو بمشروعى عن التدريس إلا الليلة. وأخذ يكرر، يجب أن ترحل، أن ترجع إلى أوروبا. إن هذه المدينة ستقوض إرادتك. ماذا سيقدم لك الصعيد؟ حر مشتعل، غبار، ذباب، عمل حقير. . . وعلى كل حال فإنك لست «ريمبود».

وتحول الوجوه التى تتموج حولنا وترشف الأنخاب دون الرد عليه، ويغمرنى هذا الأمر بالسعادة إذ ليس لدى ما أقوله. وأحملق فيه أومئ برأسى، وأنا أحس بخدر هائل. وتمسكنى «كليا» من معصمى لتسحبنى جانبًا وتهمس لى: «بطاقة من «جوستين». إنها تعمل فى «الكيبوتز» اليهودى فى فلسطين. هل أخبر «نسيم»؟».

«نعم. كلا. لست أدرى».

«إنها تطلب منى ألا أخبره».

«إذن فلا تخبريه».

وتحول كبريائى دون سؤالها إذا كانت هناك أية رسالة من أجلى. وأخذ الجمع يغنى تلك الأغنية القديمة «لأنه إنسان طيب خفيف الروح»، فى فترات مختلفة وبلهجات متنوعة. وغدا وجه «بومبال» قانيًا من فرط سعادته. وأنزل يد «كليا» بلطف حتى ألحق بالغناء. والقنصل العام الضئيل الجسد يأتى بحركات من يديه وجسده ويتملق «بومبال». إنه مرتاح ارتياحًا كبيرًا لرحيل صديقى حتى إنه ارتدى لباس الصداقة والأسى بصورة تبدو وكأنها نوبة مرضية. وتبدو مجموعة القنصلية الإنجليزية فى جو كئيب كأنها عائلة من الديكة الرومية تبدل ريشها. وتتابع مدام «فنيوتا» النغم بنقرات من يدها الرشيقة المكسوة بالقفاز. والخدم السود بقفازاتهم البيضاء الطويلة يتحركون من مجموعة إلى أخرى من مجموعات الضيوف فى خفة كأقمار مخسوفة. وأجد نفسى أفكر فى الذهاب إلى إيطاليا أو فرنسا: حتى أبدأ نوعًا جديدًا من الحياة: لن تكون حياة مدنية فى تلك المرة، ربما فى جزيرة فى خليج «نابولى»... غير أنى أدرك أن المشكلة التى بقيت بلا حل فى حياتى ليست هى مشكلة «جوستين» ولكنها مشكلة «ميليسا». فقد كان المستقبل، إذا كان هناك ثمة مستقبل، مرتبطًا بها دائمًا على نحو غريب. ومع ذلك فإننى أحس بعجزى عن التأثير فيه بالقرارات أو حتى بالأمانى. إننى أحس بأن على أن أنتظر فى صبر حتى تلتئم آثار تاريخنا الضحلة مرة أخرى، حتى تلتقى خطانا مرة أخرى. ربما يستغرق هذا الأمر سنوات - ربما يكون كلانا قد ابيض شعره عندما يتغير مجرى التيار فجأة. أو قد يموت الأمل وهو ما زال وليدًا، وتسحقه تيارات الأحداث كحطام سفينة غارقة. إننى لا أثق فى نفسى إلا بقدر محدود للغاية. النقود التى تركها «بورسواردن» لا تزال فى البنك - لم ألمس مليمًا واحدًا

منهـا . إنـه يمثل هذا القـدر من المال يمكننا أن نمضى عـامـين نتـمـتع بالشمس فى كل مكان رخيص .

«ميليسا» لا تزال تكتب إلىَّ تلك الخطابات المرحة اللامبالية والتى أعانى صعوبة حقيقية فى الرد عليها إلا بردود باكية عن الأحوال التى أعيشها أو عن تبذيرى وفشلى . ما إن أغادر المدينة حتى يسهل الأمر علىَّ . سينفتح أمامى طريق جديد . سأكتب لها فى صراحة مطلقة لأخبرها بكل ما أشعر به - حتى بالأشياء التى أؤمن أنها لن تستطيع فهمها أبدًا على الوجه الصحيح . إن «نسيم» يقول للبارون «ثيبولت» : «سأعود فى الربيع وأقضى فترة الصيف فى «أبو الصير»(*) . لقد عقدت النية على الاسترخاء لمدة تقرب من عامين . فقد بذلت جهدًا شاقًا فى العمل غير أنه لا يستحق ذلك ، ورغم الشحوب الشجى الذى كان يكسو وجهه فقد كان فى وسع المرء أن يرى ما فيه من شعور جديد بالطمأنينة ، وراحة البال ، ربما كان قلبه يعانى التشتت والحيرة ، غير أن أعصابه قد هدأت أخيرًا . إنه ضعيف ، ضعف المتماثل للشفاء ، لكنه لم يعد مريضًا . ونتحدث ونتبادل النكات لفترة فى هدوء . فمن الواضح أن صداقتنا سوف تلتئم من تلقاء نفسها إن عاجلا أو آجلا - فكلانا لديه الآن ذخيرة مشتركة من التعاسة يمكن أن يجتر منها . وأقول له «جوستين» فيشهق قليلا وكأن أحدهم قد دفع بشوكة تحت ظفر إصبعه . «إنها تكتب من فلسطين» . ويومئ برأسه فى سرعة ، ويشير إلىَّ إشارة بسيطة : «إننى أعرف . فقد اقتفينا أثرها . لا داعى لـ . . إننى أكتب إليها . فى مقدورها أن تظل بعيدًا كيفما تشاء . وتعود وقتما تشاء» .

(*) يقصد المؤلف «أبو صير» (المترجم) .

من الغباء أن يحرمه المرء من الأمل والعزاء الذى يمنحه له هذا الأمل، لكنى أدرك الآن أن «جوستين» لن تعود أبدًا على أسس حياتها الماضية. إن كل جملة فى خطابها إلىّ توضح هذا المعنى. لسنا نحن الذين هجرتنا هذا الهجران ولكنه نمط الحياة الذى هدد عقلها ـ المدينة، والحب، مجموع كل ما تقاسمناه معًا. ماذا كتبت له، كنت فى حيرة، كلما تذكرت النهنهة القصيرة التى صدرت عنه عندما كان مستندًا إلى الحائط المطلى باللون الأبيض؟

إننى أسير على الشواطئ المهجورة، صباح الأيام الربيعية عندما تتمدد الجزيرة فى بطء بعيدًا عن البحر فى الساعات الأولى لشروق الشمس، أحاول أن أستعيد ذكريات العامين اللذين قضيتهما فى صعيد مصر. ومن الغريب أن يكون كل شىء عن «الإسكندرية» مليئًا بالحياة حتى إنى لا أتذكر إلا القليل عن تلك الفترة الضائعة. أو هى ربما ليست على هذا القدر من الغرابة ـ إذ عند مقارنتها بالحياة التى عشتها فى المدينة فإن حياتى الجديدة كانت كئيبة رتيبة.

إننى أتذكر الجهد الذى يقصم الظهر فى العمل المدرسى، النزهات فى الحقول المنبسطة الغنية بمحاصيلها الفائضة والتى تتغذى على عظام الموتى من الرجال، النيل الأسود بغذائه من الطمى يتحرك سمينًا ممتلئ الجسم إلى البحر عبر الدلتا. الفلاحون الذين تمكنت البلهارسيا منهم والذين تشع النبالة والصبر من أسمالهم يبدون كاختراعات منزوعة الملكية. قساوسة القرية ينشدون ترانيمهم. الأبقار المعصوبة تدير عجلة الساقية البطيئة، معصوبة العينين حتى تُحمى من رتابة عملها ـ انظر إلى أى مدى يمكن أن يغدو العالم صغيرًا؟ لم أقرأ شيئًا خلال تلك الفترة، ولم أفكر فى شىء، لم أكن أى شىء. كان آباء المدرسة كرماء معى

فتركونى بمفردى خلال أوقات فراغى، ربما أحسوا عدم استطابتى للملبس وللجهاز الإدارى الكهنوتى.

أما الأطفال فقد كانوا بالطبع مصدر عذاب لى - ولكن أى مدرس حساس لا يردد فى أعماقه كلمات «تولستوى» الرهيبة: - «ما إن أدخل مدرسة وأرى مجموعة من الأطفال، مهلهلى الثياب نحاف الأجسام قذرين إلا أن عيونهم صافية تطفر منها أحيانًا تعابير ملائكية، حتى يسيطر علىّ القلق والرعب، وكأنى قد رأيت بعض الناس وهم يغرقون».

ورغم زيف المكاتبة إلا أننى حافظت على اتصال غير منتظم مع «ميليسا» التى كانت تصلنى خطاباتها بطريقة منتظمة، وكتبت لى «كليا» مرة أو مرتين، إلا أن الشىء الذى كان غاية فى الغرابة هو أن «سكوبى» العجوز كان متضايقًا لأنه افتقدنى بصورة كبيرة كما عبر عن ذلك بنفسه. كانت خطاباته مليئة بالسخرية المدهشة من اليهود (والذى كان يشير إليهم على الدوام مستهزئًا - «بالديكة القارضة»). وكذلك كان غريبًا للغاية أن يشير إلى اللواطيين (الذين أطلق عليهم اسم الخناث). لم أفاجأ عندما علمت أن البوليس السرى قد ألقى به واستغنى عنه، وغدا فى مقدوره الآن أن يمضى معظم اليوم فى فراشه و«زجاجة خمر قوية» فى متناول يده، إلا أنه كان يحس الوحدة، لذا فقد كتب إلىّ يراسلنى.

كانت تلك الخطابات مفيدة لى. فإن شعورى بأن كل شىء غير حقيقى كان قد نما إلى درجة أننى لم أعد أأتمن ذاكرتى فى بعض الأحيان، فأجد صعوبة فى أن أصدق بأن هناك على الإطلاق شيئًا كمدينة «الإسكندرية».

ما إن ينتهي عملي حتى أغلق حجرتي عليَّ وأزحف إلى سريري، الذي يوجد إلى جواره صندوق أخضر مصنوع من حجر اليشم مليء بالسجائر المحشوة بالحشيش. وإن كان البعض قد لاحظ نهجي في الحياة أو علق عليه فإنني لم أترك على الأقل أي ثغرة للنقد في عملي. كان من العسير أن يغبطني أحد لرغبتي المفرطة في الوحدة. وللحقيقة فإن الأب «راسين» قد بذل معي محاولة أو محاولتين كي يستثير همتي. كان أكثرهم حساسية وذكاء وربما أحس بأن صداقتي له قد تلطف من وحدته الفكرية.

كنت حزينًا من أجله وآسفًا على نحو ما لعجزي عن الاستجابة لتلك العروض الودية. غير أني كنت مصابًا بتبلد كان يزداد بصورة تدريجية، جمود ذهني جعلني أحجم عن الاتصال بالآخرين. وقد رافقته مرة أو مرتين في نزهة إلى جانب النهر (كان عالمًا في النبات) واستمعت إليه يتحدث في يسر وذكاء عن موضوعه. غير أن المناظر الطبيعية كانت بلا طعم لتفاهتها وعدم تجانسها مع الفصول. وبدا أن الشمس قد لفحت شهيتي لكل شيء: للطعام، وللصحبة، وحتى للحديث. وفضلت أن أستلقي في سريري أحملق في السقف وأتسمع الضوضاء حولي في جناح المدرسين: الأب «جودير» يعطس. يفتح الأدراج ويغلقها، الأب «راسين» يعزف على نايه بعض المقطوعات مرة أخرى، وتتلاشى أصوات الأرغن وسط أنغامه في الكنيسة المظلمة، ومنحت السجاير الثقيلة عقلي حالة من الهدوء، وقد خلصته من كل همومه.

وناداني «جودير» ذات يوم بينما كنت أعبر السور، وأخبرني أن أحدهم يرغب في مكالمتي هاتفيًا. كان من الصعوبة بمكان أن أدرك ما

يقول أو أن أصدق أذنىّ. من الذى سيطلب مكالمتى بالهاتف بعد كل هذا الصمت؟ ربما كان «نسيم»؟

كان الهاتف فى مكتب الرئيس، حجرة لا يسمح لأحد بدخولها مليئة بالأثاث الضخم والكتب الفاخرة التجليد. كانت السماعة تطقطق طقطقة خفيفة، وقد رقدت فوق نشافة الحبر أمامه. ونظر إلى شزراً وقال فى قرف: «إنها امرأة تتحدث من «الإسكندرية». » واعتقدت أنها لا بد وأن تكون «ميليسا»، ولكن لدهشتى انساب فجأة صوت «كليا» سابحًا من شذرات الذاكرة: «إننى أتحدث إليك من المستشفى اليونانى. إن «ميليسا» هنا، إنها فى الحقيقة مريضة للغاية ربما كانت تحتضر».

إننى لا أنكر أن دهشتى وارتباكى قد تحولا إلى غضب. . «غير أنها لم تكن لتسمح لى بإخبارك من قبل، لم تكن ترغب فى أن تراها مريضة ـ نحيفة للغاية. ولكن يجب أن أخبرك الآن. هل فى وسعك الحضور سريعًا؟ سوف تراك الآن».

واستطعت أن أرى بعين خيالى قطار الليل المتسكع بوقفاته وانطلاقاته التى تنتهى عند المدن والقرى التى يغلفها التراب والحر والقذارة. ربما استغرق السفر طوال الليل. واتجهت إلى «جودير» وسألته أن يسمح لى بالتغيب طوال نهاية الأسبوع. وقال مفكراً: «إننا نمنح الإذن فى الحالات الاستثنائية. كأن تتزوج مثلاً أو أن يكون أحدهم مريضًا للغاية». وأقسم أن فكرة زواج «ميليسا» لم تكن قد خطرت برأسى حتى نطق تلك الكلمات.

وعاودتنى الآن أيضًا ذكرى أخرى بينما كنت أحزم حقيبتى الرخيصة. الخاتمان، خاتما «كوهين»، إنهما ما زالا فى علبة أزرار القمصان ملفوفين فى ورقة بنية. ووقفت أتأملها للحظة وأنا أتساءل فى

حيرة إن كان للأشياء الجامدة أيضًا مصيرها كما للإنسان. هذان الخاتمان اللعينان، وفكرت ـ لماذا، بدا الأمر وكأنهما كانا ينتظران هنا طوال هذا الوقت فى اشتياق كالآدميين، ينتظران أن يوفيا حقهما التافه بأن يوضعا على إصبع أحدهم وقد وقع فى مصيدة زواج قائم على المنفعة. ووضعت الخاتمين البائسين فى جيبى.

إن الأحداث البعيدة تكتسب وقد حولتها وغيرتها الذاكرة لمعانًا مصقولا لأنها ترى فى عزلتها، مفصولة عن التفاصيل السابقة واللاحقة عن خيوط الزمن ولفافاته. إن ممثلى الأحداث يعانون أيضًا التحويل والتغير، ويغطسون فى بطء، أعمق فأعمق فى محيط الذاكرة كالأجساد مثقلة، ويجدون عند كل مستوفى القلب الإنسانى تقديراً جديدًا، وتقييمًا جديدًا.

لم يكن ألمًا ما أحسست به لانتكاسة «ميليسا»، لكنه كان الغضب، هياج لا يستهدف شيئًا، ويقوم كما أعتقد، على شعور بالندم. وانتهت كل آفاق المستقبل الهائلة والتى عمرتها رغم تشتت فكرى بصور «ميليسا»، انتهت الآن إلى العجز والفشل، ولم أدرك إلا الآن إلى أى مدى كنت أغذى نفسى بتلك الآمال. كانت كلها هناك، كذخيرة ضخمة مؤتمنة، كحساب يمكننى أن أسحب منه ذات يوم. وفجأة غدوت الآن مفلسًا.

كان «بلتازار» ينتظرنى عند المحطة بسيارته الصغيرة. وضغط على يدى فى تعاطف حار وخشن بينما كان يقول فى أسلوب عملى: «لقد ماتت المسكينة مساء أمس. لقد أعطيتها المورفين كى أساعدها على أن تنتهى دون ألم ـ حسنًا». وتنهد وهو ينظر إلىَّ نظرة جانبية. «المؤسف أنك غير معتاد على ذرف الدموع. كان من الممكن أن تخفف عنك».

«تخفف عن النفس بطريقة سوقية».

«إنها تعمق العواطف. . . . وتغسلها».

«اصمت يا «بلتازار» اصمت».

«كانت تحبك على ما أعتقد».

«إننى أعرف ذلك».

«كانت تتحدث عنك دائمًا. وكانت كليا معها طوال الأسبوع».

«كفى».

لم تبد المدينة أبدًا جميلة مذهلة إلى هذا الحد كما بدت فى هواء ذلك الصباح الناعم. وتلقيت الريح الخفيفة القادمة من الميناء على خدى الخشن كقبلة صديق قديم. ولمعت «مريوط» هنا وهناك بين ذرا النخل، بين الأكواخ الطينية والمصانع. وبدت الحوانيت على طول «شارع فؤاد» وقد اكتسبت كل لمعان «باريس» وجدتها. لقد غدوت، كما أدركت، مواطنًا حقيقيًا من صعيد مصر. وبدت لى «الإسكندرية» مدينة رئيسية. وفى الحدائق المشذبة كانت المربيات يدفعن عربات الأطفال بينما كان الأطفال يدفعون أطواقهم. وقطارات الترام تهرس الأرض تحتها وتقعقع وتصلصل. وقال «بلتازار» بينما كنا نقطع الطريق فى سرعة: «هناك شىء آخر. طفلة «ميليسا»، إنها ابنة «نسيم» غير أنى أعتقد أنك تعرف كل شىء عنها. إنها فى الفيلا الصيفية. فتاة صغيرة».

لم أستطع أن أستوعب كل هذا وأنا نشوان بجمال المدينة التى كدت أن أنساها. وخارج مبنى البلدية جلس الكتبة المحترفون على

مقاعدهم، وإلى جوارهم محابرهم وأقلامهم وعرائض التمغة. كانوا يحكون أنفسهم ويثرثرون بطريقة ودية. وصعدنا التبة المنخفضة التى تقوم عليها المستشفى بعد أن قطعنا الجزء الرئيسى من الطريق الذى تظلله الأشجار. كان «بلتازار» لا يزال يتكلم عندما غادرنا المصعد وبدأنا سيرنا فى ممرات الطابق الثانى الطويلة البيضاء.

«لقد نما بينى وبين «نسيم» حائل من البرود. لقد رفض فى تقزز رؤية «ميليسا» بعد ما عادت، ورأيت فى ذلك تصرفًا غير إنسانى، يصعب فهمه. إننى لا أعرف.... أما عن الطفلة فإنه يسعى لتبنيها. وأعتقد أنه قد بدأ يمقتها. إنه يعتقد أن «جوستين» لن تعود إليه طالما احتفظ بطفلة «ميليسا». أما من ناحيتى»، وأضاف فى بطء أكثر، «فإننى أنظر إلى الأمر على هذا النحو: لقد حدث عن طريق واحدة من عمليات التبادل المخيفة والتى يبدو ألا يقدر عليها غير الحب أن «نسيم» قد أعاد طفلة «جوستين» المفقودة لا لـ «جوستين» ولكن لـ «ميليسا». أترى؟».

إن الشعور بالألفة المخيفة والذى أخذ ينمو فى نفسى إنما يعود إلى حقيقة أننا كنا نقترب من الحجرة الصغيرة التى زرت فيها «كوهين» عندما كان يحتضر. بالطبع ستكون «ميليسا» راقدة فى نفس السرير الحديد الضيق فى الركن إلى جوار الحائط. وكأن الحياة الحقيقية تقلد الفن فى هذه النقطة.

كانت هناك بعض الممرضات فى الحجرة، كن مشغولات، يهمسن حول السرير، يعددن الستائر، ولكنهن تفرقن واختفين بكلمة واحدة صدرت من «بلتازار». ووقفنا عند مدخل الباب ننتظر لحظة وقد أمسك كل منا بذراع الآخر. كانت «ميليسا» شاحبة يابسة. كانوا قد ربطوا

فكها بشريط وأغلقوا عينيها، حتى بدت وكأنها قد نامت أثناء عملية تجميل. وأحسست بالراحة إذ كانت عيناها مغلقتين، فقد كنت أخشى نظرتهما.

وتركت وحدى معها لفترة من الزمن، فى ذلك الصمت الهائل الذى ساد حجرة المستشفى البيضاء الجدران، وفجأة وجدت نفسى أعانى من حيرة بالغة. إنه لأمر عسير أن تعرف كيف تتصرف مع الموتى، إن صممهم الشديد وصرامتهم البالغة تبدو أمرًا مدروسًا ومعدّا إعدادًا متقنًا. ويغدو المرء فى حضرتهم مرتبكًا وكأنه فى حضرة ملكية. وسعلت من خلف يدى وأخذت أمشى فى الحجرة جيئة وذهابًا وأنا أسترق منها نظرات خاطفة من ركن عينى، متذكرا الاضطراب الذى حل بى ذات مرة عندما زارتنى ومعها هدية من الزهور. كنت أرغب فى أن أضع خاتمى «كوهين» فى أصابعها غير أنهم كانوا قد لفوا جسدها فى الأربطة، وكانت ذراعاها مشدودتين متصلبتين إلى جوارها. ففى مثل هذا الطقس تتحلل الأجساد فى سرعة حتى إنهم يدفعون بها إلى القبور دون طقوس أو مراسيم. وقلت «ميليسا» مرتين فى صوت هامس واهن وأنا أميل بشفتى فوق أذنها. ثم أشعلت سيجارة وجلست إلى جوارها فوق كرسى حتى أدرس وجهها دراسة مستفيضة، مقارنًا إياه بكل وجوه «ميليسا» الأخرى والتى تزحم ذاكرتى والتى وطدت كيانها هناك. لم تكن تحمل أى شبه لأى منها ـ ومع ذلك فقد فاقتهم وكانت خاتمة لهم. إن هذا الوجه الأبيض الصغير كان الحلقة الأخيرة فى سلسلة الوجوه التى عرفتها لها. وبعد تلك النقطة هناك باب مغلق.

فى مثل تلك الأوقات يتلمس المرء بادرة يمكن أن تماثل استرخاء الإرادة الرخامى الرهيب والذى يقرؤه المرء على وجوه الموتى. ليس

هناك من شيء في كل مخزون العواطف الإنسانية المهلهل. وقد كتب «الأرناؤوطي» في سياق آخر: «كم هي مرعبة وجوه الحب الأربعة!». وعاهدت الشبح المسجى على الفراش بأني سآخذ الطفلة إن تركها «نسيم». وما إن انتهيت من هذا الاتفاق الصامت حتى قبلت جبينها العالي الشاحب وتركتها لرعاية هؤلاء الذين سيلفونها ويرسلون بها إلى القبر. كنت مسروراً أن أغادر الحجرة، أغادر صمتًا محكمًا ومانعًا. إنني أعتقد أننا نحن الكتاب قوم قساة. الموتى لا يعبأون. إن الأحياء هم الذين يمكن الإبقاء عليهم إذا استطعنا أن نحمل الرسالة التي ترقد مدفونة في أعماق التجربة الإنسانية.

(في الأيام الغابرة كانت تقوم السفن المبحرة والتي تحتاج إلى أن تثقل نفسها لتواجه البحر، بجمع السلاحف البرية من اليابسة وملء براميل كبيرة بها وهي حية. وقد تباع تلك التي تنجو من الرحلة الرهيبة إلى الأطفال كحيوانات أليفة. أما أجساد البقية المتعفنة فقد كانت تفرغ في موانى الهند الشرقية. وأصبحت كمياتها هناك أكثر من كمياتها في الأماكن التي جاءت منها).

سرت في المدينة في خفة دون جهد كسجين هارب. وكانت عينا «منمجيان» البنفسجية مليئة بدموع بنفسجية عندما عانقني في حرارة. وقرر أن يحلق لي ذقني بنفسه، كانت كل حركة من حركاته تعبر عن التعاطف والعزاء والرقة. وفي الخارج فوق الأرصفة مشى أهل «الإسكندرية» يغمرهم ضوء الشمس وكل منهم حبيس عالم من العلاقات الشخصية والمخاوف. ومع ذلك فقدا بدا كل منهم غريبًا غرابة لا نهاية لها عما يشغل بالي من مشاعر وأفكار. كانت المدينة تبتسم في لا مبالاة تحطم الفؤاد، كعاهرة أنعشها الظلام.

لم يبق غير شيء واحد أقوم به الآن، أن أرى «نسيم». وارتحت عندما علمت أنه يُنتظر عودته إلى المدينة، ذلك المساء. هنا أيضًا كان الزمن يختزن لى مفاجأة أخرى، لأن «نسيم» الذى عاش فى ذكرياتى لمدة عامين من قبل قد تغير.

كان قد هرم كامرأة ـ وتضخم وجهه وردفاه. كان يسير الآن وقد وزع ثقله على سطح قدميه بطريقة مريحة وكأن جسده قد عانى الحمل مرات عديدة. واختفت تلك الرشاقة الغريبة التى كانت تتميز بها خطاه. فضلا عن ذلك فقد غدا يشع فتنة فيها رخاوة تمتزج بالهم والقلق مما جعلنى لا أتعرف عليه فى بادئ الأمر. وقد سيطرت عليه نزعة تسلط حمقاء محل حيائه القديم الذى كان يبعث السرور فى النفس.

لم يكن لدى ما يكفى من الوقت لأضع يدى على تلك الانطباعات الجديدة وأفحصها عندما أقترح أن نزور «الإيتوال» سويًا. ذلك النادى الليلى الذى كانت ترقص فيه «ميليسا». وأضاف أن أصحاب النادى قد تغيروا، وكأن هذا التغيير يبرر زيارتنا للملهى فى نفس الليلة التى شيعت فيها جنازتها. ووافقت دون تردد لقد كنت مصعوقًا ومدهوشًا يحفزنى فضول لمعرفة مشاعره هو ورغبة فى مناقشة المشكلة التى تخص الطفلة.

وعندما هبطنا السلم الضيق الخانق إلى ضوء المكان الساطع انطلقت صرخة وهرعت البنات إليه من كل ركن كالصراصير. وظهر أنه معروف لهن الآن معرفة جيدة كزبون للمكان. وفتح ذراعيه بصيحة ضاحكة، واستدار لى وهو يفعل ذلك لأقر تصرفه. ثم تناول أيديهن واحدة بعد الأخرى وكان يضغطها بطريقة شهوانية إلى جيب سترته الواقع على صدره حتى يمكنهن تحسس محفظته المحشوة بأوراق

البنكنوت والتى يحملها الآن. وذكرتنى هذه الحركة فى الحال، كيف أمسكت امرأة حامل اعترضت طريقى ذات ليلة فى شوارع المدينة المظلمة بيدى عندما حاولت أن أهرب منها، وكأنها كانت تسعى لإعطائى فكرة عن المتعة التى تعرضها علىّ (أو ربما لتأكيد حاجتها)، ووضعتها فوق بطنها المنتفخة. وتذكرت فجأة وأنا أراقب «نسيم» الآن، دقات قلب الجنين المرتجفة وهو فى شهره الثامن.

من الصعب أن أصف كيف وجدت أن الجلوس إلى جوار هذا الشبيه السوقى لـ «نسيم» الذى عرفته ذات مرة، أمر غريب يستحيل التعبير عنه. وأخذت أرقبه بدقة غير أنه تجنب نظراتى إليه وحصر حديثه فى توافه ثقيلة كان يقطعها بتثاؤبه المتصل والذى كان يداريه خلف أصابع مرصعة بالخواتم. ومع ذلك فقد كانت تظهر ما بين الفينة والأخرى من خلف هذه الواجهة الجديدة لمحة من حيائه القديم، غير أنه الآن مدفون ـ كما يدفن قوام جميل فى جبل من السمنة. ولقد أسر لى «زولتان» النادل فى حجرة الغسيل: «لقد استعاد ذاته الحقيقية منذ هجرته زوجته. إن كل «الإسكندرية» تقول ذلك». والحقيقة أنه قد غدا مثل كل ما فى «الإسكندرية».

واستولت عليه فى ساعة متأخرة من تلك الليلة نزوة فى أن يتوجه بى إلى المنتزه فى ضوء القمر المتأخر، وجلسنا فى السيارة صامتين لمدة طويلة، ندخن، ونحملق إلى الخارج فى الأمواج التى تحجل عبر كثبان الرمال وقد أضاءها نور القمر. لقد أدركت حقيقته خلال هذا الصمت. إنه فى الحقيقة لم يتغير فى أعماقه. لقد اتخذ لنفسه قناعًا جديدًا فقط.

* * *

وتلقيت فى أوائل الصيف رسالة طويلة من «كليا» يمكن أن نختم بها هذه المقدمة التذكارية القصيرة عن «الإسكندرية».

«ربما تكون مهتمًا بتقرير منى عن لقاء قصير تم بينى وبين «جوستين» منذ أسابيع قليلة. لقد كنا منذ فترة مضت، كما تعرف، نتبادل البطاقات فى المناسبات كل من البلد التى تنتسب إليه، وعندما عرفت «جوستين» أنه ينتظر مرورى بـ «فلسطين» فى طريقى إلى «سوريا» اقترحت أن نلتقى لقاء قصيراً. وقالت: إنها ستأتى إلى محطة الحدود حيث يتوقف قطار «حيفا» لمدة نصف ساعة. إن المستعمرة التى تعمل بها تقع على مقربة من المكان. وفى وسعها أن تجد من يوصلها. وإننا سنتكلم لمدة قصيرة على رصيف المحطة. فوافقت على ذلك.

«وقد وجدت فى بادئ الأمر صعوبة فى التعرف عليها. لقد سمن وجهها كثيراً، وقصت شعرها من الخلف بطريقة مهملة حتى إنه كان ملتصقًا ببعضه كذنب الفأر. وفى اعتقادى أنها تضمه أغلب الوقت بقطعة من القماش. لم يعد هناك أثر لرشاقة و«شياكة» الماضى. وتبدو تقاطيعها وقد اتسعت، تقاطيع يهودية كلاسيكية، الشفاه والأنف يميلان أكثر فأكثر نحو بعضهما البعض. ولقد صدمت فى بادئ الأمر بعينيها اللامعتين وبالطريقة السريعة الصارمة التى تتنفس وتتحدث بها - وكأنها محمومة. وكما فى وسعك أن تتصور، فقد كنا خجلتين كلٌّ من الأخرى، خجلا قاتلاً.

«وسرنا خارج المحطة على طول الطريق وجلسنا عند حافة واد ضيق جاف، وتحت أقدامنا بعض زهور الربيع التى كانت تطل برأسها فى خوف وأحسست بانطباع أن اختيارها هذا المكان للقائنا ربما تم لكآبته التى تناسب كآبة اللقاء. إننى لا أدرى. أنها لم تذكر «نسيم» أو تذكرك

فى بادئ الأمر، ولكنها تكلمت فقط عن حياتها الجديدة. وادعت أنها قد حققت سعادة كاملة جديدة، من خلال قيامها «بالخدمة الاجتماعية». وأوحت لى الطريقة التى تحدثت بها عن نوع من الهداية الدينية. لا تبتسم. إنه لأمر صعب، كما أعرف أن تكون حليمًا مع الضعيف. إنها تدعى بأنها قد حققت من ذلك الجهد الذى يقصم الظهر فى المستعمرة الجماعية «تواضع جديد» (تواضع! الفخ الأخير الذى يترقب الأنا فى بحثها عن الحقيقة المطلقة. وأحسست بالتفزز ولكنى لم أقل شيئًا). ووصفت العمل فى المستعمرة بطريقة خشنة خالية من الخيال، كما يفعل أى فلاح. ولاحظت أن يديها اللتين كانتا تعتنى بهما فى الماضى عناية فائقة قد أصبحتا غليظتين خشنتين. وقلت لنفسى وأنا أحس الخجل إذ لا بد أننى كنت أشع نظافة وراحة، غذاء واستحمامًا، قلت: إننى أعتقد أن للناس الحق فى أن يتصرفوا فى أجسادهم بالطريقة التى تروق لهم، وبالمناسبة فهى لم تصبح ماركسية بعد، إنها روحانية على طريقة «بنايوتس» فى «أبو الصير». ولقد وجدت وأنا أراقبها الآن وأتذكر الإنسانة التى كانتها ذات يوم، الإنسانة المعذِّبة لنا جميعًا. إنه من الصعب فهم التغير الذى أصاب تلك الصغيرة المكتنزة ذات المخالب الصلبة.

«إننى أعتقد أن الأحداث ما هى إلا تفسير لمشاعرنا - يمكن أن تقودنا واحدة منها إلى الأخرى. الزمن يحملنا (إذا تخيلنا فى جرأة أننا شخصيات متميزة، نشكل بإرادتنا مستقبلنا الشخصى) - الزمن يحملنا إلى الأمام بقوة تلك المشاعر التى تعيش فى أعماقنا والتى لا نعى عنها إلا القليل. هل الأمر مبهم بالنسبة إليها إلى هذا الحد؟ إذًا فقد عبرت عن الفكرة بطريقة سيئة. . . أقصد أن «جوستين»، وقد شفيت من الخلل العقلى الذى جلبته لها أحلامها، ومخاوفها، انكمشت كما

تنكمش الغرارة. لقد شغلت النزوات الجزء الظاهر من حياتها فترة طويلة حتى إنها جردت الآن من كل مخزونها. إن موت «كابوديستريا» لم يكن وحده هو الذى أزاح الممثل الرئيسى فى هذه التمثيلية الوهمية، أزاح سجانها الأساسى. إن مرضها الذى كان دافع حركتها قد ترك محله، عندما انتهى، شعوراً كاملا بالإرهاق. ويمكن القول: إنها قد أخمدت فى نفسها دوافع الحياة وحتى شعلة عقلها مع خمود رغباتها الجنسية. إن الناس الذين يدفعون هكذا إلى أقصى آماد الإرادة الحرة يجبرون فى مكان ما على طلب العون لاتخاذ قرارات حاسمة. ولو لم تكن «جوستين» سكندرية أى (متشككة) لاتخذ هذا الأمر مظهر الهداية الدينية. كيف يمكن للمرء أن يعبر عن هذه الأشياء؟ إن القضية ليست قضية نمو المرء ليغدو سعيداً أو تعيساً. إن جزءاً كاملا من حياة امرئ يسقط فى البحر فجأة. ربما كما حدث لك مع «ميليسا». غير أن (فهكذا تجرى الحياة، قانون الجزاء الذى يمنح الخير للشر والشر للخير) عتقها هى إنما هو عتق أيضًا لـ «نسيم» من المواقع التى تحكم حياته العاطفية. إننى أعتقد أنه قد أحس دائمًا بأنه طالما عاشت «جوستين» فإنه لن يقدر على احتمال أبسط علاقة إنسانية مع أى واحدة أخرى. غير أن «ميليسا» قد برهنت له على خطئه، أو على الأقل فإنه قد اعتقد ذلك - إلا أن آلام قلبه القديمة انطلقت مع رحيل «جوستين» وامتلأت نفسه بتقزز شامل مما فعله مع «ميليسا».

«العشاق ليسوا على الإطلاق أنداداً - ألا تعتقد ذلك؟ إن أحدهم يحجب الآخر دائمًا ويوقف نموه أو نموها حتى إن المحبوب تؤرقه دائمًا الرغبة فى أن يهرب. فى أن يكون حرّاً وينمو. إن هذا بالتأكيد هو الشيء المأساوى الوحيد فى الحب؟

ولو كـان «نسـيم» من ناحـيـة أخـرى هو الذى خطط مـقـتل «كابوديستريا» (كما انتشرت الإشاعة وصدقت) فإنه يكون بذلك قد اختار أكثر السبل شؤمًا. والحقيقة أنه كان من الأحكم لو قتلك أنت. ربما كـان يأمل فى أن يخلص «جـوسـتـين» من الشبح (كـمـا حـاول «الأرناؤوطى» من قبل) يخلصها من أجله هو. (هذا ما قاله مرة - وأنت الذى أخبرتنى). غير أن ما حدث هو العكس تمامًا. لقد منحها بما فعل نوعًا من المغفرة والإبراء، أو أن «كابوديستريا» المسكين هو الذى منحها ذلك دون قصد منه - والنتيجة أنها لم تعد تفكر فيه الآن كحبيب ولكن كرئيس قساوسة: إنها تتحدث عنه فى إجلال سوف يرعبه إن سمعه.

إنهـا لـن تعـود أبدًا، وكـيف يمكن لهـا أن تفـعل ذلك! ولو فـعلت لأدرك للتو أنه قد فقدها إلى الأبد - لأن هؤلاء الذين يقفون منا موقف المعترف لنا لا يمكنهم أن يحبونا، إنهم لا يحبوننا البتة حبًّا حقيقيًّا.

(أما عنك فقد قالت «جوستين» فى بساطة وبهزة خفيفة من كتفها. «كان على أن أقصيه عن تفكيرى»).

«حسنًا، تلك هى بعض الأفكار التى جالت بخاطرى بينما حملنى القطار عبر بيارات البرتقال إلى الشاطئ. لقد تحددت معالم تلك الأفكار بصورة قاطعة بمعاونة الكتاب الذى اخترته كى أقرأه خلال الرحلة، إنه الجزء الأخير من كتاب «الله يحب الفكاهة». لكم ارتفعت مكانة «بورسواردن» بعد موته! وكأنما كان يقف فيما مضى حائلا بين كتبه وبين فهمنا لها. إننى أرى الآن أن ما كنا نراه غامضًا فى هذا الرجل إنما يرجع إلى خطأ فى نفوسنا نحن. إن الفنان لا يحيا مثلنا حياة خاصة، إنه يخفيها، ويرغمنا أن نبحث فى كتبه إن شئنا أن نلمس المنبع الحقيقى لأحاسيسه. فتحت كل اهتماماته بالجنس والمجتمع والدين..

إلخ (كل التجريدات الأساسية التى تسمح بالثرثرة للجزء الأمامى من المخ) هناك فى بساطة شديدة رجل يتعذب فوق ما يحتمل لافتقاد هذا العالم إلى المعاملة الرقيقة.

«وتعود بى كل تلك الأمور إلى نفسى، لأنى أنا أيضًا أعانى تغييرًا غريبًا. إن الحياة القديمة القانعة المكتفية بذاتها قد تحولت إلى شىء أجوف بعض الشىء، فارغ بعض الشىء. إنها لم تعد تستجيب لأعمق احتياجاتى. ففى مكان ما فى أعماق نفسى يبدو أن تيارًا قد حول طبيعتى. لا أدرى لم، ولكن أفكارى، يا صديقى العزيز، قد تحولت أخيرًا أكثر فأكثر نحوك، هل فى وسعى أن أكون صريحة؟ هل يمكن أن توجد صداقة ينشدها المرء ويعتمد عليها فى هذا الجانب من الحب؟ إننى لن أتكلم أكثر من هذا عن الحب ـ فقد غدت الكلمة وما تحمله من اصطلاحات كريهة إلى نفسى. ولكن هل توجد صداقة يمكن أن ينالها المرء أكثر عمقًا من ذلك، عميقة بلا حدود، ومع ذلك فهى صداقة بلا كلمات أو أفكار؟ يبدو ـ على نحو ما ـ أنه من الضرورى أن يجد المرء إنسانا يخلص له. لا فى الجسد (فأنا أترك هذا للقساوسة) ولكن فى الفكر الذى يحس اللوم والتأنيب؟ ولكن ربما لا تكون مثل هذه المشكلة من النوع الذى يثير اهتمامك كثيرًا فى هذه الأيام. لقد أحسست مرة أو مرتين بالرغبة السخيفة فى أن أحضر إليك وأقدم خدماتى فى العناية بالطفلة. ولكن يبدو واضحًا الآن أنك لم تعد فى الحقيقة تريد أحدًا، وأنك تضع وحدتك فوق كل شىء....».

وهناك بعض السطور الأخرى ثم الخاتمة العاطفية.

* * *

الحشرات المجنحة والتى يشبه صوتها الزقزقة تخفق فى السهول

الشاسعة، والبحر المتوسط يمتد فى الصيف أمامى بكل زرقته الخلابة. هناك فى مكان ما خلف خط الأفق الخفاق الأرجوانى الفاتح ترقد «أفريقيا»، ترقد «الإسكندرية» تمسك بقبضتها الرقيقة عواطف المرء خلال ذكريات أخذت تعود فى بطء إلى عالم النسيان، ذكريات أصدقاء وأحداث مضت منذ زمن بعيد. إن البطء الوهمى للزمن يأخذ فى الضغط عليها، فى طمس معالمها - حتى إننى أتساءل أحيانًا عما إذا كانت تلك الصفحات تسجل أفعال أناس حقيقيين، أو أنها ليست فى بساطة قصة أشياء قليلة خالية من الحياة أحاطتهم بمأساة أقامتها حولهم - أعنى عصابة سوداء، غطاء أخضر من المطاط، مفتاح ساعة، وزوج من خواتم الزواج سلبت من صاحبها.

وسرعان ما يحل الظلام وتغطى نجوم الصيف سماء الليل الصافية فتملؤها. سأكون هنا، كما كنت دائمًا، أدخن إلى جوار الماء. لقد قررت أن أترك خطاب «كليا» الأخير دون رد. لم أعد أرغب فى أن أفرض إرادتى على أحد، فى أن أفكر فى الحياة على أساس من العهود والقرارات والشروط. سيكون الأمر لـ «كليا» فى أن تفسر صمتى طبقًا لحاجتها ورغباتها، فى أن تحضر إلىَّ إن شاءت أو لا تحضر، حسبما يتراءى لها. ألا يتوقف كل شىء على تفسيرنا للصمت الذى يحيط بنا؟

ولذلك. . . .

نقاط عمل

درجات المنظر الطبيعى : سماوات شديدة الانحدار ، سحابة منخفضة ، أرض لؤلؤية معتمة بألوان المحار والبنفسجى ـ البرونزى والليمونى يغطيان البحيرة ، الصيف : سماء ليليكية رملية . الخريف : كدمة منتفخة رمادية الألوان . الشتاء : رمال بيضاء متجمدة ، سماوات صافية ، مشاهد نجوم دالة المعنى .

* * *

عصائر ـ الشخصيات

سقيفا ماجنانى : وقاحة ، سخط ونقمة .
جاستون بومبال : عسل ـ الدب ، أفيونى بدين .
تيرزا دى بنزومونتى : طلاء وجه «بيرپنيس» .
بتلوميو داندولو : عالم فلك ، مشتغل بالتنجيم ، زينة(*) .
فؤاد السعيد : لؤلؤة القمر السوداء .
جوس سكوبى : القرصنة .
جوستين حصنانى : سهم فى الظلام .
جاستون فيبس : أنف كجورب قصير ، وقبعة سوداء .
أحمد زنانيرى : مجرم النجم القطبى .
نسيم حصنانى : قفاز ناعم ، وجه من زجاج يكسوه الجليد .
ميليا ارتيميس : راعية الأسى .
س . بلتازار : خرافات ، عمل ، عدم المعرفة .

* * *

(*) طائفة بوذية تؤمن بأنه فى وسع المرء أن ينفذ إلى الحقيقة عبر التأمل ـ (المترجم) .

بومبال ينام فى كامل رداء المساء، وإلى جواره، على السرير، مبولة مليئة بأوراق البنكنوت، ربحها فى الكازينو.

* * *

دى كابو: يشوى فى الشهوة مثل تفاحة فى قشرتها.

* * *

أقوال مرتجلة لجاسون فيبس:

«المحب مثل هرة معها سمكة. يتوق أن يكون بعيدا، وألا يشارك أحدا فى طبقه».

* * *

هل حدث القتل خطأ، أم كان نتيجة محاولة؟ جوستين فى سباق على امتداد الطريق الصحراوى المتجه إلى القاهرة، فى السيارة الرولز، عندما انطفأت الأضواء فجأة. واندفعت السيارة الكبيرة، وقد غدت عمياء ضريرة، بعيدا عن الطريق، وهى تصفر كسهم، لتدفن نفسها فى أحد الكثبان الرملية. ووصل نسيم إليها فى حدود نصف الساعة. واحتضنا بعضهما البعض وهما يدمعان.

* * *

بلتازار عن جوستين: «سوف تجد أن سولكها المرعب إنما يقوم على صرح متداع من أعمال الجبن الطفولية».

* * *

كليا تلقى دوما نظرة على أبراج الطالع قبل أن تصل إلى أى قرار.

* * *

حكاية كليا عن الحفلة المفزعة. كانت قد رأت هى وجوستين، وهما معا فى سيارتها، صندوقا بنيا، من ورق مقوى، على الطريق. كانتا متأخرتين، ولذا وضعتاه فى خلفية السيارة. ولم يفتحاه حتى وصلا الجاراج. هنالك وجدا فى داخله طفلا ميتا ملفوفا فى أوراق الجرائد. ماذا تفعلان بهذا القزم الذاوى؟ كانت أعضاؤه جيدة التشكيل. وكان موعد وصول الضيوف قد حل، وكان عليهما أن يهرعا. فوضعته جوستين فى درج مكتب القاعة. ونجحت الحفلة تمام النجاح.

* * *

يقول بورسواردن عن الرواية الثلاثية إن: «زخم الحكى نحو الأمام، مضاد للانطلاق بسبب مراجع تعود بالزمن إلى الخلف، فتعطى انطباعا أن الكتاب الذى لا يسافر من أ إلى ب إنما يقف فوق الزمن، ويدور ببطء على محوره ليشتمل كل

النموذج. إن الأشياء لا تقود كلها إلى الأمام، إلى أشياء أخرى. إن بعضها يقود إلى وراء، إلى أشياء مضت. رواج الماضى بالحاضر، مع تعددية مستقبلية تتسابق نحو واحد أحد. كان ذلك رأيى على أى حال» . . .

* * *

«إذن إلى أى مدى سيبقى هذا الحب؟ (مداعبة).

«لا أعرف».

«ثلاثة أسابيع، ثلاث سنوات، ثلاثة عقود. . . ؟»

«إنك مثل الآخرين. . . تحاول تقصير الخلود بالأرقام»،

قيلت فى هدوء، ولكن بشعور مكثف.

* * *

لغز: عين الطاووس. القبلات غير البارعة تمثل شكلا مبكرا من الرسم.

* * *

من الشعر: «أحب صوت الإسكندرانية المكتوم الناعم». (نسيم).

* * *

كليا تعبد والدها العجوز. إنه أبيض الشعر، منتصب القامة، فى عينيه نوع من الشفقة الهائمة على إلاهته الشابة، غير المتزوجة، التى هو والدها. إنهما يرقصان معا مرة كل عام. فى مساء العام الجديد، يرقصان فى جلال وتهذيب. إنه يرقص الفالس وهو منتظم كالساعة.

* * *

حب بومبال لسفسفا: يقوم على رسالة واحدة مرحة ملكت ولعه. عندما يستيقظ تكون قد غادرت، غير أنها تكون قد ربطت بطريقة رائعة ربطة ردائه بجون توماس الخاص به، تحية مثالية. إن هذه الرسالة تأسره حتى إنه يرتدى للحال ملابسه ويتوجه ليطلب يدها لما تتمتع به من حس فكاهى.

* * *

كان بومبال فى قمة تأثره مع سيارته الصغيرة التى يحبها بإخلاص. أتذكره يغسلها، بصبر شديد، فى ضوء القمر.

* * *

جوستين: «مندهشة دائما لقوة مشاعرى ـ أنتزع القلب من كتاب بأصابعى الأشبه برغيف طازج».

* * *

الأماكن: شارع تقنطره البواكى: تندات: أوانى مائدة فضية ويمام للبيع. لقد سقط بورسواردن فوق سلة، وامتلأ الشارع بحبات التفاح.

* * *

رسالة فى ركن جريدة. سيارة أجرة فيما بعد، أجساد دافئة، أمسية، كمية من الياسمين.

* * *

سلة من السماء، انفجرت مفتوحة فى البازار. لم تحاول الفرار، لكنها انتشرت فى بطء مثل عسل النحل وهو ينثال. يسهل الإمساك بها مرة أخرى.

* * *

بطاقة بريدية من بلتازار. كان موت سكوبى هو المزحة العظمى كم كان سيستمتع هو به. كانت جيوبه مليئة بخطابات الحب إلى «حسان» معاونه، وقد استدارت كل فرقة الرذيلة لتنشج عند قبره. كل تلك الغوريلات السوداء كانت تبكى كالأطفال. مسيرة عاطفية إسكندرانية للغاية. كان القبر، بالطبع، صغيرا على النعش. وكان حفارو القبور قد ذهبوا للغداء. فجىء بفريق من رجال الشرطة النباشين ليقوموا بالعمل. حدث ارتباك كالمعتاد. سقط النعش على جانبه، وكاد الرجل العجوز أن يتدحرج خارجه. صرخات. غضب الكاهن. كاد القنصل الإنجليزى أن يموت خزيًا. غير أن الإسكندرية كانت لها هناك. وقضى الجميع وقتًا طيبًا.

* * *

يسير بومبال بطريقة تتسم بالجلال، يموت ثملا فى العاشرة صباحًا، يرتدى ملابس المساء كاملة، معطف وقبعة أوبرا ـ لكنه يحمل على واجهة قميصه كلمات مكتوبة بأحمر الشفاه، «مؤخرة مشعل الجمهوريين».

* * *

المتحف

الإسكندرية ترتدى قرنى آمون (جنون نسيم). لقد عرف نفسه بحر أ بسبب القرنين.

* * *

جوستين تتأمل فى حزن تمثال بيرينيس، وهى فى حداد على ابنتها الصغيرة التى جعل الكهنة منها إلهة: «وتساءلت، إن كان يلطف هذا من حزنها؟ أم هل يجعله أكثر دواما؟

* * *

شاهد ضريح أبولو رودس يعطى طفلة هدية. «يمكن أن يدفع بالدموع إلى عينى المرء». (بورسواردن) «لقد ماتوا جميعا. لا شىء سوف يشير إلى ذلك».

* * *

أوريليا تتضرع إلى بيتيسوكوس التمساح الإله... ناروز.

* * *

اللبؤة تمسك بزهرة ذهبية.

* * *

أوشابتى... تماثيل صغيرة يفترض فيها أن تقوم بخدمة المومياء فى العالم السفلى.

* * *

لم يهز موت سكوبى صورتنا عنه، على نحو ما. لقد رأيته بالفعل من قبل بمدة طويلة وهو فى النعيم... البطاطا الحلوة الملونة الناعمة أشبه بأفخاذ أطفال حديثى الطبخ. الليل يهبط بعصمة أنفاسه الزرقاء الثقيلة فوق توباجو. إنه أكثر نعومة من ريش الببغاء. طيور الفلامنجو الورقية، تصور وتهبط فى السماء، وقد مستها ورقة شجر ذهبية، تلامسها حدة خيرزانات المياه السوداء الجارحة. إن كوخه الصغير المصنوع من البوص، والسرير الخيرزان، والذى يقف إلى جانبه ساكنا حامل الكعك المحترم الخاص بحياته الأرضية. وقد سألته كليا ذات مرة: «ألا تفتقد البحر يا سكوبى؟» فأجاب الرجل العجوز فى بساطة، ودون تردد، «أراه فى أحلامى كل ليلة».

* * *

لقد نسخت ترجمتين فى كافافى(ϕ) وأعطيتهما لها مما أسعدها، رغم أنهما لم يكونا بأى حال حرفيتين. الآن تأسست شريعة كافافى بواسطة ترجمات ماڤرو جورداتو الرفيعة العميقة، بإحساس حرر الشاعر ليُختبر الآخرون معه. لقد حاولت أن أقوم بعملية نقل أكثر منها عملية ترجمة ـ غير إننى لا أستطيع القول، ما مدى نجاحى.

* * *

المدينة

تقول لنفسك: سوف أذهب
إلى أرض أخرى وبحر آخر،
إلى مدينة حبها أكذوبة، مدينة بعيدة عن هذه
بقدر ما يمكن أن يكون، أو يؤمل أن يكون ـ
حيث كل خطوة الآن تشد الأنشوطة:
قلب مدفون فى جسد بطل استعماله:
حتى متى، حتى متى يجب أن أكون هنا
حزينا وسط تلك الضواحى فى جوار
العقل الشائع؟ إننى حيثما أنظر الآن
تنهض أمامى ضرائب حياتى السوداء.
كنت هنا لسنوات عديدة للغاية
أنفق وأبدد، ولا شىء ربحت.
ليس هنالك أرض جديدة، صديقى،
ولا بحر جديد، لأن المدينة سوف تتبعك،
سوف تهيم فى ذات الشوارع بلا نهاية
إن ذات الضواحى الذهنية تنساب من الشباب إلى الشيخوخة،
وفى ذات الدار، سوف تصل فى النهاية، إلى اللون الأبيض ـ
المدينة قفص.
لا أماكن أخرى، هذه دوما
يابستك الأرضية التى تراها وأنت عائد من السفر، ولا سفن موجودة لتأخذك
من نفسك. آه ألا ترى فإنك
كما دمرت حياتك فى قطعة.
الأرض الواحدة هذه، فإنك قد دمرت قيمتها
فى كل مكان الآن ـ فوق الأرض كلها.

الرب يهجر أنطونى

فجأة، فى منتصف الليل الدامس،
سمع الصحبة الخفية عابرة، الأصوات الواضحة،
وموسيقى الخورس الخفى الساحرة ـ
خذلك حظك الآن،
الآمال مضت جانحة، تحولت إلى دخان
لكن، مثل رجل زود منذ زمن بعيد
بالشجاعة قل وداعاتك الأخيرة
للإسكندرية مادامت هى التى تغادر.
لا تنخدع ولا تقل أبدا إنه كان
حلما أو أن أذنيك قد ضللتك،
دع للجبناء توسلاتهم وشكاواهم،
دع كل تلك الآمال العقيمة تتساقط
واستدر مثل رجل أعد منذ زمن بعيد،
بنزو، وفخار، وتخل يليق بك وجدير
بمثل تلك المدينة
استدر للنافذة المفتوحة وانظر أسفلها
لتنهل عبر كل أنواع الخدع
نشوتك الداكنة الأخيرة من الحشد الغامض
وتقول وداعا للإسكندرية المغادرة.

الهوامش

(ф) ص ١٣ : «شاعر المدينة» . سى . بى . كافافى .

(ф) ص ١٤ : «الرجل العجوز» . سى . بى . كافافى .

(ф) ص ٤٥ : القابال . الأجساد الوهمية لرجال ماتوا ميتة مبتسرة «يتخيلون أنهم يقومون بأعمال جسدية ، بينما هم لا يملكون فى الحقيقة أجسادا ، لكنهم يفعلون ذلك فكرا» . باراسيلوس .

(ф) ص ٤٦ : «إنه يتصور ، طبقا لعقيدته الغنوسطية ، التى تؤمن بخطأ الخليقة ، أن هنالك إلها بدائيا ، هو مركز تناغم دينى ، يرسل بتجليات عن ذاته ، من أزاوج ، ذكر وأنثى . وكان كل زوج يجىء أدنى من سلفه ، وكانت صوفيا (الحكمة) هى أنثى الزوج الثالث عشر : وكانت أقل الجميع كمالا . لقد عبرت عن نقصها ، ليس مثل لوسيفر بالتمرد على الرب ، ولكن بالرغبة المتقدة حماسا للاتحاد معه . لقد سقطت عبر الحب» . أ . م . فوستر ـ الإسكندرية .

(ф) ص ٤٨ : اقتباس من باراسيلوس .

(ф) ص ٦٥ : طافيا ، «خادمة حمراء» مصرية .

(ф) ص ٦٨ : متن يونانى .

(ф) ص ١٠٧ : عمرو ، هازم الإسكندرية ، كان شاعرا وجنديا . ويكتب أ . م . فورستر عن الغزو العربى . «رغم أنه لم تكن لديهم نية تدميرها ، فإنهم دمروها ، كما يفعل طفل بساعة . ولم تؤد وظيفتها ، مرة أخرى على نحو كامل لأكثر من ألف عام .

(ф) ص ٢٢٢ : إن ترجمة «للمدينة» موجودة فى نقاط العمل .

(ф) ص ٣١٠ : انظر ص ٣١١

هذه الرواية

- ملحمة القرن العشرين، وواحدة من أهم الروايات التى صدرت فى هذا القرن. هى الرواية الأولى من رباعية الإسكندرية الشهيرة. التى تعد درة إنتاج صاحبها رغم غزارته.

- كان صدورها، علامة فارقة فى تاريخ الكتابة الروائية. وقد تركت أثرها الكاسح فى الكتابات الروائية التى جاءت بعدها. ويمكن تحديد حوالى عشر روايات هامة فى الأدب العربى المعاصر ما كان يمكن أن تكتب، لو لم تكن رباعية الإسكندرية.

- شكلت هذه الرواية الدقات الأولى التى أنهت زمان الكتابة التقليدية المستقرة. وفتحت الآفاق أمام مغامرة فنية فى القص ما زالت أصداؤها تتلألأ يومًا بعد الآخر.

- ها هم أبطال النص، دارلى، ميليسا، جوستين اليهودية المتزوجة من نسيم المصرى. التى تهرب إلى فلسطين لكى تعمل هناك فى أحد الكيبوتزات.

- لكن فى الأجزاء التالية نجد أنفسنا وجهًا لوجه أمام الجوانب الأخرى للصورة.

هذا الروائى

قال عنه هنرى ميللر : أنه سيد الأدب الإنجليزى . ويضعه نقاد الأدب فى نفس مكان جيمس جويس ومارسيل بروست باعتبار أن الثلاثة آباء شرعيون للتجديد الأدبى الذى كان من سمات قرننا العشرين .

ولد فى الهند سنة ١٩١٢ ورحل عن عالمنا فى العام الماضى . وترك لنا حوالى سبعين كتابًا فى الرواية والقصة وأدب الرحلات .

لورانس داريل غربى رفض حضارة الغرب . وعاش فى شرق المتوسط . وكتب عنه ولذلك تناثرت فى أعماله روائح صوفية ، وظلال رؤية رحالة . وفى كل الأحوال . فقد رأى الدنيا بقدر كبير ومستمر من الدهشة .

وتحولت هذه الدهشة إلى تجديد لا نهاية له فى كل حرف كتبه .

وإن كان هناك كاتب ارتبطت حياته بقرننا العشرين ، بدأ معه ، ومات مع غروبه ، وجسد فى كتاباته كل أحلامه ، فإن هذا الكاتب هو لورانس داريل دون سواه .

لورانس داريل

لورانس داريل، مواطن بريطانى من أصل أيرلندى، ولد فى منطقة الهملايا فى الهند، حيث قضى سنواته العشر الأولى. قرر بعد أن أنهى دراسته فى إنجلترا أن يصبح كاتبًا. كرس كل مواهبه خلال الثلاثينيات لشعره الذى حظى بكثير من الاستحسان. نشر له فى باريس عام ١٩٣٨ «الكتاب الأسود»، الذى كتب عنه ت. س. إليوت، باعتباره واحدًا من الآمال الكبار للرواية الإنجليزية الحديثة. نشر «الكتاب الأسود»، لأول مرة فى الولايات المتحدة، عام ١٩٦٠.

واعترضت الحرب العالمية الثانية. مستقبل داريل الأدبى بصورة مؤقتة. خدم خلال سنوات الحرب، ولبعض الوقت بريطانيا العظمى، فى مجالات رسمية ودبلوماسية مختلفة فى أثينا، القاهرة، رودس وبلجراد.

إن نشر «جوستين» عام ١٩٥٧ والظهور المتتالى لـ «بلتازار» (١٩٥٨)، و«ماونت أوليف» (١٩٥٩) و«كليا» (١٩٦٠)، كأجزاء فى نفس السلسلة الرائعة المسماة «رباعية الإسكندرية»، والتى كرسها لمناقشة مسألة الحب بمختلف صوره، قد أدت، بصورة سريعة، إلى أن يغدو داريل معروفًا باعتباره واحدًا من أكبر كتاب بريطانيا فى الأزمنة الحديثة وأكثرهم أهمية.



لو رنس داريل

واحـد من أهـم الروائيين الإنجليز وأكثرهم مبيعًا فى القرن العشرين. وكتابه «رباعية الإسكندرية» هو بلا شك أحب أعماله للقراء. وتدور الأحداث فى الإسكندرية خلال الحرب العالمية الثانية. فى هذا العالم البراق والفاسد الذى قارب شفا الانهيار يحاول «ل. ج. دارلى» أن يقنع نفسه بنهاية علاقته مع الجميلة المثيرة «جوستين حوسنانى» ليبدأ رحلة مراوغة للخداع الجنسى والسياسى أطلق عليها المؤلف «بحث فى الحب المعاصر».

"لا يوجد شك فى عظم إنجاز داريل."

چورج شتاينر

"داريل متمكن فى خلق الإثارة. لقد بهرنى من البداية."

وليـ...

"إنجاز معجز ومبهر."

ملحق جريدة التاي...

"واحدة من أعظم أعمال الأدب الإنجليزى. تلم... إنسانية خالدة لا تتغير."

جريدة التـ...

"الكتابة دائما رائعة، ليس فقط فى الفق... الشاعرية الرائعة، بل أيضا فى التعليقات الذكيـ... الساخرة." فيليب توينبى،

جريدة الأوبزرفر

6 221102 023092

دار الشروق

www.shorouk.com